

مكتبة الأسرة

مهمود أحمد محمد



مهرجان القراءة للجميع

2000

قصص
قصيرة

خوخة السلطان



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

خوخة السعدان
مكتبة السعدان

اسم العمل الفنى : النقرزان التقنيه : خامات مختلفة

مقاس العمل : ٧٦ × ١١٣ سم رقم السجل : ٤٠٤١

عمر النجدى (١٩٣١)

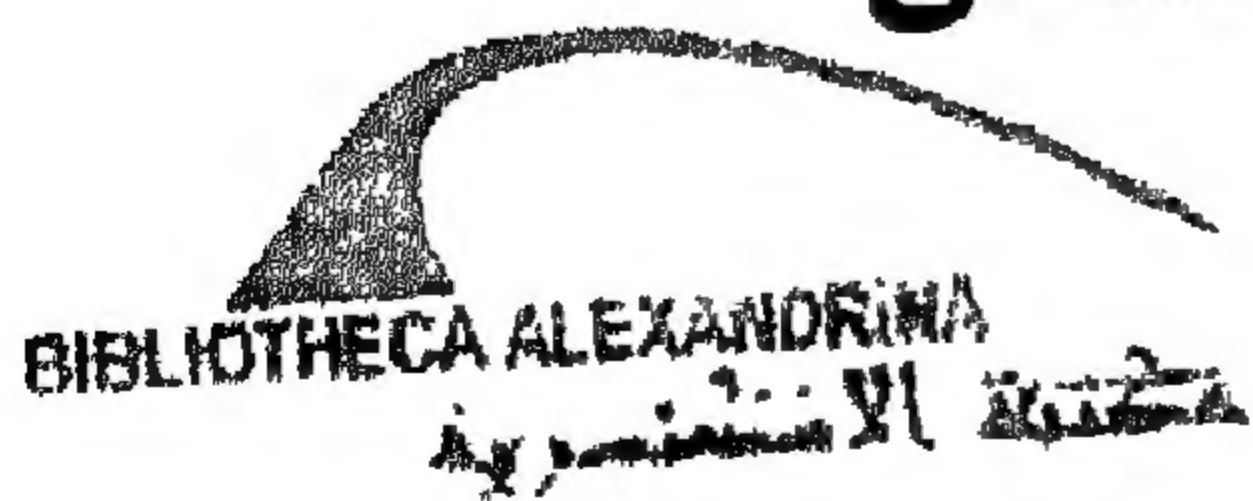
فنان بارز وضع بصمات لا تمحى فى تفعيل ما يطلق عليه «الهوية» المصرية فى الفن المصرى الحديث . مصور وخزاف ونحات وحفار ، وفنان فسيفساء ، أصاب فى كل واحدة منها قدرا عاليا من التقدير فى كافة الأوساط.

كانت رسومه الرمزية ذات السياق التعبيرى الحوشى - متزاملاً فى ذلك مع صالح رضا - أحد الأبجديات التى دعت البعض الى اعتباره نموذجاً يحتذى ، إذ قدم شيخ القرية ، والجالسون على المصطبة خارج البيت ، وعلاقات المحبين والعاشقين من أبناء الفقراء فى المدينة ، وقد ظلت تلك مرحلة لا يمكن محوها من الذاكرة لما تتضمنه من حشد للذكريات المشتركة لعدد من المشاهدين، ولعله الآن عادا إليها وقد إزداد بهاءً وقدرة ووضوحاً - بعد أن تخلص عن فنون الكتابة والحروفية فى لوحاته التى بدأها نهاية الستينات ، وتذكر له حركة النحت ماجاد به عمر النجدى من فكرة السالب والموجب الذى يماثل الكتلة المنزوعة وفراغها فى التمثال منذ الستينات - فضلاً عن مبادراته الأولى ذات الأهمية فى مجال الفسيفساء الطبيعى للأعمال الصرحية .

قطاع الفنون التشكيلية

خوذة السعدان

محمود السعدني





مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

خوخة السعدان

محمود السعدنى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة، تلك الصيحة التي أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذي فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافي الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت في سنواتها الست السابقة (١٧٠٠)، عنواناً في حوالى (٣٠٠) مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى (٣٠٠) ألف نسخة من بعض إصداراتها. وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى (١٦) جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. هدير هرحان

امداد

**الى الاجيال السعيدة المقبلة ،
جيل اكرم واحمد السعدنى .**

« محمود السعدنى »

كوحيدا السعدني.. وحاساة البشر



بقام : صلاح حافظ

الأدب عند محمود السعدني ليس تصويرا للحياة ، وإنما
هو الحياة نفسها •

وشخصيات قصصه ليسوا رموزا لتجسيد واقع يريد إبرازه
أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه • إنما هي حقائق حية ،
عاشرها بنفسه ، وجاء يحكي لنا عنها •

وهو قد عاش هذه الشخصيات لأنه يحب أن يعيش
الناس •

وهو يحكي لنا عنها ، لأنه يحب أن يحكي •

وسر السعدني هو أنه لا يوجد مكان ، أو بيئة ، أو مدينة ،
أو شعب ، لا يشعر معه أنه في بيته • فهو يأكل الكافيار في
قصور السادة بنفس اللذة التي يأكل بها كوز الذرة على الرصيف
وهو في السجن كان يداعب السجنان ، ويقاسمه طبق العدس ،

ويسمع أمجاده بلذة حقيقية . وفي بورسعيد كان يقضى الليل والنهار مع الصيادين . وفي لندن كان يسمع بشغف متساعب اصحاب الملايين . وفي حوارى الجيزة كان يشغله الجزار الذى قبض عليه رجال التموين ، وصاحب المقهى الذى سقطت لافتته لانه ثبتها بجبس مفشوش .

وحياة السعدنى اعرض من حياة اى كاتب مصرى اعرفه . وهو فيها قد عرف من الناس اكثر مما عرف اى كاتب . وعاش ادوارا لم يعيشها غيره . . عاش فقيرا ، وعاش وجيها ، وعاش بطلا ، وعاش خوافا . وهاجم ودافع . وكر وفر . . وقال الحق حيث كان يجب ان يكتبه . وكذب بدون سبب ، لمجرد العبث والتسلية . وخاف امام اخطار هزيمة . وتحدى اخطارا رهيبه .

ولا يمكن تفسير حياة محمود السعدنى الا على ضوء الشخصيات التى عايشها ، والتى لا حصر لها ، ولا حدود لتنوعها . فهو لم يكتب بانه عايشها . وانما عاش كلا منها على سبيل التفوق . . وتوحد مع كل منها فى لحظة من اللحظات .

وهو لهذا لا يحكى عنها من طرف انفه . ولا يبدو مشرفا عليها من اعلى . ولا يحاول ان يجرى على لسانها فلسفته الخاصة . انما يطلقها تتصرف ، وتتحرك ، وتتفلسف ، وهو محب لها . . ومؤمن بها .

يسخر منها ، نعم . لكن هذا ليس استخفافا بها . . انما تعبير عن مودته وحبه ، وعلان بانها قد صارت بعض حياته ، وانه قرر ان يعاملها كما يعامل نفسه . . ومحمود السعدنى لا يهب ان يسخر من احد كما يحب ان يسخر من نفسه .

والقيمة الكبرى للقصص التى فى هذا الكتاب هى انها جميعا حقيقية ، وانها جزء من حياة الكاتب . لا من خياله .

أحداثها ، شخصياتها ، سلوك الناس فيها ، مآسئها
ومهازلها ، كلها من خلق الحياة ، لا من خلق الخيال . وجاذبيتها
ليست من ثمار الصنعة الفنية ، أو الافتعال . وإنما من ثمار
الصدق في الرواية . . . ومن ثمار المقدرة الفذة التي يتمتع بها
السعدنى في تجسيد المشاهد والمفارقات . وقدرته على أن يكتب
كما يتكلم . . . بللغة ، وسخرية ، واستمتاع .

وميزة هذه المجموعة المنتقاة من قصص السعدنى ، والتي
سبق أن نشر بعضها ، أنها تصور مجتمعا بلارتوش ، ولا أغطية
ولا زينات . . . وأنها صادقة مائة في المائة . وأن صاحبها قد عاش
كل قصة منه بكل جوارحه ، وبعين ثاقبة ، وذاكرة حديدية . .
وعندما كتبها كان لا يروى عن أبطالها فقط . . . وإنما كان يكتب
عن نفسه أيضا . وكان يفصح في كل قصة منها عن بعض ذاته
كإنسان . . . وفنان . . . وأديب . . .

لا أدري ماذا سيقول النقاد . . . ولا أعرف ما سيكون موقع
محمود السعدنى في تاريخ الأدب العربى .

لكننى واثق من أن المتعة التي تتيحها هذه المجموعة من
قصصه لا يسهل العثور على مثلها فيما نقرأ اليوم .

وواثق من أنها ليست مجرد متعة عابرة . إنما هى تفوص
فى النفس . وتفذى الوجدان بعصارة حياة خصبة ، عريضة ،
لاذعة ، ناقدة ، لا يتاح لأحد أن يعيش مثلها .

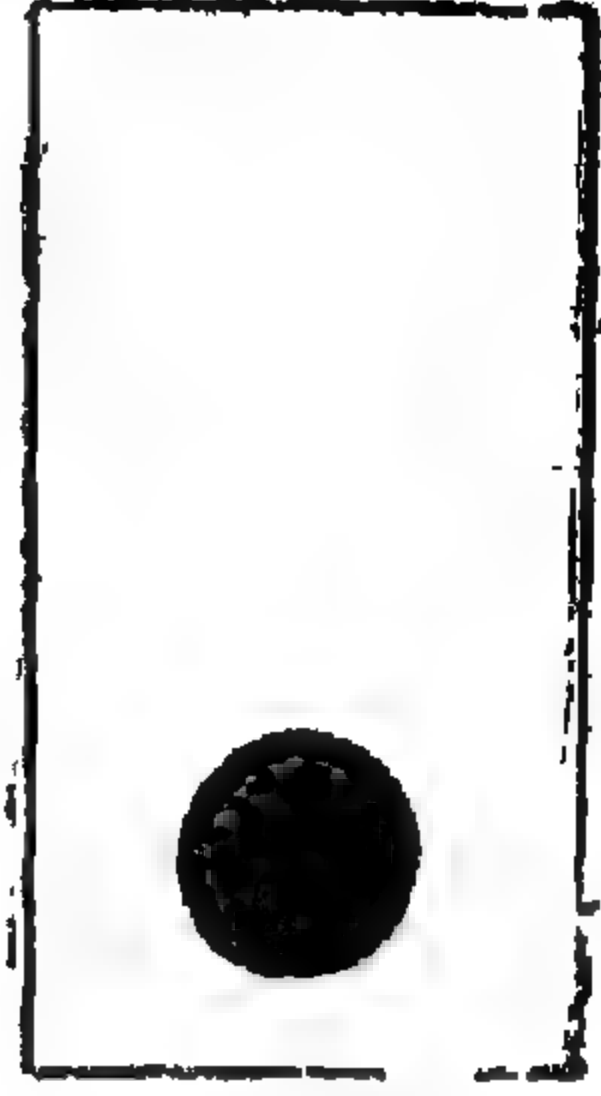
ومع ذلك . . .

فهى فى النهاية متعة تخلف مرارة .

تبهج القلب . ثم تعود فتعصره . تسعدنا لحظات كوميديا
الحياة . ثم ينسدل الستار فنشعر بأن هذه الكوميديا — فى
حقيقة الامر — طلاء من السكر يغلف المأساة !



خوخة السعدان



وراحت شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة
والحواري ، وتسال بعد كل خطوة عن خوخة السعدان .
وهي على طول الطريق ترمقها ألف عين نصف نائمة
نصف يقظانة ، يطمطئ أصحابها في كسل لذيذ وفي
شمس الشتاء على المقاهي الكثيرة المتراحة بجسوار
بعضها على الطريق وأحست شوشو بالخضنا وأحست
بالتعب وتمنت لو استطاعت أن تعود من حيث جاءت
بعيدا عن هذه المخرائب التي تفوح منها رائحة كريهة ،
وكانها رائحة خنزير مذبح !!

ولكن ماذا يقول عنها بابا وماما وكل اخوتها وقد تحدثهم جميعا ،
وأصرت أن تسير وحدها حتى نهاية الشوط . نعم ماذا يقول كل هؤلاء
انها نكصت على عقبيه وعادت الى قصر أبيها من جديد ولكن لو أن هؤلاء
الناس المتبطلين الخاملين لم يسددوا اليها نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع
رشاش تخترق كل مكان في جسدها اللدن الجميل .

ترى ما السبب الذي يجعلهم ينظرون اليها وكأنهم جوعى أمام وليمة
فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير !

الم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ اليست لهم زوجات وبنات وصديقات .
وربما خليلات أيضا .

ولكن ليس هؤلاء هم الفقراء الذين وطدت العزم على خدمتهم والدفاع

عنهم والسهر على مصالحهم ، وهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى تقطعها الآن
فى سبيل رفع مستواهم وانتشالهم من الحضيض الذى يعيشون فيه .
وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها النحيلة المدبسة
الورقة المطوية المعطرة التى كانت تنام مستريحة فى راحة يدها . واستوقفت
رجلا كان يعبر الطريق . وألقت نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعمم .
وتنهدت ببطء قبل أن تسأله عن خوخة السعدان ، وقطب الرجل جبهته ، وضيق
ما بين عينيه ورفع سبابته وضربها فى أنفه ، ثم ألقى نظرة طويلة فاحصة على
الست الملبن التى تقف أمامه كالمهة من آلهة الجمال ثم قال فى هدوء :
- خوخة السعدان .

وردت شوشو فى ضيق شديد .

- أيوه .

وعاد الرجل ينكش بسبابته فى شعر رأسه ثم فى فتحة منخاره ، ثم
ثنى إحدى ركبتيه وكأته على وشك الجرى فى سباق عنيف ، وقال فى نفس
هدوئه المعهود .

- اللهم صلى على كامل النور ، بقى خوخة السعدان على طول كده ،
وبعدين تكسرى على أيدك اليمين كده ، وتمشى على طول لما تلاقى قهوة قدامها
تلاجة ، تيجى كسرة شمال ، وبعد شويه يصادفك جامع ، وهناك بالاصلا على
النبي تسألى عن خوخة السعدان . ألف واحد يدلك .
ولم تفهم شوشو حرفا مما قال ، وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث
أشار الرجل المعمم الكريه .

ووقع نظرها على عيش مهدمة ، وبرك طين تسبح فيها الكلاب واستاءت
شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها . وتمنت لو تعثر على حل سليم للقضاء على
كل ما فى هذا الحى من فقر . وتمنت لو انها تملك ملايين كثيرة ، اذن لتبرعت
بآلاف عديدة ، لتشتري لهؤلاء الناس صابونا وجازا وخبزا وسيارة لتنقل
أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، وأسطوانات لموزارت وبيتهوفن
ورمسكى كورساكوف . آه لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورساكوف
اذن لارتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولاصبحوا خلقا جديدا !!

وتاهت شوشو قليلا عن الفقر الذى خلفها ، والفقر الذى أمامها ، والطين
الذى يلطخ كل شئ فى الشوارع الضيق الملتوى وكأنه بداية طريق يؤدى الى
المقابر .

وسرح عقل شوشو في الكلب الذي خدعها والذي وعداها بالزواج ، كانت تظنه رجلا ، وكانت هيئته تدل على أنه رجل فعلا ، هيئته الطويلة العريضة ، كلامه المعسول ، شاربه الأصفر الجميل ، عضلاته المقتولة ، قلبه الذي لا يخشى مواجهة الأسود . ولكن كل هذا تيفر في لحظة . . . وبدأ لها في ثوبه الحقيقي ، عاطل مفلس جبان ، وهيئته الجميلة هي كل مهنته في الحياة !!

وانحدرت عبرة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها ، فراحت من جديد تنظر الى الناس ، والى الحيطان ، والى الأطفال و لكلاب . واقتحم سمعها كلام غريب يطلقه الناس بل استحياء . . . ويقصدون به التحية والسلام .

كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأسها في الحائط . هؤلاء الفقراء ليسوا مؤذيين ، لو أنهم دخلوا مدارس أجنبية اذن لتعلموا الذوق وفهموا معنى الاتكيت . وياسلام يا شوشو لقد هبط الحبل السليم الذي كانت ترجوه .

وليكن حل المشكلة من هنا . . . من المدارس الأجنبية . فانها لو لاقت وسيلة لاقتناع هؤلاء الناس بضرورة الالتحاق بالمدارس الأجنبية ، اذن لضمنت تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل ، وكيف يحب وكيف يتصرف برشاقة . . . وعندئذ سوف تصفو لهم الحياة . . .

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسد الطريق . واحتارت من أين تنفذ . . . لا بد أنها ضلت الطريق . وسألت شوشو حتى علمت أنها لم تضل وكان عليها أن تحنى هامتها الرشيقة لتمر من ثقب في الجدار يوصلها الى خوخة السعدان ، وانحنى شوشو ومرت من الجدار . وتمزق جوربها الحريري الطبيعي واتسخ معطفها الفرو ، ولكن ماذا يهم . . . مادام كل هذا في سبيل الفقراء !

وامتلا قلب شوشو بالخوف عندما هلت على خوخة السعدان ليس هذا المكان بشارع ، ولا بحارة ، ولا بزقاق ، الوصف الصابق له أنه خرم في الحى ، وهل من المعقول أن أحدا من الأحياء يعيش في هذا المكان ؟ . . . وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذي تريده . ومضت من جديد عبر الخوخة تفكر في الحالة النفسية الرهيبة التي ظلت تعانيها عاما كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان كم مرة فكرت في الانتحار

وكم مرة فكرت فى دخول الدير ، وكم مرة بكيت وبللت وسادتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعه شيء عزيز كان من الواجب أن تحرص عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا ، كان السبب فى بكائها هذا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير . . ولكنها أخيرا عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان . ليس هناك من ميدان تستطيع أن تسلو فيه أحزانك الا ميدان خدمة الفقراء . وهى ترجو أن توفق وترجو أن تنجح فى الوصول الى حل سريع . انها واثقة من الفوز . لقد تحدثت أسرتها وتحدثت رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستثبت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ . . وهى وحدها التى كانت على صواب . انها لا تنسى أبدا حديث بابا عندما همست له برغبتها فى خدمة الفقراء .

— هؤلاء الفقراء كلاب ، لا يحمدون الله أبدا ، وإذا شبعوا تنمردوا . . ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء . . ولكن شوشو لم تصدق بابا أبدا ، فمن الممكن جدا أن ينصلح حبال هؤلاء الفقراء . . فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة !

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيرا الى المكان الذى تقصده فى خوخة السعدان . .

وسألت عن محمد كباره ، وقادها طفل عار تماما الى مكانه . رجل مهدم رغم أنه فى الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخرقه بالية لا لون لها ، وجلباب تزيينه الثقوب ، يجلس على الأرض والى جواره كوز من الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتأرجح فى أعماقه شيء أسود اللون لا بد أنه شاي، أو ربما هو هذا الشيء الذى تسمع به . . والذى يسميه الناس . . الحشيش ! ووقفت أمامه برهة تنظر اليه ثم الى الورقة المطوية ، وبدأ من منظر كباره انه لم يفاجا بمنظرها . . فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم فى مكانه هذا منذ عام . وسألته شوشو برفق :

— انت الأستاذ محمد كباره ؟

وضحك كباره ضحكة ميتة . . ولكنها ساخرة :

— هاو . . قال أستاذ . . ليه شايفانى لأبس عمة . أيوه انا كباره . ايه

فيه حاجة انسرقت منك انت زخره . حكومة انت . .

وارتاحت شوشو جدا ، وإقشعر بدنها لهذه البداية السيئة ، ولكنها

تمالكت نفسها ٠٠ فهي تجربة على أية حال ٠ ومن يتصدى للخدمة العامة
يجب أن يكون مسلحاً بالصبر والايمن ٠٠ حكمة قرأتها شوشو في
كتاب !!

وفكرت شوشو في طريقة أخرى ترضى كبراً وتبدأ بها الحديث ، ولكن
كبراً نفسه كان لا يزال يملأ الدنيا صراخاً وسباباً ، والفاظاً يكاد شعر شوشو
أن يقف من هولها !!

وحاولت شوشو جاهدة أن تهدئه ٠ ولكنها لم تكد تبدأ حتى برزت امرأة
عجوز من جحر خلفها وفي يدها فردة شبشب ، ولسانها يطرقع في الهواء
كالسوط ٠٠ تسب الدين والدنيا وكبراً وكل الناس !! ٠٠ وانهاالت المرأة
العجوز على كبراً بالشبشب ٠ وظل كبراً يصيح ويشتم ويسب هو الآخر
دون أن يتحرك من مكانه ، وفوجئت شوشو بشلة كبيرة من الرجال والنساء
والأطفال يلتفون حولها ٠٠ أكثرهم يتفرج ٠٠ وقلة قليلة تحاول فض المشكلة ٠
وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذي جرى أمامها لحظة لم يكن إلا حلقة
واحدة من سلسلة طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كبراً والمرأة العجوز ٠
والسبب أن المرأة افتقدت صفيحة قديمة كانت لديها ، فلما لم تجدها اتهمت
كبراً بسرقتها ٠٠ وأهل الخوخة جميعاً يؤكدون أنها صادقة ٠

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين
الرجل الذي جاءت تبحث حالته ٠٠ والمرأة التي ليس لها من صفات المرأة إلا
الاسم فقط ٠٠ حتى ملابسها نفسها كانت رجالي ٠٠ وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهي تحاول - صادقة - فض المشكلة :

- يا جماعة بسيطة ٠٠ لازم كلنا نحب بعض ٠٠

ولكن صوتاً مازحاً جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

- كلنا نحب القمر ٠٠ والقمر ٠٠ هاو ٠٠ يا خرابى يا جدعان ٠٠ أموت أنا!

وضحك الجميع ٠٠ حتى المرأة العجوز صاحبة الصفيحة تقصعت

وتمايلت ٠٠ وقالت بصوت مرتفع :

- آل نحب بعض ، ياخنى بلا نيلة !!

وانفض السامر ٠٠ كل الى وجهته ٠٠ وبقي بعض الناس ملتفين حول

شوشو ٠٠ وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة ٠٠

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها ٠ الشيء العجيب الذي

حيرها أن الجميع كانوا يشبهون كبارة ، وكأنهم اخوته من أب وأم . وعندما نظرت شوشو الى كبارة . . خطر لها أن تجرى وتفر . فقد كانت عروقه بارزة ، والزبد يغطي شفثيه ، وعيناه جاحظتين ، وهو يلطم خدوده بين الحين والحين ، وينفخ من شدة البؤس والضجر . .

وسألت شوشو واحدا من الذين يلتفون حولها عما به . . وجاءها الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

— أصل الأسياذ ماسكينو . .

ولم تفهم شوشو شيئا . . فقالت فى براءة طيبة :

— أسياذ ايه ؟

وجاءها الجواب . . وفى الصوت رنة استنكار :

— أسياذنا اللى تحت الأرض . .

وسرت رعدة فى جسد شوشو ، ولم تدر ماذا تقول . . وأخرجها من ورطتها واحد من بين الملتفين حولها . . كان يبدو أنه أكبرهم سنا ، وأيسرهم حالا كذلك ، فقد كان ممسكا برغيف يقضمه ، سألها الرجل فى ود عميق :

— الست عاوزة حاجة منه ؟

وأجابت شوشو على الفور . . وبلهجة املائية كأنها تلقى قطعة محفوظات :

— أنا مندوبة جمعية سيدات المجتمع ، وجايه أبحث حالته عشان نساعده . .

وقال الرجل الأشيب المعجوز فى نفس الود العميق :

— أهلا وسهلا . . يا ألف مرحب . .

ثم التفت الى كبارة ، ولكزه بأطراف أصابع قدمه :

— ياواد ياكبارة . . قوم اتكلم مع الست . . عاوزة تساعذك .

ولكن كبارة لم يرد ولم يتحرك . . فزعق الرجل المعجوز فى وجهه :

— قوم يا شيخ جتك نيلة . . حد يطول . .

وأخيرا رد كبارة فى صوت أجش :

— ايه . . عاوزين منى ايه ؟

وهمست شوشو فى صوت لين حنون وكأنها تردد أغنية :

— بس . . كنت عاوزة اسالك كام سؤال . .

ورد كبرارة على الفور هذه المرة .. دون أن يرفع بصره اليها :
 - أى خدمة ؟ ..
 وسكت برهة ثم أردف على الفور :
 - أنا موش حرامى .. أنا أشرف واحد هنا .. آل صفيحة آل ..
 وقالت شوشو :
 - انت .. حضرتك اسمك ايه ؟
 - محمد .. زفت .. كبرارة
 - وعندك كام سنة يا سى كبرارة ؟
 - أى حاجة .. أنا يعنى كان عقلى دفتى ..
 ورأت شوشو أن تتفادى الثورة .. فقالت على الفور :
 - طيب معلش .. انت مؤهلاتك ايه ؟
 ورفع كبرارة بصره لأول مرة .. وابتسم ابتسامة بدتر - رغم فقره
 وقذارته - فى حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضا ليست بشعة مثل منظره ..
 وأجاب على استحياء :
 - أنا لسه ما تأملتش ..
 ثم عاد الى طبيعته الأولى .. وأكمل حديثه بعصية حادة :
 - أنا لاقى أكل .. أما أتأهل ..
 ولم تفهم شوشو شيئا .. ولكنها رأت أيضا أن تتفادى كل ما من شأنه
 أن يعكر هدوء الموقف .. فسألته :
 - طيب .. وبتشتغل ايه ؟
 وقال كبرارة :
 - أشتغل ايه ؟ .. حلوه دى .. أعبى شمس فى ازايى .. آل .. شغلينى
 انتى .. شغلينى ريس أو أى حاجة .. حلوه دى ..
 - أمال عايش ازاي ياسى كبرارة ؟
 - عايش على الله وع الست ..
 وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكرة :
 - ست مين ؟
 وكأنما استفز هذا السؤال ، فتجهم وجهه .. وبدأ شريرا كوجه غول ..
 وأجاب متحديا :

— انتى كمان موش مصدقة .. اساليهم .. بقولك الست .. انا مضاوى
ست جنية من تحت الأرض .. أجده ست جنية من تحت الأرض .. أجده
ست ، وطيبة ومسلمة زى حضرتك بالضبط ..
وسكت كباره قليلا ، وحقق ببصره فى وجه شوشو قبل أن يضئف
قائلا :

— ايه موش مصدقانى ؟!
وانتزعت شوشو منديلها الحريري المعطر من حقيبتها ، وراحت تمسح
به العرق الذى أخذ ينهمر من جبهتها على عينيها ، وأجابته وهى خائفة
وجسدها كله يرتعد من منظره :
— مصدقك ..

واستطرد كباره حديثه قائلا :
— أجده ست والله .. بتطلعلى هنا مرة كل شهر .. تجيلى كل حاجة،
ونستحمه سوا .. ربنا يخليها ..

كانت شوشو قد وصلت الى حالة قاسية من الاعياء .. كانت تور لـ
القت بنفسها على الأرض ويكت الى ما لا نهاية .. أحست أنها ألقت بنفسها
فى حفرة مظلمة بشعة .. وهؤلاء الفقراء الذين آمنت بهم وتمنت أن تخلصهم
من شقائهم مجموعة من الوحوش الضارية .. جهلة .. وحمقى .. وأشرار ..
مثل أكله لحوم البشر ، ورات أن تنهى الحديث مع كباره .. فقالت لـ
مطمئنة آياه على مستقبله :

— طيب ياكباره .. أحنا راح نساعدك ان شاء الله ..
ورن كباره على الفور :
— امتى ؟!

— بعد يومين ثلاثة ان شاء الله ..

قالتها واستدارت لتصرف .. وأفسح لها الناس الواقفون ونظراتهم
الحادة مصوبة نحوها .. وقبل أن تخطو خطوة قال كباره فى جد ووقار هذه
المرة :

— وحياتك تبقوا تساعدوا الست هيه كمان .. دى ست طيبة قوى .. لما
تشوفها راح تنبسطى قوى .. هيه بتطلع هنا مرة كل شهر .. آيوه ..
فاضل أسبوع على ميعادها ..

وهزت شوشو رأسها موافقة ٠٠ واستدارت فأعطت الجميع ظهرها وسارت
تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة ٠٠ ونفذت شوشو من الخرم الذى
فى الحائط فأتى على بقية الجورب ٠٠ ولطح الجزء التنظيف الباقي من
البالطو الثمين ٠٠ وراحت تحت الخطى فى الشارع الضيق الملتوى نحو
ميدان السيدة ٠٠ حيث تنتظرها العربة الفارحة هناك ٠٠

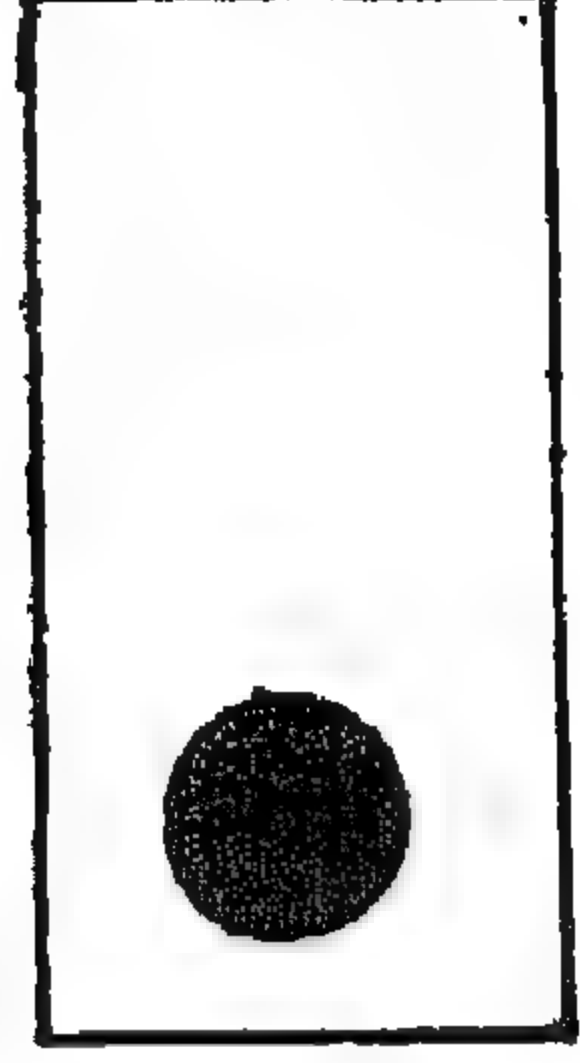
وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت ٠٠ وعندما
دلفت داخل العربة ٠٠ ألقت بنفسها على الفور متعبة منهوكة القوى ٠٠ وأمام
عينها الجميلتين صور كثيرة غير واضحة ٠٠ صورة النذل الحقيق ، ورئيسة
جمعية سيدات المجتمع ، وكبارة ، وبابا ٠٠ ورننت فى أذنيها كلمات بسابا
الخالدة : « هؤلاء الفقراء كلاب ٠٠ لا يحمدون الله أبدا ، وإذا شـسـبـعوا
تنمردوا ٠٠ ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء » ٠٠

وقبل أن تدير شوشو مفتاح العربة ، مدت يدها فى خفة وسحبت من
تحتها كتابا أزرق أنيقا ٠٠ وألقت نظرة على الصفحة المفتوحة ٠٠ كانت هناك
جملة تحتها خط باللون الأحمر : « الذين يتصدون للخدمة العامة يجب أن
يكونوا مسلحين بالصبر والايمن » ٠٠

ومدت شوشو أناملها المصبوغة فطوت الكتاب وألقته فى المقعد الخلفى ،
وانطلقت بالعربة تسابق الريح ٠٠
ومع الريح طارت الورقة التى كانت تحمل العنوان : « خوخة السعدان ٠٠
محمد كبارة » ٠٠



الأفريقي



كان علينا ان نمر امام كامب الافريكان مرتين كل
يوم ، مرة في الصباح عند ذهابنا الى المدرسة ، ومرة
في المساء عند العودة ..

وكان كامب الافريكان يعكس حالة البؤس والخراب التي سببتها
الحرب ، كان يحتل خرابة في منتصف شارع المدارس ، وكانت بواباته الكبيرة
مكسورة والكامب في منتهى القذارة ، وجنوده دائما ثملون يترنحون في
الشارع الذي يقع فيه الكامب يصفرون لحنا غريبا وينشدون كلماته في حسرة
شديدة « أنا أحارب من أجل الملكة بشلن في اليوم » ..

وكنا نجفل منهم اذا اقتربوا منا ، فنفر كارانب مذعورة ، وكانوا هم
في حالة هياج مستمر ، وأسلحتهم البيضاء الصغيرة تلعب في أصابعهم ،
وكانوا يهيمنون على وجوههم في الليل حول المنطقة المحيطة بالكامب يبحثون
عن يشتري منهم مهمات قديمة مسروقة من داخل الكامب لقاء زجاجة من
الخير الرخيص .

وذاث عصرية ونحن نلعب الكرة امام الساحة الواقعة في مواجهة
الكامب ، خرج جندي « افريقي » كما كنا نطلق عليهم ، واتجه نحو الساحة
ووقف يتفرج في هدوء على اللعب ويقذف اليها بالكرة كلما مرقت من الجول ،
ويصفق في حماس كلما سجل احدها هدفا ، ويصرخ في نشوة صادقة ،
برافو .. رائع ..

ومرت أيام قليلة والجندي الأفريقي يأتي كل عصرية وينفق الساعات
الطويلة يتفرج فيها علينا ، وتوطدت الصداقة بيننا أكثر فتطوع بأن يكون

حكمه بين الفريقين ، ثم أصبحت عادة لديه أن يحمل الهدايا ليوزعها على الفريق الفائز عقب انتهاء المباراة :

وجاء مرة واللعب متعطل لان حارس مرمى فريق الاسد المرعب تخلف عن الحضور ، فطلع الأفريكي زيه العسكري ونزل الى الملعب بالفانلة واللباس وحذائه الميرى ، وانتهت المباراة بعد ان سجلنا خمسة اهداف نظيفة، وليلتها وزع على كل لاعب من الفريقين قطعة شكولاته ولما ساومناه على ان يبتدوا منا الشيكولاته مقابل علبة سجائر واحدة للفريقين ، صساح في استنكار : يا للعار !

و ذات مرة سألنا في ود عميق ، اين تذهبون بعد اللعب ؟ فأجبنااه في زهو : الى المقهى .

فقال في هدوء : هل اذهب معكم ؟ وبعد ان تبادلنا النظرات أجبناه ، نعم تستطيع . ولكن واجهتنا مشكلة عويصة ، كيف نصحب معنا الافريكي الى حوارى الجيزة ، ثم الى قهوة المعلم أمين وهو بلباسه العسكري ؟

وتطوع احدنا بحل المشكلة فابدى استعداداه لاحضار طقم بلدى كامل ليرتديه الافريكي اثناء سهرته معنا في قهوة المعلم أمين ، وغاب هذا الصديق لحظات ثم عاد ومعه جلباب كشميرى وكوفية صوف وحذاء بكعب كباية ، واصبح الافريكي المعلم الاخرس ، فقد اتفقنا معه على ان يلزم الصمت طوال الجلسة ، لاننا لا نستطيع ان نقدر مدى الشر الذى سيلحق به اذا فتح فيه في قهوة المعلم أمين .

وقضى الافريكي ليلته في المقهى سعيدا بما يرى ، وفى النهاية دفع الحساب كله ، ونفخ الجرسون عشرة قروش كاملة .. بقشيش . وبذلك أصبح المعلم الأخرس حديث المقهى .. كله .

واصبحت عادة الافريكي أن يتردد على المقهى معنا كل مساء ، ويجلس صامتا لايتكلم حتى ينتصف الليل ، فيدفع الحساب والبقشيش وينصرف الى حال سبيله ، واصبح صديقا لاكثر رواد المقهى دون كلام ، صابر الطباخ وحشيف الكوجى ، وبرهومة العجلاتى ، واصبحت هوايته الوحيدة ، هى الفرجة على الكوتشينة خصوصا عندما تكون المباراة بين صابر وحشيف .

و ذات مساء لم يستطع غزالى ، وهو اسم صديقنا الذى تطوع بحل

المشكلة واحضار الملابس ، لم يستطع احضار الطقم البلدى من منزله ،
وقررنا ان نترك الأمريكى يعود الى الكامب بعد المباراة ونذهب نحن
وحسبنا .

وفى هذه الليلة سألنا المعلم أمين عن المعلم الآخرس ، ولماذا تخلف
عن الحضور ؟ وهل أصابه مكروه ؟

وأجبنا على أسئلته فى تحفظ . فقد كان المعلم أمين هو السبب الذى
من أجله نخشى أن نصحب معنا الأمريكى فى زيه والسبب أن المعلم أمين
فوجيء ذات مساء وهو جالس أمام باب الدكان جلسة انسجام « الشيشة
بين أصابعه واللاسة الحرير تلف حول عنقه ، والحذاء يبرق فى قدميه ،
ودستة خواتم ذهب تلمع فى أصابعه والدنيا صيف ، ونسمة طرية تهب من
ناحية الشارع وتثير معها الغبار ، والمعلم يجلس منفوخا كالديك الرومى .
ينتظر فى أظمتان ورقة اللحم من الفرن ، وسلطانية الطرشى البلدى ،
عشاؤه الذى اعتاده منذ أصبح معلما وله قهوة .

فى هذا الجو الجميل المثير ، هبط على المعلم أمين خمسة عسكريين
أمريكان ، وجوههم فى لون الحبر ، ونظراتهم تلمع فى الظلام كأنها فصوص
الماس ، ويرطنون بكلمات لم يفهم منها المعلم أمين حرفا ، ولكنه فهم أنهم
يريدون الجلوس ، وأنهم فى حاجة الى شاي ساخن ، وإلى شيشة تشبه
التي فى قم المعلم أمين .

وابتهج المعلم أمين وطابت نفسه للصدف الحلوة التى ساقته اليه
هذه الصيدة ، فهؤلاء الافريكان من بلاد بعيدة وعساكر فى الحرب ، ولا بد
معهم فلوس ، وستكون هذه الليلة ، ليلة انس وانسجام للمعلم أمين .

وصفق المعلم أمين فى حماس وطلب شاي وشيشة للأفريكان وجلس
يحاول التفاهم معهم ، وكان كلما عجز عن فهم ما يقولونه رفع أصبعيه ،
السبابة والوسطى وقال فى انشراح ، عربى أفريكى سوا سوا .
ثم يهز رأسه ويتمتم فى سرور : مضبوط ، والتقط الأفريكان الخمسة
كلمة « سوا سوا » من قم المعلم أمين ، فرددوها فى حديثهم معه ، وبسذلك
انشكع المعلم أمين ، وكيف لا ، واللغة الانجليزية ليست صعبة كما يزعم
طلاب المدارس !

والحقيقة التى لم يدركها المعلم أمين ، أن الافريكان الخمسة كانوا

غالبية ، ولم يكن معهم نقود بالمرّة ، حتى أردا واحقر أصناف النقود ، وأنهم عندما هبطوا عليه سألوه منذ اللحظة الاولى .

— هل نستطيع أن نشرب الشاي ، أننا لا نملك نقودا ؟
وعندما هز المعلم أمين رأسه موافقا طار الأفريكان من الفرحة .
وقبلوا دعوته على الفور ، وكان حديثهم كله خلال الوقت الطويل الذى قضوه معه ، يدور ويلف حول معنى واحد ، هو شكر المعلم أمين على كرمه وحفاوته بهم .

وعندما قال لهم المعلم أمين كلمته الماثورة عربى أفريكى سوا سوا فهموا أن الدعوة مفتوحة ، فطلبوا الشاي أكثر من مرة ، أما الشيشة فكان المعلم أمين يطلبها لهم بنفسه كلما خمدت النار ، وعندما انتهت الجلسة كان الحساب خمسين قرشا لو كان الزبون عربيا ، أما للأفريكى فهو ثلاثة جنيهات . . هكذا طلب المعلم أمين من الأفريكان الخمسة ، بالرغم من أن « عربى وأفريكى سوا سوا » .

وعندما طلب المعلم أمين الحساب لم يفهم الأفريكان أول الامر ولكنهم ، هموا عن طريق الإشارة أنه يطلب نقودا . . فذكروه بما قالوه له في أول لحظات لقائهم معه ، ولكنه لم يفهم شيئا وظل يطالبهم عن طريق الإشارة بأنقريد ، رافعا ثلاثة أصابع من أصابعه في الهواء هاتفا في صوت يشبه الصراخ بكلمة جنيه ، ولكن بطريقة غريبة ومضحكة ، حتى يبدو نطقه أقرب الى اللغة الانجليزية . .

وفي بساطة شديدة سحب الأفريكان الخمسة بطانات جيوبهم كلها ليقتنع المعلم أمين أنهم لا يملكون شيئا ، ثم خيل اليهم أن المعلم أمين قد اقتنع تماما ، فمدوا اليه أيديهم يصفحونه . . كما يفعل الاصدقاء .
وعندئذ تأكد المعلم أمين أنه فقد نقوده . ولكن كيف يسكت على ذلك . وهو الفتوة السابق الذى يتباهى دائما أمام زبائنه أن أحدا منهم لا يجرؤ على أن يأكل المعلم أمين في مليم .

ونظر المعلم أمين الى أحد الجنود الأفريكان ، وقال وقد قطب جبينه وضيق ما بين حاجبيه ، وارتدى قناعا من الشر على وجهه :
— يو . . موش كويس . . اخص . .

وهز الافريكى راسه .. ولم يفهم شيئاً فأعاد المعلم أمين فلسفته
من جديد .

— يو .. نصاب .. اخص افريكى نصاب .
وعندئذ استدار الأفريكان .. ومضوا في طريقهم ..

ولكن هذه النهاية لم تكن من النهايات التى تروق المعلم أمين ،
خصوصاً وان الزبيطة التى حدثت جذبت انتباه الناس فاجتمعوا حول المعلم
أمين والأفريكان ليروا حقيقة الامر ، ثم فهموا حقيقة ماحدث من النقاش
الذى دار بين المعلم أمين ونفسه خلال الربع ساعة الاخير .
ولما كانت الفتونة هى رأس مال المعلم أمين فى الحياة ، فقد خاف
على اسمه أن يهبط فى بورصة الفتونة ، واذا كان الافريكى يستطيع ان يأكل
المعلم أمين ، فما الذى يفعله حشيف الكوجى وسابر الطباخ فى مستقبل
الايام ..
فضيحة .. يجب ان يضع لنا المعلم أمين نهاية لائقة .

ورفع المعلم أمين مقعداً ضخماً وهوى به على رأس احد الافريكان ،
فهوى على الارض ، وهكذا دارت المعركة التى لم تستمر طويلاً ، والتى
كانت هذه الضربة من المعلم أمين . هى الاولى والاخيرة من جانبه .
وخمسون يوماً والمعلم أمين يتقلب على فراشه فى القصر العينى ،
والأفريكان هربوا بعد المعركة ، وشقوا لانفسهم طريقاً فى الزحام بفضل
المطاوى التى معهم ، ولم يجرؤ احد أن يتصدى لهم .. فليس أخطر من
جندى مفلس فى زمن الحرب .. هكذا افترق محمد خليل كاتب المحامى الذى
قضى نصف قرن فى مهنته . ثم تفرغ اخيراً لمقهى المعلم أمين !
ومن يومئذ والمعلم أمين لا يكره احداً فى الدنيا أكثر من مطلقته .. ثم
الافريكان .

وفى مرات كثيرة كان يسحب مقعداً ويأتى ليجلس الى جانبنا ، ثم
فجأة يسألنا وهو يزفر بشدة :

— الا بلاد الافريكان دول زينا ؟

ونسأله نحن بدورنا :

— زينا ازاي ياعم أمين ؟

— يعنى عندهم قهاوى وترمايات وبنى آدمين كده زينا ؟

— طبعا ! ..

ولكن اجابتنا لا تروقه ، فيلوى عنقه ويجز على اسنانه ويقول
في ثقة العالم الخبير :

— أبدا ، دا كلام فارغ ، دي بلادهم غابات كلها ، أنا أصلى عارف
صنف الافريكان دول .

ثم ينهض ، ويتركها وينصرف .. وفي مرات أخرى كان يقول وكأنه
يعزى نفسه :

تعرف صنف الافريكى ده ، ما بيحاربش ، أصله صنف جبان ، دول
يفحتوا خنادق بس ، اللي بيحارب همه الانجليز .

وكان اعجاب المعلم امين بالانجليز لا حد له ..

— أحسن صنف وحياة دي النعمة ، صنف دوغرى ، يشرب الطلب

ويذفع ، مافيش كلام .. عشان كده رينا مبيض وجوههم .

وعندما قلنا له ذات مساء وهو يجاذبنا الحديث .

— ما هو انت افريكى ياعم امين .

ثار ثورة عارمة ، وكاد يطردنا من القهوة ، وعبثا حاولنا افهامه ان
بلادنا في افريقيا ، وانه تبعنا لذلك يصبح افريكى .. كالأفريكان ..

— آل افريكى آل ، ليه ، شايف خلقتى سودة ، احنا اجدع ناس من
غير مؤاخذه ، دا الافريكى يعنى عبد ، يشرب ولا يذفعش رينا حكم عيسىه
بالفقر بعيد عنكو ..

وكان دائما يتمنى ان يصارع افريكا ويمصره :

— يامانفسى اتلايم على واحد افريكى واكل زمارة رقبتة .

ثم يستدرك على الفور :

— بس يكون لوحده ، حاكم الكترة تغلب الشجاعة من غير
مؤاخذه .

ولهذا السبب كنا نصحب معنا الافريكى بالطقم البلدى ، فقد خفنا
ان « يتلايم » عليه المعلم امين فيأكل زمارة رقبتة .

ولكن .. انكشفت كل الحيل التى لجأنا اليها لاختفاء شخصية الافريكى

فقد هبط على المقهى آخر الليل وهو في زيه العسكرى وعندما اقتحم المقهى كان المعلم أمين يجلس جلسته المعتادة على الرصيف المقابل . فنهض مذعورا والمقعد في يده . وجاء يستطلع الامر . فقد ظن أن فرصته الذهبية قد حانت ، وأن الزمان صفا له فساق اليه « افريكى » وحيدا لينتقم منه .

وننهضنا لاستقبال الافريكى ووقف المعلم أمين يفكر لحظات عندما اكتشف شخصيته ، ثم انسحب الى مكانه وقد قرر أن يفكر في عمق قبل أن يحسم الامر معه ! .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل جاء المعلم أمين وجلس بجوار الافريكى ، وطلب منا أن نترجم بينهما . وجلس يحكى للافريكى قصته مع الافريكان الخمسة ، وكيف شربوا الشاي ودخنوا الشيثة ثم رفضوا الدفع ، ولما طالبهم بالثمن ضربوه حتى حطموا ضلوعه ، وجمجمته ، والقوة طريح الفراش خمسين يوما رهيبة . . ثم تسأل في النهاية :

— يصح دا يا افريكى ؟

ورد الافريكى . .

— هذا لا يصح . .

وفى نهاية السهرة دفع الافريكى ثمن ما شرب ودفع بقشيشه المعتاد . . وانصرف .

وأصبح الافريكى زبونا في المقهى يأتى معنا ، وأحيانا يأتى وحده ، وكان المعلم أمين ينفرد به وقتا طويلا ، ثم يستدعى أحدا ويقول له :

— وصيه على كام بطانية من بتوع الافريكان .

وكان الافريكى يبدى أسفه كلما طلب المعلم أمين شيئا ، ولكنه كان يمهده بين الحين والحين بكميات هائلة من السجائر .

و ذات مساء اقبلنا على المقهى فوجدنا الافريكى يشارك المعلم أمين طعام العشاء وأن يشارك احد المعلم أمين عشاءه . . فهذا شيء غريب . . وأن يكون الافريكى هو شريك المعلم أمين ، فهو الشيء الاغرب ! ،

وبعد أن انتهيا من العشاء جلسنا جميعا نشرب اقداح الشاي على حساب المعلم أمين ، وقال وهو يرتشف الشاي فى لذة فائقة :

— صحيح يا جددان صوابك مثى زى بعضيها .. أهو دا افريكى
ابن ناس انا قلبى بيقوللى انه مسلم .. اسألوه كده .

وسألنا الافريكى عما اذا كان مسلما فأجاب بالنفى ، فلما اخبرنا المعلم
أمين قال فى اسى حقيقى :

— يا خسارة .. ع العموم هو ابن ناس ، الأفريكان اللى عملوا
معنا الفصل ده لازم خدامين ، حاكم برضه عندهم كده وكده .

وجاء الافريكى ذات مساء ليودع مقهى المعلم أمين . فقد جاءه الامر
بالسفر الى الجبهة .

وجلسنا فى المقهى طول الليل يحكى كل منا قصصا حدثت له فى الماضى
البعيد ، والافريكى ساهم لا يتكلم . كأنما كان يشعر بحزن حقيقى يعتصر
قلبه للفراق . وعندما نهض صافح الذين كانوا حوله ، وأعطى كل سلامتهم
صورته موقعا عليها بامضاءه واعتذر المعلم أمين عن عدم وجود صورة معه
وطالب . الافريكى عنوانه يبعث اليه بالصورة ، ولكن الافريكى اعتذر
لأنه لا يرف بالضبط المكان الذى سوف يذهب اليه . ووعد المعلم أمين بأن
يكتب له خطابا فى اول فرصة ، يخبره فيه بمكانه على وجه التحديد .

ومضت أيام طويلة قبل ان يتسلم المعلم أمين رسالة من الافريكى ..
ولم يكن بالرسالة سوى جنيهاث ثلاثة ، وخطاب قصير باللغة الانجليزية ،
يقول فيه الافريكى : « أنا فى ايطاليا الفرقة الاولى الافريقية . الجنيهاث
الثلاثة من الافريكان الخمسة ، وهم يشكرونك » .

« ماير فوندا »

وكانت هذه هى المرة الاولى التى نعرف أن الافريكى الصديق اسمه
ماير . فلم يهتم احد منا بسؤاله عن اسمه ، كان (الافريكى) هو الاسم
الذى نعرفه ! .

وكان واضحا أيضا انه يكذب ، وان الجنيهاث الثلاثة دفعها من جيبه
للمعلم أمين ، لكى يرضى ويهدأ ، ولكن لماذا لم يدفعها له وهو هنا فى القاهرة
لكى يوهم المعلم أمين أنها حقا من الافريكان الخمسة .

وفى الايام التى تلت وصول الخطاب أنهمك المعلم أمين فى التصوير ،

وأعداد الصورة التي وعد بها الأفريقي ، وأصر أن تكون الصورة ملونة ، وأن يكون في كامل زينته ، ثم استعان بنا لنكتب له الخطاب ، وأصر على أن تكون الترجمة حرفية ، وظل يملأ علينا نص الخطاب أكثر من ساعة ٠٠ وسلامى اليك كثير السلام . وللأفريكان الخمسة كثير السلام .. وبلغهم أنهم مسامحهم ، ونحن في شوق شديد لرؤيتكم والتمتع بكم .. ثم سكت قليلا وسألنا في اهتمام :

— هو هنا صحيح أفريكان .. ؟

ولما أجبناه بالإيجاب ، قال :

— طيب اكتبوا .. لأننا جميعا أفريكان زى بعض بلغكم الله السلامة والسلام ختام .

وعندما انتهى سألنا في خبث :

— أيه رأيكو في الجواب ؟

— حاجة عال .

— طيب ببس حنبتوا ازاي لاطاليا يطلع بكلم لحد هناك ؟ .

وتطوع كل منا فذكر رقما .. ثم قال بعد أن انتهينا من حديث الأسعار :

— مثن الواحد بيعتوا في البوسطة بتاعتنا برضه ؟

— طبعا ..

— تبقى داهية لو بيعتوه الصعيد .

وعندئذ تناول الخطاب ، ونظر العنوان المكتوب بحروف لاتينية على الظرف وتفرس فيها طويلا ، ثم قال وكأنه اكتشف حقيقة الكون :

— ياسلام يا جدعان ، شوف البنى آدم ، قدر يستقرا الكلام اللى مالوش راس ولا رجلين .

ومضت أعوام الحرب كلها ، وصورة ماير تحتل ركنها ممتازا في مقهى المعلم أمين داخل برواز ثمين ، عثر عليه المعلم أمين في سوق الثلاثاء والخطاب الذى كتبناه للمعلم أمين يحتل جيبه ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، كان المعلم أمين يخرج الخطاب ويفتحه ثم يحكى قصة الرجل الأفريقي الذى كان زبونا في المقهى ثم سافر الى ايطاليا ، ثم يسأل من حوله في النهاية .

— الواحد يبعث الجواب في البوسطة بتاعتنا دي .
ثم يطوى الخطاب في رفق ، وينظر الى العنوان في استغراب ويدسه
في جيبه ويتحسسها وكأنه شيء ثمين .

وكان المعلم أمين اذا جلس جلسته الممهودة والتف حوله بعض الزبائن
الذين لم يشهدوا قصة الافريكى معه ، أخذ يستعيد فصولها معهم :

— تعرفوا ، وحياة العيش والملح كنا نقعد نتكلم انجليزى بالخمس
ساعات .

وكان الجالسون معه يصدقون مادام المعلم أمين لا ينسى ان يطلب
الشاي كلما شعر بالبرد ، ويضع النار فوق الشيشة كلما أحسوا بالصداع .
وكان اذا عثر في الجريدة على صورة في ميدان القتال وفي الصورة
جنود افريكان ، دقق النظر فيها ، واثار بأصبعه الى جندي باهت الصورة
ويؤكد في ثقة :

— العسكري دا فوندا .

فاذا قلنا له ان العسكري فوندا يخارب في ايطاليا ، والصورة المنشورة
امامه التقطت في افريقيا ، قال في هدوء :

— دول بس بيقولوا كده ، عشان الاعداء مايعرفوش مكانهم .
وذات مساء اقبلنا على القهوة ، وقلنا له في عبث صبياني :
— فوندا مات ياعم أمين .

ولم تكن ندرك أننا بهذا الخبر قد سددنا رصاصة الى قلب المعلم أمين .
نقد بدا مهموما كأنه فقد ولده ، وانزوى طول الليل صامتا كئيبا لا يتحدث
مع أحد ، حتى عشاءه الذي اعتاده منذ عشر سنين لم يذقه .

وفي الليل والدنيا ساكنة والمعلم أمين وحده على الرصيف ، ونحن
نتأهب لمغادرة المقهى ، انفجر المعلم أمين باكيا .
وعندما اتجهنا نحوه كف عن البكاء وتظاهر بان الغبار آذى عينيه . .
ليس الا .

وفي الصباح احضر المعلم أمين نقاشبا وطمس على الياضعة التي كانت
مرفوعة أعلى القهوة ، وكتب عليها بخط جميل ، قهوة فوندا .

وخفنا ان نذكر الحقيقة للمعلم أمين ، واصررنا على كذبنا . . ان فوندا مات . وذهبنا اليه في المساء لنعزيه ، فوجدناه قد رص الكراسي امام باب المقهى ، وجلس الزبائن صامتين ومقرى عجوز يرتل شيئا من القرآن . ثم انتهى العزاء ونسى الناس قصة فوندا ، ولكنها أصبحت عادة ادى المعلم أمين ، ان يحتفل بذكرى الافريكى في نفس الموعد كل عام .

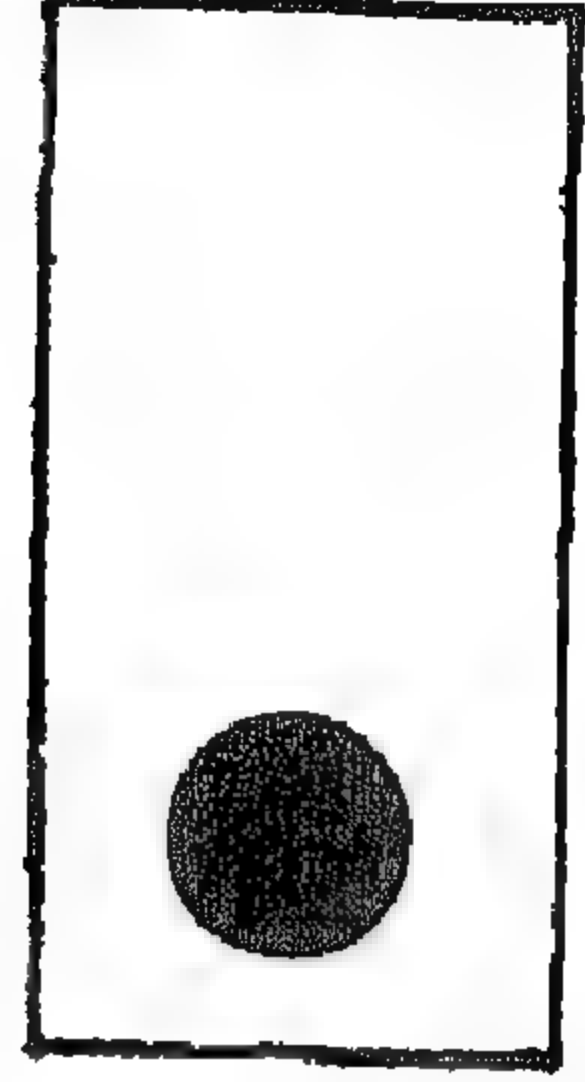
وحتى الآن ، وبعد مرور عشر سنوات ستجد مقهى صغيرا في شارع عباس بالجيزة اسمه قهوة فوندا وحولها شريط أسود . ورجل عجوز يجلس خلف مكتب قديم متهالك ، وفي جيبه عدة أوراق بالية ، أهمها خطاب باللغة الانجليزية ، تلقاه منذ عشرين عاما من رجل كان يحارب في ايطاليا . . ولا احد يعرف مصيره .

ولكنه كلما وقع بصره على الخطاب هز رأسه أسفا وقال في
اسي عميق :

— يرحمه الله .



أجمع الناس



اختفى عبد العاطى اسبوعا ، من قهوة أمين ثم ظهر
.. الباطو على كنفه والكوفية حول عنقه وعرقه يغسل
يديه ، فقد كان الجو حارا لا يطاق ، ولقد كان اخفاء
عبد العاطى مثار تخمينات من رواد قهوة أمين بنضهم
قرر أنه طفش والبعض أكد أنه مات ، أكله ترام وهو
عائد من المخبز في الصباح ، والبعض قال أنه مريض
وربما سافر الى مكان بعيد .

وعندما ظهر عبد العاطى في قهوة أمين ذلك المساء
ورأى الناس يديه مصبوغتين بالحناء عسرفوا أن
عبد العاطى تزوج من بنت الحلال .

والتف الصحاب حول عبد العاطى يسألونه في فضول عن دنياه الجديدة ،
أنهم جميعا عذاب لم يدخلوا دنيا بعد ، وعبد العاطى وحده هو الذى قرر
واقترح دنيا الجواز ، وعبد العاطى كان مثلا في دنيا العزوبة ، ورابة في الزواج
له وزن وله مقام .

ونظر عبد العاطى في هدوء الى الجالسين حوله : محمد حنيف وصابر
الطباخ ، وعبد المكو جى ، وسيد السكرى ، ثم رفع يديه الغليظتين
المصبوغتين بالحناء وصفق طويلا ، وجاء الجرسون وطلب مشاريب للجميع ،
ثم اعتدل في جلسته وأصلح من هيئته وقال في اهتمام بالغ :

— الجواز حلو .

واتسعت عيون الجالسين ، ومالوا جميعا الى الامام وشهق عبده
المكوجى من الدهشة وسال فى استنكار .

— حلو ! ؟

ومرت فترة صمت قبل ان يجيب عبد العاطى فى هدوء شديد .

— ايوه حلو . . بس للجدعان .

وكان عم ابراهيم العجوز يجلس بعيدا عن الصحاب الملتفين حول
عبد العاطى ، لكنه فيما يبدو كان يتتبع النقاش ، فما ان استمع الى جواب
عبد العاطى الاخير حتى زحف بكرسيه الى الامام ، وقال وهو يزحف :
— اسم الله عليك . . ده كلام مضبوط .

وافسح عبده مكانا لعم ابراهيم . . وجلس وسط الحلقة المضروبة
حول عبد العاطى ، ينظر فى شغف ووله الى الشيشة التى تتداولها ايدى
الجالسين .

وقال عبد العاطى بعد ان رشف من كوب الشاي رشفة طويـ
لة لها صوت مسموع :

— الراجل الجدع من غير مؤاخذه . . مفيش خوف عليه .

وهتف عبده المكوجى فى سرور :

— الله اكبر . . دا الكلام الجد ، الراجل الجدع يغلب ميت واحدة

سست . .

ثم عاد الصمت من جديد . . وعادت الانظار تتعلق بعبد العاطى وهو
جالس فى وقار والبالطو على كتفه والكوفية حول عنقه ، والفرق يغسل
يديه . . والشيشة مدفونة بين شفتيه ، ولكنه نظر الى الجميع بغد قليل
تظرة فيها اعتداد شديد ثم قال :

— تعرفوا انا عملت ايه اول يوم .

وقال الجميع :

— هيه .

— رحى البيت الساعة واحدة بالليل .

وكان عم ابراهيم قد نجح فى خطف الشيشة من يد صابر فهتف وهو
ينثف من حلقه سحابة من الدخان :

— براوه عليك ، اهو كده الجدعنة .

وواصل عبد العاطى حديثه وكأنه لم يسمع تعليق عم ابراهيم :
— أنا كنت باقول ايه ؟ .
ورد عبده المكوجى بسرعة :
— رحت البيت الساعة واحدة بالليل .
— أيوه مضبوط .. أنا رحت الساعة واحدة بالليل . وكنت سكران
طينة .

وضحك الجميع ضحكة هسترية استفرقت وقتا طويلا ، وعند ما كانوا
عن الضحك ، ظل عم ابراهيم يضحك وحده ، ثم قال بعد ان زايته نسوية
الضحك :

— عفارم عليك .. أنا يعجبني أمور الجدعة دى .
وانتهز عبد العاطى الفرصة واختطف الشيشة من يد ابراهيم وجذب .
انفاسا سريعة ثم ناولها لصابر وقال :
— دخلت لقيتها مبوزة .. زعلانه ليه مايردش .. حصل ايه مايتكلمش
الغرض .. قلت لها قومي اخلعيلي الجزمة ..

وهتف عم ابراهيم وهو يمسح فمه بباطن يده :
— أيوه .. اسم الله عليك .. اهى دى حركة جدعة مضبوطة .. اطلب
لنا شيشه اطلب ..

وصفق عبد العاطى طويلا وجاء الجرسون ، وطلب شيشة لابراهيم ..
ثم استأنف حديثه قائلا :

— الغرض .. عملت نفسها مش سامعة ، ورحت لهفتها جـوز اقلام
خليتها وحياة سيدى النبى طرشت دم ..

وهتف عبده فى جنون وهو يصفق بشدة :
— تسلم ايدك يا عبد العاطى ، أهودا الشغل صحيح ، مش شغل
الافتدية ، اللى يروح البيت يغسل الحلال لمراته .
وتسأل عم ابراهيم وهو يثفط أنفاس الشيشة فى اخلاص :
— غضبت ؟

ورد عبد العاطى فى ثقة شديدة :
— ما عنديش حد يغضب أنا ..

وقال ابراهيم :

— اسم الله عليك .. راجل طول عمرك يا عبد العاطى .
وصفق عبد العاطى مرة أخرى .. طلب شيشة للصحاب ، ثم وضع
ساقا على ساق وأحكم وضع الكوفية حول العنق تماما ، وقال وهو يهسز
ساقه فى دلال :

تانى يوم رحت الساعة ثلاثة بالليل قابلتني بتضحك مديت رجلى فى
وشها راحت خلعاالى الجزمة سرعة البرق .
وتمايل الجالسون فى نشوة ، وقال عم ابراهيم وفى رنة صوته الفرحة
بالانتصار :

— ماهى شافت العين الحمراء ، ولو كان راجل طرى شويه ، كانت
ركبته ، اسألنى أنا ، حاكم أنا اتجوزت أربعة واستويت ..

وبعد ان سادت فترة صمت قصيرة ، تساءل عبده المكوجى فى همس :
— انما الجواز عاوز مصاريك كثيره ياسى عبد العاطى .
ورد عبد العاطى فى استخفاف ..
— ولا كثير ولا قليل .. اللى معايا بنصره .
ورد عبده مشفقا :

— البيوت برضه تتكلف يا عبد العاطى والست ساعات بتبقى ايدها
مخروقة .

وقال عبد العاطى فى استنكار :
— والست مالها ومال الحاجات دي .
وتساءل عبده المكوجى :
— أمال مين اللى يصرف ؟

— أنا اللى ماسك المصروف ، واللى منعيا باذفعه ، أمال ها اقطع
روحى .. هوه أنا ينكير .

وصفق عبد العاطى ضحرا ، وجاء الجرسون وصرخ فى وجهه فى
سبام شديد :

— هات دور شاي هنا يا بنى .

ثم التفت الى عبده وقال :

— ست ايه وبتاع ايه ، طب ايه رايل انا امبارح رميتها شلن رجعت
لقيتها طابخة وواكله والحمد لله . وأول امبارح مكنش معايا وسبتها نص
فرنك ، جابت طعمية وعيش وكلت هوه انا ها اموت روحى .

وكان الشاى قد حضر ، وأطبق عم ابراهيم على الكوب ، وراح يرشف
منه فى لذة نائقة ، وعندما اتى عليه سأل عبد العاطى فى اخلاص :
— والحمد لله يعنى مبسوط ؟

ورد عبد العاطى وشفته تطرقع بالسعادة وهو يقبل يده ظهرا
وبطننا :

— الف حمد وشكر ، أروح البيت الاقى البنت نضيفه .
وفرشة نضيفه . . والحقيقة البنت نضيفه ، وخدمة تحت رجليه ،
والف حمد وشكر ياعم ابراهيم .
وهتف الذين كانوا يجلسون جميعا .
— الف حمد وشكر ، والف مبروك ياسى عبد العاطى .

وفتر حماس الجالسين بعد ان خمدت النار فى الشيشة ، وفرغت أكواب
الشاى ، وألقى عبد العاطى نظرة على الساعة ، فاكتشف أن الوقت قد
زحف نحو العاشرة وأن عليه أن يغادر المقهى سريعا الى المخبز الذى
يعمل فيه .

وصفق عبد العاطى للجرسون وسأله عن الحساب ، ثم ارتفع صوته
محتجا عندما هتف الولد :

— الحساب ريسال .

وقال عبد العاطى .

— ريسال ايه يا ضلالى انت مش حتبطل سرقة بقى ؟

واحتج الجرسون أيضا لاتهامه بالسرقة واثبت امام الجميع بعملية
حسابية بسيطة ان المشاريب التى طلبها عبد العاطى بلغت ريسالا بالكامل
والتمام ، ومد عبد العاطى يده فى جيبه ، وأخرج الريال صافرا ، ودفع به
للجرسون ، ثم ألقى تحية المساء على الجدعان . . وانصرف .

وعبد العاطى يعمل فى مخبز بعيد . ويقف طول الليل امام النار ، ويتقاضى

أربعين قرشا ، ينفق رايلا على القهوة ، وأحيانا ثلاثين قرشا ، والباقي ينفق منه على الافيون الذى يستحلبه طوال الليل وهو يقف معذبا أمام النار .

وانقضى الليل وجاء الصبح .. وخرج عبد العاطى من المخبز يترنح كأنه حطام وجر رجله خرا الى المنزل وعندما جلس يرتشف كوب الشاي نظر الى زوجته نظرة حاقدة وقال فى جفاء شديد :

— طول الليل نائمة زى الملك ، وأنا عذمان العافية ، والآخر أفضل واقف ساعة ع الباب اخبط ، يعنى انت السفيرة عزيزة لازم تنامى لحسد الضمير .

وتكورت زوجته حول نفسها ولم ترد .. اكتفت فقط بالبكاء ، وارتفع صياحه مرة اخرى :

— خليك ورا العياط لما تخربى البيت .. ما أنا عارف وشك الفقر دا .

كانت البنت صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ، ضئيلة ، يستطع عبد العاطى لو اراد أن يلتمها كلها فى فمه ، كان وجهها شاحبا ، وجلدها أصفر وجلبابها الاحمر القطيفة يظهر ساقها الضامرتين .. وقدميها المتسختين كأنها كانت تغوص فى بحر من الطين .

والتقى عبد العاطى نظرة على قدميها الملطختين وبصق عليها بشدة وقال وهو يسعل :

— بقى دى رجلين عروسة ، دى ولا رجلين معزة ، على الطلاق ان ما غسليهم دلوقت ، ما انت قاعدة فى البيت .

وقفزت البنت واقفة كأنها أبو الفصاد وخرجت الى الحمام ، وراحت تحف بالكوز من الزير وتلقى على قدميها وهى تبكى بكاء مضغوطة مسلوخا كأنها قطة تموت .

واستراحت نفس عبد العاطى وهذات ونهض فخلع ملابسه وقفز على السرير ، وتاهب لنوم طويل ، ولكنه تذكر قبل أن يشرع فى النوم أن زوجته ليس لديها نقود لتعدنه طعام الغداء .

قفز من السرير ، وضرب يده فى جيبه كانت هناك ورقة صحيحة بربع جنيه وحتة بقرشين .. وقلب عبد العاطى الورقة الصحيحة بين يديه ثم

دسها في جيبه ، وانتزع القرشين والقي بها على المخدع بجوار رأسه ، ثم تمدد على السرير وراح في نوم عميق .

وعندما عادت زوجته الى الحجرة ، كان شحير عبد العاطي يملأ الجو وكان يبدو بنفمه المقتوح ووجهه المنتفخ وجثته الغليظة كأنه ثور وقع نائما بعد مجهود عنيف .

ومدت الزوجة أصابعها الى القرشين فالتقطتهما ، كأنها نشال يحذر ان تقع عليه اعين الناس ، ثم ألقت على زوجها الفطاء ، وتعمدت ان تغطي حتى رأسه الاصلع الكبير .

ووقفت عند النافذة . . . والقت على زوجها نظرة خبيثة مأكرة ، قبل ان تستدير لتلقى نظرة على نافذة صغيرة عبر الحارة يقف فيها تلميذ صغير ، ثم مدت بوزها من خلال حديد الشباك وقبلت الهواء ثم فتحت فمها في ابتسامة بلهاء قبل ان تغلق النافذة وتقفز على السرير وتتمدد الى جوار عبد العاطي .



nyla

الانجليزى الحر



وحياة اليوم العظيم ، وحياة اليوم المقترح ، وحق
من جمعنا بلا ميعاد ، ليس هناك اجدع من الانجليزى
الحر . والانجليز تشاء حكمة الله شكل واحد ، ولكن
صنفين ؟ الوجه احمر والعين زرق والشعر اصفر .
ولكن هناك انجليزى مزيف وانجليزى حر ..

وحكمة الله تتجلى دائما ، احيانا فى الفواكه واحيانا فى البنى آدم
والمرتقال الحادق له شكل الليمون الحلو ولا يستطيع احد ان يفرق بينهما
الا اذا غرز أسنانه فى الثمرة وتذوقها ! ولا احد فى العالم تذوق الانجليز مثل
الحاج حسن ، انبرت أسنانه من كثرة ما انغرزت فى لحم الانجليز ليكشف
أيهما المزيف وأيهما الحر ، وعندما انبرت أسنانه اكتفى بعينه ، نظراته
اصبحت كأسنانه .. نظرة واحدة من عيون الحاج تكفى لمعرفة الصنف،
ولكن ما أندر هذا الصنف بين الانجليز ، والكلام لا يلقيه الحاج على عواهنه
فهو الخبير وهو العليم وهو الذى قضى رحلة حياته فى معسكرات الانجليز
يعيش كجندى معهم من كوم حمادة فى البحيرة الى الشلوفة فى القناة الى
حيفا فى فلسطين الى البصرة على شاطئ الخليج وكأنه الطفل الصغير
لا يترك أباه . وكان يخاف الانجليز فى بادىء الامر وكان يخشاهم اكثر عندما
يرطنون ! حكمة الله ان الانجليز لهم كلام مثل كلامنا ولكنه لا يفهمه .
وعام بعد عام أصبح الطفل صبيا . وأصبح الرطن مقهوما وعندما
فهم لم يعد يخاف الانجليز ! وكانت دهشته عظيمة لان الانجليز لهم شكل
واحد ، وكأنهم جميعا من امرأة واحدة ورجل واحد !

هكذا كان يظن وهو طفل صغير ولكن عندما أصبح شابا اكتشف السر .. الانجليز لهم شكل واحد لانهم جميعا يشربون الخمر !! هو نفسه عندما اعتاد شرب الخمر أصبح مثلهم ، وجهه الاسمر أصبح في حمار البطيخة اليافاوى ، ولكن الخمر والحق يقال لم تنجح في تلوين العينين .. هناك سر آخر اكتشفه الحاج حسن في شبابه ، السر هو البرد !!

وبرد الانجليز قارس وشديد ، هكذا علم الحاج حسن مسن الانجليز انفسهم ، ولكن هؤلاء الانجليز سذج لا يعلمون ان البرد هو سر العيون الزرق .

وعندما اكتشف حسن السر كان يتحدث به الى الناس ، ولكن الناس لم تكن تؤمن على الفور ! ولم يكن حسن يجد صعوبة شديدة في اقناعهم .
— مش مصدق ان السقعة تعمل كده ، طيب حظ ايدك في البرد .
يعون الله تبقى زرقا !

— ياسلام !!

— آمال .. انت عارف السما زرقا ليه ؟ عشان الجو فوق ساقع .

— عفارم عليك .

وهكذا ببساطة كان يقنع الناس وكان يكسب احترامهم !
ورجل مهلوى وحدق مثل الحاج حسن لا يمكن ان تخدعه المظاهر ،
الانجليز فعلا لهم شكل واحد ، وله من بينهم اصدقاء ، وهم جميعا انجليز ،
وجميعا يرمطون .. وكلهم لهم نفس السحنة ، ونفس الطريقة في الحلاقة ،
حتى السجاير صنف واحد !

ولكنه بالملاحظة والمراقبة والاختلاط بدا يكتشف شيئا اخر . انهم اصناف وعدة اشكال ! هناك انجليزى اذا خلا بك بدا عليه اصله ، فلاح ابن فلاح .. يجلس على الارض ، ويأكل بأصابعه ، ويتمدد وينام ، فاذا غطس في النوم ارتفع شخيرہ ! وهناك الانجليزى ابن البلد ، على صدره اكثر من نخلة مدقوقة وعلى ظهر يده اكثر من امرأة ويسبب ميت دين في الدقيقة ، ويزوغ فلا يرعى عملا ولا يحترم مسئولية ، ويمد ايده فيهبش من مخازن الجيش ، فاذا احتك به مخلوق او احتك بمصالحه فتح منطوة وبدا يتكلم !

ولكن الانجليزى الحر ما احلاه ، يموت من الجوع ولا يأكل بأصابعه ،

وتلقى عليه السلام فيلقى عليك الف تحية . ويضبطك ، في مرأش زوجته ،
فيغلق الباب ويجلس في الصلاة ينتظر ! وتلزقه على قفاه فينحني في أدب
ويعتذر !

والعلام ليس ببلاش ، العلام بثمن ! والحاج حسن اكتشف هذا السر
في لحظة تجلى ، ولولا الحظ . لولا أن التجربة التي خاضها كانت مع
انجليزى حر ، لفتح كرشه بمطوة ، أو فتح رأسه برصاصة ! والحاج حسن
عندما كان شابا في الثلاثين ، كان آخر عياقة وشياكة وكان فحلا ، ولو كان
في هوليود لاصبح ممثلا وشهيرا ومعبودا للنساء ! وكان الحاج حسن يعمل
وقتئذ في معسكرات العائلات ، وبين العائلات امرأة ضابط طيب ، كانت
ناشفة كالحطبة ، ضبها بارز كأسنان الشوكة ، ولكنها كانت رغم كل شيء
جميلة متحركة وشابة ! وكانت ترغب في الحاج حسن — ولم يكن قد حج
بعد — وكانت صريحة فطلبت وصاله ، وكان غشيما فرفض ، وألهب رفضه
النار المتأججة في نفسها فطارده وحاصرته وتمكنت منه في النهاية ! ولا يدري
الحاج حسن كيف حدث هذا ، ففي تلك الليلة كان اللقاء في الدكان .
والدكانة داخل المعسكر وعلى مقربة من مستعمرة العائلات . وكان القمر
مستديرا والجو خريفا ، وصيحات عريضة من جنود سكارى ترن في الفضاء
البعيد !

ولان الحاج حسن كان فحلا فقد كانت المرأة منسججة ومنشكمة ،
وكان صوتها عاليا يرن بين جدران الدكانة ويتسرب الى الخارج ! ومر
عسكري سكران عند الباب فسمع صياحا في الداخل ، وهو صياح لم يتعوده
في لحظات الانبساط ، فتوهم ان في الداخل قاتلا وقتيلا فطار الى الضابط ،
وللحظ المهيب كان الضابط المقيم في المعسكر هو نفسه زوج السيدة الناشفة !

وعندما اكتشف الرجل الحقيقة على ضوء المصباح الذي في يده ،
تراجع مذهولا ، وسقط قلب الحاج حسن بين ركبتيه وأغمض عينيه وتلا
الشهادتين على روحه !

ولكن مر وقت طويل ، وشيء لم ينطلق في رأسه ، وشيء لم يخترق
كرشه ، والاغرب من ذلك أن المرأة الناشفة حاولت مع الحاج حسن أن

تميد الكرة والرجل زوجها كان قد انصرف منذ لحظة ، ولكن حسن كان قد تحول إلى شيء كالمرأة ، لا يفرقه عنها الا الشارب المفتول !!
وعندما خرجت المرأة خرج حسن لتوصيئها ، وانكت شيء في الوجود ان الرجل زوجها كان واقفا عند الباب ينتظر !!

وكل شيء ممكن .. ولكن ان تضيع حياة حسن في شربة ميه .. لا وتحسس حسن مطواته ليدافع عن نفسه ، فلا بد ان الرجل الانجليزى سيقتله ، ولكن الأتكت هو الذى حدث .. لقد انحنى الرجل يعتذر عن سلوكه ، وراح يشرح حقيقة الامر ، وانه لم يكن يقصد ازعاجه — ازعاج حسن — ولكنها الصدفة السيئة والجندى السكران الذى ظن انبساط زوجته نوعا من الشجار !!

وشهر كامل بعد ذلك والضابط الانجليزى يمر على حسن في دكانه ويحييه ويعتذر ! وحسن مكسوف يقطر خجلا ويتصمب عينا ، يفكر في الهرب من المعسكر ، ويود لو ان الارض انشقت وابتلعتة . ولكن التكرار يعلم الدار ، وقد تعلم حسن في النهاية ان يكون ابرد من هذا الانجليزى الذى يدو ان الذى يجرى في عروقه ليس دماء ولكن مية شائعة ! ثم تجرا حسن أكثر فانغمس أكثر في العلاقة مع المرأة الناشفة . وتجرا أكثر فلم يعد يذهب معها إلى الدكان . ولكن كل شيء أصبح يتم في بيتها وعلى فراش الزوج . وكل شيء كان يتم في البداية والزوج في المكتب ، وبمرور الايام ، أصبحت الأشياء تتم في حضوره وتحت رعايته ! والاغرب حقا ان السرور كان يبدو عليه أكثر مما يبدو على امراته !

رجل سافل هذا الانجليزى وقواد ، هكذا كان حسن يفهم ، ولكنه في النهاية اكتشف السر ، ان الرجل الذى امامه انجليزى من صنف ممتاز ، طيب نادر كالمناظر ، انجليزى حر !!

وتعلم حسن أشياء كثيرة ، وظل يتعلم حتى شاخ ، الانجليزى الحر غير مسئول عما يقع من الانجليز من فظائع .. في الحرب يتولى الانجليز المزيغون عملية القتال ، ويقومون بالقتال ، ويرتكبون السرقة ، وينهبون خيرات البلاد . والانجليزى الحر لا ذنب له في شيء ، على انه في كل الاحيان يشتمز وفي أغلب الاحيان يعلن هذا الاشتمزاز فهو لا يحب القتل . ولا يحب الضرب ولا يأكل عرق الناس !!

وما أكثر الانجليز الاحرار الذين صانفهم حسن . وما أكثر الذين صانفهم .

ولكن الذى أحبه حسن أكثر كان ضابطا شابا ، وحسن كان قد أصبح حاجا وشيخا ، وكان يحلو للضابط الانجليزى ان يأتى كل مساء الى دكان الحاج حسن ويجلس معه ، فهو لم يكن يرغب فى الجلوس مع غيره من الانجليز فى المعسكر ، لانه لم يكن يوجد بينهم انجليزى واحد حَسِر . كلهم كانوا مزيفين . والانجليزى المزيف يا مستر حسن — فهكذا كان يناديه — حثالة مثل الهندى والأفريقى . ليسوا أصلا من بلاد الانجليز ، فهم من بلاد أخرى عاشوا فقط فى انجلترا ، وأصبحوا انجليزا بالجنسية وليسوا انجليزا فى واقع الامر !

وكان الضابط الشاب صديق الحاج حسن يقدم الدليل كل يوم على أنه حر فعلا ، سجنائه للحاج حسن . أشهى المأكولات للحاج حسن ، طلبات الحاج حسن كلها مستجابة ، رغباته أوامر ! ومعاملة ولا معاملة ملوك . اذا أقبل على الحاج حسن صافحه بأدب واذا ذهب ودعه فى أسف ، فاذا سار ظل يلوح له طويلا حتى يختفى !

ولم يكن أبدا شابا متلافا ، لم يكن يحب الخمر ، ولم يكن يلعب القمار ، ولم يكن من هذا النوع من الشباب الذى يتهافت على النساء ، رغم انهن كن يتهافتن عليه ! وكان شديد الأسف لانه يعيش بعيدا عن لندن ، وفى صحراء مصر ، وكان يتمنى دائما أن يعود الى بلاده .

— وهل تدري يا مستر حسن ، امنيتى الوحيدة ان أعود الآن الى لندن وأسكن فى بيت له حديقة لأتمكن من زراعة الورد .

ولهذا السبب كان الحاج حسن سعيدا رغم لوعة الفراق لان صديقه عائد الى لندن ، وليلتها كان لها العجب . كان على رأس آخر فرقة خرجت من مصر وجلس معه على ظهر الباخرة التى كانت فى طريقها به فى الصباح الى بعيد . وعندما بدأت الباخرة تتحرك فى طريق الرحيل ، ظل الحاج حسن على ظهرها يغالب دموعه ، ويقسم الف يمين أنه سيحاول أن يذهب الى لندن خصيصا ليراه . ويقسم الضابط هو الآخر انه لابد عائد كسائح فى شهور الشتاء !!

وجاء الشتاء فعلا ولكنه لم يكن شتاء سياح ، يقول الناس المتعلمون

ان الحـرب على الأبواب ، والانجليز هم الذين سيـشعلون نار الحـرب ،
والحاج حسن يسمع ويسكت ، أحيانا يصدق ، وأحيانا أخرى لا يصدق .

ولكن الحرب وقعت فعلا يا حاج حسن وجاء الانجليز !! المصيبة انه
لن يأتى مع الحرب انجليزى واحد حر ، سيأتى الهنود ، وسيأتى الأفريكان ،
وسيعود الموريثان ، وهنا تكون الكارثة فهو ساكن أمام الميناء وسيكون
بيته صيدا سهيا وسهلا لهؤلاء الاوغاد المسلحين !!

وفكر الحاج حسن طويلا فى مصر عائلته . واستقر رأيه على ترحيل
الأولاد الى مصر على أن يبقى هو نفسه يواجه العاصفة التى تتجمع فى
سماء بور سعيد . ثم طرد هذا الخاطر نهائيا من نفسه ، فهو رجل مجرب
وخبير ، وليس من المعقول أن يعود الانجليز ، وليس من المعقول أيضا أن
يهجم الموريثان والهنود والأفريكان . . . لسبب بسيط هو أن قائدهم انجليزى
دائما ، والقادة دائما من الصنف الممتاز .

ومضى شهران وكل شىء على مايرام ولكن فى آخر اكتوبر حدث الذى
لم يكن يتوقعه ، لقد هجم الانجليز . وبدأ الضرب فى المليون ، وبعد الضرب
بدأ الغزو وانتشر فى فضاء المدينة ملايين المظلات ، جمرات وصفراء ومن
كل الألوان !

وصعد الحاج حسن الى سطوح بيته فى انتظار الصيد الذى تلقى به
السماء .

وكان الحاج حسن مستعدا ومسلحا ومطمئنا الى شجاعته وخبرته
فى استعمال السلاح !

وجاءه الصيد سريعا ، فقد هبطت مظلة على سطح بيته ، واختبأ
الحاج حسن خلف عشة الفراخ ليشاهد أولا وجه هذا العدو قبل أن يقتله ،
وهى دقائق معدودة يرى فيها وجهه . وجذب ابنه من قفاه ليطحه أرضا
هو الآخر ، ولكن ، فضول الولد الصغير لم يكن يقل أبدا عن فضول أبيه :
فمد بوزه وفتح عينيه ليرى وجه هذا القادم الغريب !

ولم تمض ثوان حتى كان الرجل الغريب الذى هبط من السماء منذ
لحظة قد تخلص من حبال المظلة ، ورفع مدفعه الرشاش وبدأ يتحرك فى
حذر ويخطو كالفهد على السطح متلصصا فى كل اتجاه !

وعندما نظر الوافد الغريب ناحية الحاج حسن كان السلاح قد تحول الى كتلة من الاعصاب منتبهة ومتحفزة ومستعدة للقتال ! ولكن هذه الكتلة تراخت وتمطت ، كأنها قالب زبد ساح تحت حرارة شهر يونيو . والحاج حسن معذور وله الحق فلم يكن الهابط من فوق بمدفعه الرشاش الا الضابط .. الانجليزى الحر !

ونسى الحاج حسن كل شيء الا هذا الصديق ، والايام التى ولت والعيش والملح الذى كان بينهما فى زمن مضى .. خواطر شتى جالت فى نفس الحاج حسن قبل ان تلتقى انظارهما فجأة ! وعندما التقتا ، التى الحاج حسن بسلاحه ، ذهب مفتوح الذراعين للقاء الصديق .. واى صفة يمكن ان يكونها هذا الانجليزى الحر اكثر من انه صديق !

وكان الولد الشقى قد راح يعدو امام ابيه فى اتجاه العدو ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى سقط على الارض ، فقد فتح الضابط الانجليزى مدفعه الرشاش فى كرش الصبى فسقط يتخبط فى دمه !

وصاح الحاج حسن مذعورا على الخوارجا الذى لابد ان الامور اختلطت عليه .. ولكن يبدو ان الانجليزى الحر لم يفهم شيئا فقد ضغط على الزناد مرتين ، وعندما تأكد الحاج حسن انه لن يتوقف استدار يبحث عن مدفعه ، ولكن الانجليزى الحر ضغط على الزناد مرة اخرى ، وأصبح الحاج حسن اسما فى قائمة شهداء بور سعيد .

الشيء الذى لابد فكر فيه الحاج حسن وهو يتأهب للموت هو السر الذى جعله يتغير .. هذا الانجليزى الحر !!



خاتم سليمان



اصبحت الليلة مزاج وحلاوة ، فقد جاء ابو حسن ،
واذا جاء ابو حسن فكل شيء يطيب . . فهو لا يأتي خالي
الوفاض أبدا بل يحضر دائما وبين يديه أشياء ، وفي ثيابه
جيوبه أشياء أخرى طيبة تحلو بها السهرة وتنجلي ،
وليس ابو حسن نكرة ولا هو بالمجهول في المدينة ، فهو
تاجر كان سبع زمانه أيام الحرب وبعدها . ثم وفدت
الازمة بعد ذلك فطحنته واودت بتجارته واشتدت الازمة
اكثر عندما اضطربت الاحوال في القتال ، وعندما نشبت
الحرب واصبحت الاسماعيلية مسرحا للقتال انهار مركز
ابو حسن التجاري تماما ، واصبحت قدمه على شفا
الافلاس .

ولكن ابو حسن ، رغم ذلك ، لم يقنط أبدا ولم يشك لاحد بل هو حريص
أبدا على أن يظهر بمظهره القديم يوم ان كانت الاحوال عال والدنيا مقبلة ؛
جلبابه دائما من الصوف أو الحرير ومن أغلى الاصناف ، والخواتم الذهبية
لا تزال في مكانها حول أصابعه تلمع وتخطف الابصار . . صحيح أنها نقصت
خاتما أو اثنين . ولكن بعضها موجود على أية حال . وابو حسن راض عن
اقتناع ، والدنيا في نظره هكذا ، لا النعمة دائمة ولا العسر يدوم ، وهو نفسه
شبع من الحياة وارتوى . وعندما كان شابا طاف بأنحاء شتى من الارض ،
واستمع بطيبات الله وقضى سهرات حمراء عنيفة في بيروت وفي فلسطين وفي

الشام وكان دائم الترحال ليعاين بضاعة ، او يسلم نقودا حان وقت سدادها ، وهو لم يزل شابا كله صحة وفتوة ولم يبلغ الخامسة والاربعين بعد .

وكانت له مجالات واسعة زمان ، كان يعشق السفر ، ويهوى التمثيل ، ويعجب بيوسف وهبى ، وكان احيانا يقلده وهو يصرخ على المسارح وفي يده سكين تقطر من دماء ضحاياه . ولكن مجالاته اخذت تضيق بعد ذلك حتى لم يبق له الا سهرات الحشيش . ففى ضباب الدخان تعود أبو حسن أن يمدفن احزانه ، وأن يجتر ماضيه فى صمت ، وأن يتجرع حاضره فى شجاعة . ويفكر فى مستقبله فى تفاؤل رغم كل شيء . وفى هذه السهرات يجد أبو حسن مجالا فسيحا ليحكى جولاته وغزواته فى حلب ، ولياليه العامرة فى بيروت ، ومغامراته فى جبل لبنان .

ولكن هذه الحكايات مل تكرارها ، وتعود الصمت بعد ذلك . ولكن غريزة الرغى كانت تدفعه احيانا الى الحديث عن السياسة ومشاكل الارض . واصبح شغوفنا بتتبع انباء الحرب التى تنشب بعيدا ، والتجارب التى يقوم بها العلماء لتحسين القنابل والصواريخ . وكان تعليقه الذى يختتم به احاديثه حصول هذه المسألة يحمل رايه بصراحة فى هذا الجنون الذى اصبح هدف الانسان : — رينا بيخلق الحياة وبنى آدم بيخلق الموت .

كان يكره الحرب ، فقد كانت الحرب سبب خرابه . ولولا الحرب لكان أبو حسن فى حال غير حاله ، وكل شيء تغير فى الوجود حتى الحرب . فى الحرب العالمية الاخيرة كانت الاموال تدخل له بلا حساب ، كان يكسب المئات كل يوم ولم يشعر فى يوم ما خلالها بأنه يخاف القنابل او يجزع من الطائرات . . . ولكن هذه الحرب الاخيرة كانت شيئا آخر ، كان هو نفسه هدفا لها . . . وكان يقف مستعدا ليخوض غمارها لولا انهم توقفوا وانسحبوا وخرجوا الى غير رجعة .

وهو رغم المشاكل ، ورغم الخوف ، ورغم الافلاس الذى يعاينه ، لا يزال يعشق الحياة ويحبها ، ويأمل ان تعود أيامه الحلوة ، فيضع قدميه فى المركب ليطوف بمسرح شبابه بين حلب وبيروت .

ولكنه احيانا يشعر بضيق شديد يبلغ حد الكفر ، ولقد مرت به احيانا اوقات عصيبة تمنى فيها لو تنشب الحرب ، وتمسح القنابل نصف الارض . . . وتقتل نصف الناس ، ويبقى من يبقى بعد ذلك سعيدا ، فأحيانا يخيل اليه ان

سبب زوال الخير هو كثرة الناس وازدياد المخلوقات . ولكن الانبياء التي يسمعونها ويقرؤها تؤكد أن أحدا لن يعيش لو قامت الحرب . وأن الأرض نفسها قد تزول . وتقوم القيامة .

ولقد مضى عليه وقت غير قصير وفكرة غريبة تلح عليه وتغريه : لماذا لا يغلّق دكانه ويستريح ؟ . . فهو لا يعاني الفلس فقط ، ولكنه يعاني أيضا من البلدية . ومن الضرائب ، ومن أشياء أخرى كثيرة سببها أن الدكان لا يزال مفتوحا . . الزبائن تتردد عليه ، والنور يشيع في أرجائه ، وإن كان هو نفسه لا يستفيد شيئا من الزبائن ولا من النور ، ولكنه صرف هذه الفكرة واستطاع التغلب عليها ، فالدكان رغم كل شيء مركز وقيمة ، وهو على اعتبار ما كان لا يزال يتصدر المجالس ، ويختارها بنفسه ، وسهرة الليلة على مزاجه، فهي تضمه مع محام شاب حديث العهد بالترحيل ، على شيء من الثراء ، وصاحب مزاج وطموح يجب الحياة ، ومتعلم يعرف الأخبار والأسرار ومشاكل الكون . . وهناك أيضا موظف في المحافظة هادي ورزين ووقور ، وفي حالة لا يراه أحد بعد ساعات العمل ، فهو دائما في المنزل يستعد لاستقبال عدد من الأصدقاء المعدودين ، ومعهم أيضا مراسل صحيفة يحلو له الحديث في كل شيء . وأبو حسن تحلو له هذه الجلسة وتروقه ، فحديثها يتناول كل شيء إلا مسيرة الناس .

وعندما هبط أبو حسن عليهم هلل الجميع لمقدمه ، ورحبوا به ، وافسحوا له مكانا في الصدر ، فقد كان يحمل معه برتقالا وكنافة ، ويخفي في جيبه كمية لا بأس بها من الحشيش . وعندما ارتاح أبو حسن في الجلسة ، أخرج منديله فجفف عرقه ، وخلع طربوشه فمسح حافته من الداخل ونحاه بعيدا ، وانصرف بكلية يشرف على أعداد النار . وبدأت الأحاديث تتناثر من أفواه الحاضرين ، سرد المحامي الشاب موجزا لأهم أنباء اليوم ، ثم علق عليها وحاول المراسل أن يستنتج من الأخبار أحداث المستقبل ، وجلس الموظف يستمع فقط ، ويهز رأسه أحيانا كلما كانت هناك حاجة ليشعر المتكلم بأنسه يسمعه . وعاد الصمت فخيم على الحاضرين ، ثم قطعه المحامي الشاب بسؤال لأبو حسن ، وكأنها راعه سكوته :

— أنت ساكت ليه يا أبو حسن ؟
وهز أبو حسن المروحة في يده ليزيد النار اشتعالا .

وقال في هدوء :

— أصل النهاردة حصل لى فصل غريب قوى .
وتناول المراسل طرف الخيط وسال أبو حسن عن الفصل الغريب . . .
واجاب أبو حسن على الفور :

— النهاردة اشتريت سمك حلو قوى ، وبعدين بينضفوه فى البيت لقينا
جوه سمكة صباع بنى آدم وفيه خاتم .

وقال الموظف الوقور فى شىء من الدهشة :

— دا كلام ايه ده ؟

ورد أبو حسن فى هدوء شديد :

— زى ما بقولك كده . .

وهتف الجميع :

— وبعدين ؟

وضحك أبو حسن ضحكة طويلة ، وقال :

— أبدا ، شلت الخاتم وقلت فى نفسى مين يعرف ؟ يمكن خاتم سليمان . .

وضحك الحاضرون ، ثم قطعوا الضحك عندما أخذت الجوزة تدور عليهم
وأخذت سحب الدخان تتجمع فوق رؤوسهم ، صلبة لا تتحرك وكأنها مشدودة
الى السقف بحبل غير منظور .

واقترح أبو حسن أن يفتح أحدهم النافذة لينصرف الدخان ، وهب
المراسل على الفور منفذ الأمر ثم عاد ، وقبل أن يعود الى مكانه سال أبو حسن
فى شىء من الخبث :

— طيب وايه اللى جاب الصباع والخاتم فى بطن السمكة ؟

واجاب أبو حسن وهو يتفرس فى وجه السائل :

— حد يعرف ؟ ما يمكن يكون صباع عسكرى انجليزى من العساكر اللى
غرقوا فى البحر أيام الحرب . .

ووافق الموظف على كلام أبو حسن ، وقال المحامى :

— ما يمكن عسكرى فرنساوى . .

وقال المراسل وكأنه يفصل برأى قاطع فى الخلاف :

— مذبوط ، لأن فيه مراكب فرنساوى كثير غرقت عند دمياط وأنا شفت
الجثث بعينى . .

ورد أبو حسن وكأنه يريد أن يحسم النزاع :
— انجليزى ، فرنساوى كلهم ولاد كلب .
وعاد الصمت من جديد يسيطر على الجلسة ، والجوزة تدور . وأبو حسن
ينفخ فى النار ، وقطع الصمت المحامى الشاب ليسأل أبو حسن سؤالاً مفاجئاً :

— طيب وافرض ان الخاتم ده خاتم سليمان ، كنت تطلب ايه ؟
وقال أبو حسن على الفور :
— فكره برضنه . .

ثم صمت طويلاً وكأنه يفكر فى الأمر ، ثم رفع رأسه بعد فترة وحـدق
فى الجالسين يتفرس فيهم ، ثم قال للمحامى الشاب :
— طيب انت كنت تطلب ايه ؟

وابتسم الشاب لمهارة أبو حسن وقال وكأنه كان يتوقع السؤال :
— اطلب منه يعملنى احسن محامى فى مصر ، وأغنى محامى كمان ، ومصر
ترفع قضية فى محكمة العدل الدولية وارتفاع عنها وأكسب القضية ، وأبنى
عمارة على النيل ، ويبقى عندى مكتب فيه ألف محامى .
وهز أبو حسن رأسه وقال :

— حلوة دى . .

ونظر الى المراسل فاكتشف ان المراسل كان ينظر اليه متوقفاً توجيه
السؤال اليه ، وأسرع فأعفى أبو حسن من توجيه السؤال ، وأجاب على الفور .
— أنا اطلب اكون صاحب اكبر جرنال فى الاسماعيلية ، مش عاوز أروح
مصر ، ويبقى اسمى زى الطبل ، والكلام اللى اكتبه المحافظ يعمل بيه على طول
وأخليه يعمل م الاسماعيلية دى عروسه ، وجميع العالم يشتغل ، وتبقى الحالة
عال ، وكل سنة أخطف رجلى لحد أوربا أشم الهوا ، وايدى على ايدك يابو
حسن كل مشوار لازم تطلع معايا .

وكان واضحاً جداً بعد هذا ، ان الدور على الموظف . . ولكن لم يبد عليه
انه يهتم كثيراً بالحديث ، وأنه لا يخفل كثيراً بخاتم سليمان وكنوزه التى
يفتحها لمن يطلبها ، ولكن أبو حسن حدق فيه طويلاً قبل أن يسأله :

— طيب . . وانت ؟

وقال الرجل الطيب بعد فترة صمت :

— اطلب الستر . .

وعقب أبو حسن :

— ما فيش أحسن منه ..

ثم أضاف :

— لكن احنا عاوزين نعرف راح تطلب ايه .. ما هو كل الناس عاوزه
الستر ، انما ايه اللي انت عاوز تنفذه في مزاجك ؟

ورد الرجل في هدوء :

— ولا حاجة ، الستر ، برضه .

وساد الصمت من جديد ، وحدثت كل العيون في أبو حسن ، فقد جاء
دوره ، وأسرع المراسل فسأل أبو حسن :

— وانت يا عم ؟

ولزم أبو حسن الصمت فترة ثم قال :

— اطلب شيء واحد ..

وهتف الجميع :

— ايه ؟

— اطلب منه يخلينى ايزنهاور ..

وضحك الجميع عاليا .. حتى الموظف الوقور شاعت في سحنته السخرية
وهتف المراسل عابثا :

— حلوة دى !!

وقال أبو حسن :

— قوللى ليه ؟

وقال الجميع :

— ليه ؟

والقى أبو حسن بالمروحة جانبا ، واعتدل في جلسته وقال :

— أقولكم ليه ، بقى أنا أبقي ايزنهاور ، وعلى طول أذيع بيان أطلب فيه
مقابلة بولجانين في برمودا .

وقاطعه المحامى الشاب :

— واشمعنى برمودا ؟

— جوها حلو ، والناس الكبار بيتقابلوا هناك دائما ، المهم يقابلنى ...
مثن مهم فين ..

— طيب ، وبعد ما تقابله . .
— اتفق معاه واشوفه عاوز ايه ، عاوز يكسر القنابل الذرية اوافق ، نعيش
سوا سنوا اوافق ، مفيش استعمار اوافق . . كل دولة حرة تعمل اللي هيه
عاوزاه ، وكل واحد فينا يلتفت لبلده بس . .

— طيب . . وبعدين ؟
— وبعدين اطلع بيان اقول فيه ان قناة السويس تتبع مصر .
— طيب وهيه بريطانيا ترضى ؟
وقال أبو حسن باستنكار شديد :
— بريطانيا دي ايه ؟ . . ترضى كان بها ، ما ترضاش احط ايدي في ايدي
بولجانيين وأضربها بالقنابل والصواريخ ، وأمسحها من على وش الأرض . . .
نخلي البحر ياكلها .

وصمت أبو حسن قليلا قبل ان يقول متسائلا :
— ظبط . . والا مش ظبط ؟
وكانت الجلسة حليت تماما . . فهتفوا جميعا :
— ظبط !!
واستأنف أبو حسن حديثه ، وقد اطمأن تماما الى ان الاذان تترقب
سماعه :

— بعد كام يوم اطلع بيان تاني اقول فيه : فرنسا تطلع م الجزائر . .
— طيب ما طلعتش ؟
— اعمل فيها زي بريطانيا ، امسحها .

— وبيان تاني لاسرائيل . . تدخل جميع العرب اصحاب البلد ، وتنفذ
قرارات الامم المتحدة ، وهيه حرة . . تنفذ ع العين والراس ، تعصى يتميل
فيها اللي اتعمل مع بريطانيا وفرنسا . خلصنا المشاكل دي ، ننتبه بقى للحاجات
الثانية نشتغل بعقل . الصين دي بتاع الراجل كاي شيك نطردهام الامم
المتحدة ، وتخش الصين الثانية اللي كانت عامله المعرض في الجزيرة .
وهتف المراسل على الفور :

— دا كان معرض هایل قوی . .
— امال ، حاجه حلوة تمام . . دانا سافرت مخصوص . .
وامسك أبو حسن بطرف جلبابه وقال :

— الجلابية دى من هناك ، حرير اصيل معنى . .
وسكت أبو حسن ، وسكت الآخرون ، ودارت الجوزة ثم توقفت ، وسأل
أحدهم :

— وتفضل ايزنهاور على طول ؟
ورد أبو حسن :

— لا . . مانا جايلك . . بعد كده اطلب مقابلة بولجائين تانى ويحضرها
معانا كل الزعماء . . عبد الناصر يحضر ، نهرو يحضر تيتو يحضر ، الراجل
بتاع المانيا دا يحضر ، بتاع الصين يحضر سوكارنو يحضر ، سعود يحضر ،
القتلى يحضر . . نوري السعيد لا ، ولا بتاع تركيا كمان ، الناس الجدعان بس
وبتاع استراليا كمان ما يحضرش أبدا . . ونعمل مؤتمر : جيوش مافيش أبدا
طيارات بتاعة ركاب بس ، اسلحة ممنوعة ، وكل واحد يرجع لبلده ينفذ تمام .

— طيب وبعدين . .

— قتللى وبعدين ، بعد شويه آجى رافد دالاس ، وأعين بداله راجل
طيب ابن حلال . .

— وبعدين . .

— وبعدين ايه ؟! . . اطلب م الخاتم يرجعنى أبو حسن تانى .

ورأن الصمت على الجميع بعض الوقت ، قطعه المراسل متسائلا فى
اشفاق :

— طيب وانت استفتدت ايه ؟

ورد أبو حسن على الفور :

— استفتدت كثير . . اول حاجة ما فيش حرب ، الحال يمشى على طول ،
التجارة تمشى ، والبحر يمشى ، والجو يمشى ، والفلوس ترجع فى ايدين الناس
والجنه يبقى جنه زى زمان ، وكل شىء يرخص ، الجلابية دى بدل ما تبقى
بعشرة جنه تبقى بجنه واحد . . والجوز الجزمة من غير مؤاخذه يبقى بتلاتين
قرش ، وتعرف تشرب فنجال قهوة بن مطبوط مش نشارة خشب ، السجارة
تبقى سيجارة بحق وحقيق مش زى سيجارة النهارده ، والحشيش يبقى حاجة
فخمة صحيح تشربه تشبع مش يبقى سم زى حشيش اليومين دول . الشقة
اللى بخمستاشر جنه تبقى بتلاته والخير يبقى زى زمان وأكثر .

وبعد دا كله تسألنى استفتدت ايه ، طبعا استفتدت روقان البال . المزاج
والفخفة . طيب دانا على الطلاق بالتلاتة ايام الغارات ما شفت قعدة حلوة ،
طول الليل البندقية فى كتفى قاعد منتظر ولاد الكلب ، وبعدين ما حصلش نصيب .

والتفت ابو حسن للجوزة وللنار ، وسكت والراحة تهدد نفسه كأنه ادى
رسالة .. ولكن المحامى لم يتركه يستمتع بهدوئه فسأله فجأة :
— طيب وافرض يا ابو حسن الامريكان عرفوا انك مش ايزنهاور الحقيقى
ايه اللى يحصل ؟

وضربت لخمه مع ابو حسن ، فلنفرض ان هذا حدث فعلا فماذا تكون
النتيجة .. وهز ابو حسن ، رأسه طويلا قبل ان يجيب :
— ولا حاجة ، بعد ما يشوفوا اعمالى راح ينبسطوا ، عشان الناس هناك
عاوزين كده ، انت فكرك حد عاوز حرب ، دا الناس هناك برضه اصحاب
مزاجات وبيحبوا الدنيا ، مافيش غير شوية يهود ولاد كلب عندهم المال
وبيكسبوا م الحرب ، دانا قرئت انهم كسبوا مال قارون فى حرب كوريا . ودى
كانت حته حرب لا هنا ولا هناك .. انما الناس الغلبة اللى زى حالتنا عاوزين
يعيشوا بس ..

وعاد المراسل يسأل ابو حسن فى شىء من التحدى :
— طيب وافرض الحاجات دى كلها اتعملت ، نودى الخاتم فين ..
— ارميه فى البحر ..
وقبل ان يقاطعه احد ، استدرك قائلا :
— وعشان خاطرك انت اطلب تموين العمر كله ، حشيش اجدع صنف ،
وبعدين ارميه فى البحر ..
— واشمعى فى البحر يعنى .
— احسن حد من ولاد الكلب يلاقيه يلخبط الدنيا تانى ..

كان الليل .. قد انتصف .. وهدأت المدينة ونامت ، عندما نهض ابو حسن
بعد ان اكل البرتقال والكفاة فنفض جلبابه واعاد طربوشه فوق رأسه ، واستعد
للخروج .. ونهض الجميع وانهمك الموظف صاحب البيت فى كنس بقايا الدخان
والفحم واكياس البرتقال وورق الكفاة .. وبعد ان انتهى صافح ابو حسن فى
حرارة على الليلة الجميلة ، وعلى الصنف الجيد ، وعلى الحديث الممتع
الظريف .

وانتهز المحامى الفرصة ، فعلق على حديث الموظف قائلا :
— فعلا . . ليلة جميلة قوى حد عارف ايه اللي راح يحصل بكره ؟
وابتسم ابو حسن فى هدوء وقال :

— ولا راح يحصل حاجة ، ان كانوا ناس عاقلين صحيح راح يحصل زى
ما قلنا ، وان كانوا مجانين بقى يحصل زى مايحصل ، احنا مش راح نخسر
حاجة ، همه ح يخسروا قبلنا .

وتقدم ابو حسن صاحبيه نحو الخارج ، وقبل ان يصل الى الباب الخارجى
التفت الى الثلاثة ، وقال مستدركا :

— نسيت حاجة ؟

وهتف الثلاثة . .

— ايه ؟!

— اطلب م الخاتم يمسح البلدية والضرايب . .

وارتفعت ضحكات الجميع ، وهم يتوغلون فى الشارع ويمضون فى الظلام .

شيخ الخفراء



كانت الليلة مظلمة وكثيية ، وكانت العاصفة تزار في الخارج والمطر ينهمر غزيرا . . وكانت نقطة البوليس التي تحتويتنا تشهد يوما تاريخيا في حياتها الطويلة . . ففي الفناء الخارجى كان يصطف اكثر من مائة خفير مسلح ببنادق عتيقة استخدم بعضها في الحرب العالمية الاولى ولم يكن من بين هؤلاء الخفراء من يبدو عليه الشباب والحماس ، كان اكثرهم يقطع بخطوات حثيثة نهاية العقد الخامس وكان يبدو عليهم جميعا انهم يؤدون واجبا ثقيلًا .

وكان المأمور يجلس أمامي يغالب النعاس بالدعك في عينيه دائما . ومفتش البوليس يناقش مندوب الوزارة الذى حضر خصيصا من العاصمة ليشرف على الحملة . . في فوائد الارانب ورغم أن المفتش استخدم كل براعته في التمثيل وكل مواهبه الاخرى في اقناع مندوب الوزارة الذى كان يبدو رغم لباسه المـدنى اعلى رتبة من المفتش ، بأن لحم الارانب يطيل العمر الى مائة عام . . الا انه لم يبد عليه الاقتناع أبدا . وظل متشبثا برأيه وهو أن لحم الارانب مفيد ولكنه لا يطيل العمر أبدا .

وكان المفتش يسوق الحجج والبراهين وهى كلها قاطعة ومائعة وكان يعانى جهدا شديدا وهو يحكى ، جعل العرق يتصبب من جبهته رغم البرودة الشديدة . فقد كان المفتش حريصا على انتقاء الفاظ معينة لحديثه مع الضابط الكبير وكان أشد حرصا على استعراض بلاغته أمامه .

فكان يعتمد الحديث بالفصحى في أغلب الاحيان .

— تعرف سعادتك . . لحم الارانب ليس الا . .

وكان عندما تروق له عبارة مثل « ليس الا » يظل يكررها اكثر من مرة وهو سعيد بها غاية السعادة .

— ليس الا . . دواء للأمراض .

وكان الضابط الكبير يرد عليه بالفاظ بسيطة وعادية ، ولم يكن يبدو عليه
اي اهتمام بشأن محدثه ، وكانت معارضته تبدو معارضة لشخص المتحدث أكثر
منها معارضة لرايه .

— يا راجل حرام عليك . . دواء ايه ؟

— زى ما بقول لسعادتك طيب ايه رايك جدى عاش مائة عام وكان يأكل
لحم الارانب حنى وافاه الاجل المحتوم . . نعم الاجل المحتوم .

— مالهش دعوة الارانب دا عمره ، ولكل أجل كتاب .

وبدا على المفتش الغم الشديد . . لا لان الضابط الكبير لم يقتنع ولكن لانه
استشهد كلمة بليغة . . كان الاخرى به ان يستشهد هو بها ، ولكنه سرعان
ما اسر . مكانته ، وقال فى جهد شديد .

— نعم . . نعم لكل أجل كتاب دا صحيح وانما . . برضه . . وجعلنا
لكل شىء سببا . . ولحم الارانب هنا هو السبب فى انه عاش مائة عام .

كانت أصواتهم مسموعة اول الامر ، ولكنها ما لبثت ان تلاشت حين
تصاعدت الضجة من الخارج من فناء النقطة .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وكان امامنا ساعة
اخرى لنبدأ رحلتنا صوب الجبل الغربى لمطاردة عصابة « الخط » التى ذاعت
انبأؤها وشاعت واصبح لها سلطان فى الصعيد كله يفوق سلطان القانون .

وكنت أتعجل الزمن لنبدأ رحلتنا صوب الجبل ولتتاح لى اول تجربة من
نوعها فى حياتى . فخلال عملى الصحفى لم يعهد الى بعمل من هذا النوع على
الاطلاق . وهامى الظروف تهيب لى فرصة ثمينة لآكون اول انسان يعلن على
الناس نبأ هزيمة العصابة واستسلامها .

وكانت مناقشة المفتش ومندوب الوزارة قد أنتهت لا ادرى عند اى حـد
عندما غادرت مقعدى فى الداخل وخرجت الى الفناء لالقى نظرة على الخفراء
الذين اختارهم مندوب الوزارة بنفسه ليكونوا افرادا فى فرقة الخلاص .

كان الخفراء يتفنون تحت المطر وسط العاصفة . . ملابسهم قديمة وبعضها

ممزق . وأحذيتهم مثقوبة ووجوههم جامدة قاسية يرسم عليها سخط هائل . .
وشيوخ الخفراء وحده كان يبدو عليه النشاط والحماس يلقي اليهم بتعليماته ، ثم
يسرع الى الداخل يهمس في اذن المأمور بكلمة وينحنى للمفتش ويضرب نعظيم
سلام لمندوب الوزارة ويرن جرس التليفون فيرد عليه ويصيح مبتهجا ، المديرية
. . ويجرى شيخ الخفراء الى الفناء يختبر الاسلحة بنفسه ويلقى نذرة على
الساعة ثم يدور حول الخفراء ويهمس في اذن البعض منهم ويشخط في وجه
البعض . . زعق بصوت رهيب فتحرك الخفراء الى الخارج وخرج الضباط
الثلاثة الكبار يتقدمهم مندوب الوزارة فالمفتش فالمأمور ووقفوا يستعرضون
الخفراء وهم في طريقهم الى الامام ولم تمض لحظات حتى تحرك طابور الخفراء
صوب الجبل الغربى .

كان رفيقى في الرحلة الغربية فقيرا عجوزا في الخامسة والخمسين من عمره
وكان قد قضي حياته في تلك المنطقة الرهيبة وشهد معارك طاحنة بين اللصوص
ورجال الحكومة . وكان يعرف مسالك الجبل والطرق المؤدية اليه معرفة خبير
وكان يتحدث عن رجال العصابات وكأنه يعرفهم .

وكان شيخ الخفراء سمينا بعض الشيء أحمر الوجه منتفخ الاوداج
ذا شارب أصفر منقوش وكان فيما يبدو معتدا بقوته البدنية فخورا بتركيبه
الجسماني وقد حرص عندما عرف أنني صحفي ان يذكر لى اسمه كاملا :

— زكريا حسن سليمان . . بس اوعى نثنانى لما نكتب .

وعندما أخبرته أنني سأبذل غاية جهدي لابرار الدور الذي سيقوم به .
سألنى في هدوء :

— دى أول مرة تطلع فى كبسة ؟

ولما أجبته بالايجاب قال وهو يضحك :

— بس اوعى تخاف خلى قلبك جامد .

كنا قد تركنا القرى وخرجنا الى الخلاء وكان لايزال امامنا خمسة كيلومترات
لنصل الى الجبل وعن طريق المسالك الضيقة القذرة كان امامنا أكثر من ساعة
لنصل الى هناك . وفجأة وقف شيخ الخفراء يلقي بتعليماته وشرح للخفراء
الخطوة ثم وزع القوة الى قافلتين واحدة تتجه نحو الشمال والاخرى الى اليمين
وكنيت من نصيب القافلة الاولى فانحرفنا ناحية الشمال في طريق يبدو وكأنه
كان يوما ما مجرى نهر جفت المياه فيه ولما كانت الاوامر تمنع استخدام أية أنوار

أثناء زحفنا نحو الجبل فقد راح الخفير العجوز يلمس طريقه في الظلام وهو يلعن كل شيء وسرحت أنا في هؤلاء الناس الذين يسكنون الجبل والسلاح بين أيديهم ، وأصابهم على الزناد ، وعيونهم على الطريق يطلقون النار على كل حركة وعند ذلك إشارة ويعيش الواحد منهم وليس له مقر ويموت ولا تعرف له قبرا .

وانتزعتني من افكارى شيخ الخفراء ، اذ وكزنى بشدة في جنبى ، وقال لى وهو يغمز بعينيهِ :

— انت خايف والا ايه ؟

ولما أجبته بالنفى قال فى غير مبالاة :

— دى عصابة ورق انا قلت للمأمور آخذ ألف جنيه وأجبلك الخط نفسه مربوط فى الحبلى مارضيشى .

اثارنى حديثه . . فسأله مندهشا :

— وتقدر صحیح تجيبه فى حبل .

— الا أجيبه دنا معروف فى كل حته أسأل أى واحد : تعرف زكريا ؟ شوف يقولك ايه !

وبدا وهو يتكلم كأنه يقرر واقعا لا سبيل الى انكاره . . وكان حين يتحدث يهز كتفيه ويفرك شاربه الكث بأصابعه ويكح فى تحد وثقة وينفخ صدره العريض وهو يربت فوقه براحه يده واشعل زكريا سيجارة جذب منها نفسا عميقا ثم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق شديد :

— تعرف أنا أنفع فى حاجة واحدة بس . .

وسكت زكريا قليلا وجذب نفسا آخر أشد عمقا وقال وهو ينفث الدخان هذه المرة فى حلقات .

— أنا تسيبنى فى الجبل دا وتقوللى روح !

— طيب وتعمل ايه فى الجبل ؟

وقال فى استنكار بالغ :

— اعمل ايه . . مادام معايا المدفع بتاعى يبقى كل يوم أسلمك عصابة .

قال ذلك ثم خبط بيده عدة مرات على المدفع الذى كان يتأرجح فوق صدره ثم قال فى صوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

— مادام معاك مدفعك ما فيش أى حاجة تقف قدامك . .

ثم نفخ في ضيق وفي أسي وبدالى وكأنه أسد كاسر محبوس في قفص من حديد وخيل الى وأنا ارقب اسارير وجهه ان الفرصة قد سنجت له مرة أخرى لينطلق في الجبل ومادام معه مدفعه .. فلن يقف شيء أمامه .. ولا أدري لماذا خطر لي أن أسأله سؤالاً ساذجاً أغضبه للغاية وجعله يزمجر من الامانة التي الحقها به :

— وطلعت الجبل قبل كده ؟

— أمال احنا بنحكى في ايه من الصبح ؟ انا قضيت عمري كله هناك . دى معلومات لازم تكتبها .. انا كنت اطلع الجبل دا في القمر . حاكم انا ماطلعش غير في القمر بس .. المامور عارف كده والوزارة عارفة كده .. واطلع انا ، المدفع على كتفى وبس شيببت المجرمين في الجبل ..

— وقتلت كثير منهم .

— ياما انا ايام كهت الاقى في سكتى خمس جثث تعرف بقى كنت أبعد عنها وأنزل م الجبل .

— وتبعد عنها ليه ؟

— انا مذهبي كده ما دام مات يبقى الف رحمة .. وتعرف ايه السبب كان مزاجي أمسكهم ع الحيا ونهار ماكنت أمسك واحد كان يبقى يوم عيد .. — ومسكت كثير يازكريا ..

— أسأل عنى بلاش اقولك انا احسن تقول كداب ، طيب تعرف ؟ انسا مرة مسكت واد اسمه جابر ، لاتقوللى الخط ولا الفقى ، وكان واحد مجرم بصحيح ، كان مشيب المنطقة دى كلها . في يوم وكان القمر بدر وخذت مدفعى وطلعت الجبل تعرف ايه اللى حصل ؟

دخلت عليه المفارة . ضرب اكثر من عشرين طلقة بثيت اقوم وانبطح على وشى .. حاكم ذا فن .. كمان تنه يضرب لما المدفع بقاعه قرغ .. وعنهما حلقتله شنبيه واخذته ونزلت .

— وحلقتله ازاي ؟

— شديت الشعر بايدى ..

كان الخفير المعجوز يختلس بين كل حين وآخر نظرة الى شيخ الخفراء وكانت نظراته تحمل معانى كثيرة لم أستطع تحديدها وكنت اخن أحيانا أنها

نظرة اعجاب واكبار لان زكريا كان احيانا يستشهد بالشاويش في وقائع كثيرة فكان يهز راسه دائما موافقا على كل ما يقول .

كان الظلام حالكا للغاية والرياح تعصف بشدة لاتزال ، والمطر حول المنطقة كلها وقد حولها الى بركة من الطين ، والخفير العجوز يبصق على الخط ويلعن الايام وهو يحاول جاهدا ان يخرج من الحفرة التي وقع فيها .

ووقفنا جميعا في العراء . . شيخ الخفراء والخمسة عشر خفيرا الذين كانوا يرتعدون من شدة البرد . . وبدأ زكريا يباشر سلطاته منذ تلك اللحظة . . فقد كان من البديهي انه وحده هو المسئول عن كل هؤلاء الناس الذين يلتفون حوله . .

وراح يتلفت هنا وهناك بعض الوقت قبل ان يسأل الخفير العجوز عن المكان الذي توجد فيه العصاة بالتحديد . . واجاب الخفير على الفور وكأنه بقرأ من كتاب مفتوح . . وبعثت اجابته موجة من الذعر في صفوف الخفراء . . فهم يعلمون بتجربتهم الطويلة ان الخطر يحيط بهم من كل جانب ماداموا على بعد يسير من دير الملاك ، واقترب الخفراء بعضهم من البعض في حلقة ضيقة ووجوههم جميعا نحو الغرب وبنادقهم مشرعة في ايديهم وكأنهم على اسباب معركة ساخنة لا تنتظر الا امرا من زكريا وموجئت وانا انظر نحو الغرب مثلهم بشيء غريب ، شيء رهيب كالتبر ، يبدو في الظلام تحدده ظلمة اكثف من الظلمة التي تلف الكون وهبست في اذن احدهم اسأله عن هذا الشيء . . فاجاب بصوت خافت مرتعش .

— دا الدبل « الجبل » .

كانت المسافة التي تفصل بيننا وبين الجبل لا تزيد على الف متر ، وكان معنى ذلك ببساطة ان طلقة ولو غير مقصودة يطلقها هارب فوق القمة لابد وان تقتل احدا في الحال . . وقطع الصمت الذي يحيط بنا لغط الخفراء . . كل منهم يحاول ان يقترح شيئا لحل الموقف . . كانوا جميعا يتحدثون الا زكريا كان يقف صامتا ، والمدفع في كتفه وعيناه الواسعتان نصف مغلقتين كأنه يحلم . . وكان بين الحين والحين يدس اصبعه في فمه يقرض اظفاره في عصبية وقلق تستدعيهما مسئوليته الكبرى كقائد عظيم .

واخيرا سكث اللفظ وارتفع صوت الخفير العجوز يقترح ان نظل في اماكننا حتى نعثر على زملائنا الآخرين ، او ننسحب في هدوء نحو الشرق بعيدا عن الجبل

الغربي .. ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من زكريا وارتفع صوته لأول مرة يأمر الجميع بالتزام الصمت وانحنى على اذنى يهمس فيها ويده الغليظة تلتف حول كتفى :

— ايه رايك بقى ، انا راح اكبس على العصاية وامسكهم زى النسوان .. ولما لم يرتفع صوتى بشيء ما .. قال على الفور .
— بس تكتب بقى آه ، أهو دا وقتك بقى ، زكريا الرهيب فى الجبل . ولا أى حاجة ، بقى ، عاوزك تعمل موضوع كده يفتح النفس تعرف بعد كده الواحد يمسك العمودية على طول .

وتركنى وتقدم الجميع بعد أن امرهم بالتحرك فى اتجاه الجبل وامتشسل الخفراء للامر ولكن صوت الخفير العجوز عاد يرتفع من جديد محذرا فى شيء من الغلظة .
وأضاف :

نروح فين دلوقت فى الجبل واحنا فى الارض دول لو ضربونا بالطوب يغلبونا ، دا ليلة ايه المهيبة دى .

ولكن زكريا كان يتقدم الخفير العجوز بهسافة لم تسمح له بأن يسمع حرفا واحدا مما قال وبدأ الصمت يخيم من جديد على الصف الطويل من الرجال الذين راخوا يزحفون بحذر شديد نحو سفح الجبل .. وفجأة توقف زكريا واستدار نحوهم وامرهم بالانتشار على شكل حدوة وهتف مسرورا بعد ذلك كأنه طفل صغير .

— أيوه .. حدوة دا تكتيك محسوبك زكريا تعرف ، لما يكون خمسين مجرم زى الخط .. لازم يسلموا ..

وعندما أصبحت الحدوة على أحسن ما تكون ارتفع صوته من جديد يأمرهم بالتقدم ولكنه بقى هو فى مكانه لم يتزحزح شبرا وجذبنى من يدى لاكون الى جانبه وظل الخفير العجوز خلفنا فلم يكن مسلحا بشيء الا بعصا صغيرة .
وانتفخ زكريا كأنه روميل فى الصحراء ، والتفت الى مزهوا كأنه ديك رومى سمين وقال :

— زكريا الرهيب فى الجبل ، ايه رايك فى العنوان ده ؟
ولم ينتظر حتى يسمع منى جوابا ، ويبدو أنه لم يكن ينتظر هذا الجواب ..
فواصل حديثه على الفور :

— لو أمسك الخط تفتكر يعملو لى ايه ؟ ياسلام ذا الواحد كان يبقى أشهر واحد فى مصر ، ايه رايك البركة فيك انت .

وعندما انتهى من حديثه كان الخفراء قد أصبحوا على مسافة بعيدة ولم يعد من السهل الاتصال بهم عن طريق الكلام وجاء صوب زكريا مدفعه نحو الجبل وشد على الزناد . . وانطلقت الرصاصات تعربد فى الفضاء وصداها الرهيب يجلجل فى انحاء الجبل واستدار نحوى فى كبرياء ملحوظة وقال فى غير مبالاة :

الهجوم بدأ . . تقدر تكتب بقعة !!

ولم يكذ زكريا ينتهى من عبارته هذه حتى ضج الفضاء حولنا بالآلاف الرصاصات ونظر زكريا نحو الجبل وقد اتسعت عيناه أكثر وتفضنت جبهته ثم لم يلبث أن عاد إليه الهدوء وقال فى سرور بالغ .

— ذا العيال بتوعنا . .

ثم التفت نحوى وقال :

— تقدر تكتب تقول . . وكائنات الطلقات تشق كبد الجبل الغربى ايسه رايك فى اسلوبى بقى انا كنت غاوى الكتابة على فكرة وتعرف لو كتبت . . مين عارف ؟

وعندما حمى وطيس المعركة عن ذى قبل استدار مرة أخرى نحو الجبل ثم نظر الى الخفير المعجوز الذى كان هو الآخر منهمكا فى تبين حقيقة الامر وبدا أنه لم يعد يفهم شيئا مما يحيط به وأنه يعلق أهمية كبرى على ما سوف ينطق به الخفير المعجوز .

وتكلم الخفير اخيرا وقال فى هدوء بالغ :

— دا مش رصاصنا دا رصاص مدافع . . العيال بتوعنا ماسكين بنادق .

وهتف زكريا فى ارتباك شديد :

— مدافع . . مدافع . . انت متأكد ؟ أمال ايه ؟ نعمل ايه طيب ننسحب

ننسحب .

وارتفع صوته عاليا رهيبا :

— ارجع ورا يا غفير . . ارجع ورا . .

ولكن صوته رغم ضخامته تلاشى فى الفضاء وعندما ارتفعت صرخة من

مكان ليس بعيدا عنا هتف فى وجه الخفير وفى وجهى . .

— ننسحب احنا ..

ولم ينتظر حتى يسمع رأينا في هذا الامر بل أسرع بالانسحاب وراح الخفير يلهث وهو يجرى خلفه وانطلقت انا الآخر اعدو بأقصى قسوة .. واختلطت اصوات الطلقات بصراخ الجنود بأصوات أعواد الذرة الصيفي الجافة وهي تتكسر تحت أقدام الجميع ورسم الظلام والليل والخوف لوحة رهيبة لجو المعركة ، وكان الفزع قد استبد بنا .. وكان واضحا للغاية أن شيخ الخفراء هو أكثر الجميع فزعا وكان منظره وهو يجاهد ليعدو بأقصى سرعة يدعو الى الرثاء والى الضحك معا .. ورغم ضخامته فقد كان يبدو وهو يجرى كأنه عصفور مذعور فاجأه صياد قاس لا يرحم .. وعندما اكتشف ان المدفع الرشاش الذي يجمله على كتفه يعوقه عن السرعة المطلوبة . القى بالمدفع على الارض أمامه ولكنه — لسوء الحظ — داس على الزناد وهو يجرى فانطلقت رصاصة الى أعلى أصابته في كتفه فسقط على الارض مخرجاً بالدماء .

كان انينه مزعجا ورهيبا وقاسيا للغاية ولكنه لم يلبث ان انكفأ على وجهه بلا حراك . وانبطحت على وجهي فوق الارض الى جانبه اتحسبته بيدي .. وكان الخفير قد لحق بنا فجلس على الارض عند رأسه يلعن كل شيء ويـدده تتحسس جبهة الملقى على الارض والخفراء الذين كانوا خلفنا بداوا يندون الى المكان الذي وقع زكريا فيه واخذوا يلتفون حولنا صامتين لا يجرؤ احد منهم على أن يشعل عود ثقاب واحد .. حتى لا يصبح هدفا لرصاص المجرمين الذي كان حتى هذه اللحظة يعوى حولنا في كل اتجاه .

كان من المحتمل ان شيخ الخفراء قد مات فقد كان نبضه خافتا للغاية وثمة دم يسيل من كتفه ساخنا حارا وفمه ينفث احيانا بشهقات سريعة متلاحقة وثمة خفير صغير كان يقف عند اقدام زكريا ينتحب في حرقة بالغة وفي تأثر صادق وسيل الرصاص المنهمر قد توقف والليل اخذ يسحب ذيوله خلف الجبل وطيور الصباح الصغيرة راحت تقطع الفضاء فوق رؤوسنا في اتجاه الحقول الدافئة ، وبدأ وجه زكريا على ضوء النهار الشاحب اصفر باهتا كالنهار نفسه وحملت الينا الريح صوت العربات الضخمة التي كانت لا بد تبحث عنا خلال الظلام وصرخ الخفير الشاب الذي كان يقف منتحيا منذ لحظة مستنجدا ولم تمض لحظات حتى وصلت العربات الضخمة ، ونزل المأمور أولا نائما يغالب النعاس

وتبعه مندوب الوزارة ومفتش البوليس وانحنى المأمور يفحص شيخ الخفراء ثم رفع أصابعه المملوطة بالدم وتمتم في انشراح .

— الحمد لله . . بسيطة . .

كانت الاصابة فعلا بسيطة اخترقت الرصاصة لحم الكتف ولكنها لم تصب العظام بسوء . . وانتزع احد الخفراء منديله المحلوى الكبير من فوق راسه ولفه حول الجرح الذى كان لا يزال ينزف دما .

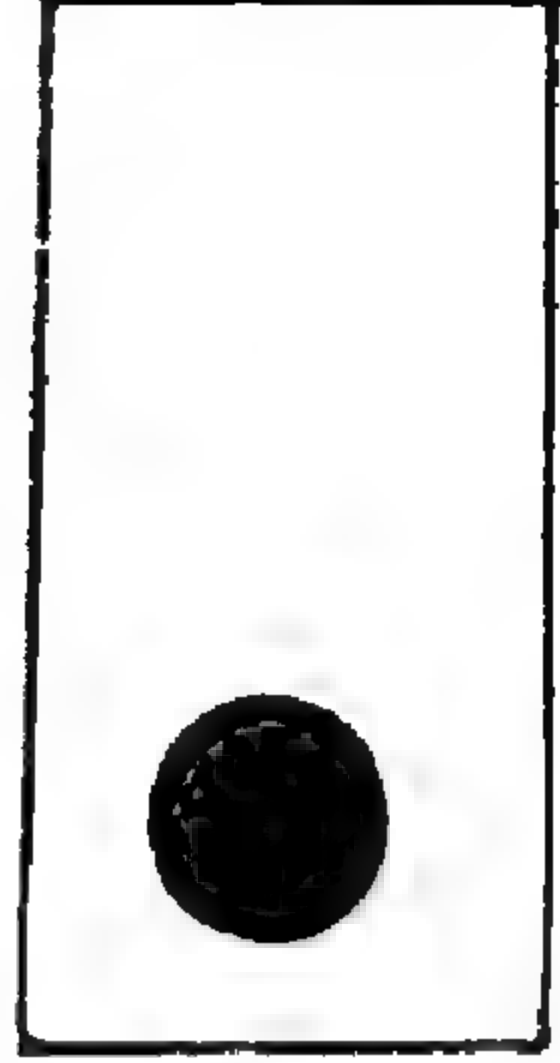
وانطلقت عربة سريعة نحو المدينة لتحضر طبيبا على عجل ووقف مفتش البوليس بجوار شيخ الخفراء وجلس مندوب الوزارة على رفرف عربة وانتشر الخفراء حولهما في كل مكان .

وهز المفتش راسه في عصبية بالغة وقال لمندوب الوزارة :

— ستعرف أن هذا صحيح عندما تجرب لحم الارانب ، كل ارانب وسترى !

ولم يرد مندوب الوزارة . . كان يتثائب في خمول ويرعش ساقيه في عصبية بالغة . . وشيخ الخفراء الجريح يتمدد فوق بطانية الى جانب التربة . والجبل الغربى يبدو خلفنا كقبر رهيب شيدته أجيال وعصور متعاقبة والخفير العجوز يشعل سيجارة ويصق فوق الارض ويلعن كل شىء ثم ينظر الى شيخ الخفراء ويمصص شفتيه فى أسى . . .

المأمور



سيحضر المأمور الليلة وسيكون كل شيء على مايرام .
وحضور البية المأمور بنفسه الى قهوة الاشراف لزيارة
المعلم غزال ليست بالشيء القليل ، ولكنه حدث له قيمة
وسيكون له شأن في مستقبل الايام . فالبية المأمور لا ينتقل
بسهولة الى اى انسان وهو فى دائرة عمله لا ينتقل الى
مخلوق ، بل انه يتمتع بنفوذ الملوك . وهو يستطيع ان يقول
للشيء - اى شيء - جماد . حيوان . بنى آدم . . . كن
فيكون !

ولقد تعرف المعلم غزال على البية المأمور فى السجن . عندما كان
المعلم غزال سجيناً ، وكان البية المأمور هو الحاكم العام خلف الاسوار . وفى
اول لقاء بين المأمور والمعلم غزال احتد المأمور على المعلم فأهـانـه ،
وتكررت الاهـانـات بعد ذلك حتى بلغت الضرب . وكان قاسياً فاذا
اعتدى بالضرب على أحد تحول الى وحش مفترس ، وكان أحياناً ينسى نفسه
فيطبق بأصابعه على عنق السجين حتى يشرف على الموت وعندئذ يخلصه من
المصير البشع ضباط السجن وعساكره . وبدأ من كثرة ترده على زنزانة
المعلم غزال انه يتعقبه ويتعمد اهانتة . لذلك عمد المعلم غزال الى احناء رأسه
أمام عاصفة المأمور حتى تمر ، كف عن الاستفزاز حتى ينجو بنفسه من
شر عظيم . ودرب نفسه على منافقة العساكر والضباط والمسجونين حتى لا يعطى
الفرصة للمأمور للتنكيل به . ونجحت خطة المعلم غزال ، وابتعد المأمور عنه

شيئا فشيئا حتى نسيه تماما وأصبح المعلم غزال مجرد سجين عادى لا شأن له بالادارة ولا بالأمور .

وكان المعلم غزال وسيما ورقيقا وابن بلد مجدع حقيقى ، التف حوله السجناء ، فرحين بهذا النموذج النادر الذى يندر وجوده فى مثل هذا المكان .
فى السجن حيث يتقاتل الرجال من أجل قطعه جبن ملوثة بالتراب ، وحيث يفقد الرجل عينه من أجل عقب سيجارة ، وحيث الحياة كثيبة وفى أقصى درجات الانحطاط . فى جو مثل هذا تصبح للأشياء التافهة قيمة عظيمة . ويصبح الورق الملون وعلب الصفيح الفارغة والمزق المهلهلة من الثياب ، وبقايا علب السجائر الفاخرة الطباعة من مقتنيات الشخص يحرص عليها أكثر من نفسه ويموت فى سبيلها كأنها الأرض والعرض والأولاد .

ولكن المعلم غزال لم يسمح لجو السجن أن يأكله ، كان كريما . ما يملكه ليس له . نقوده يوزعها على الجميع ، وعلبة سجائره مفتوحة دائما ، والمأكولات ، التى تصله من الخارج لا يذوقها فى أغلب الأحيان ولكنها للاحبة والصحاب فى عنبره وفى كل العنابر . وأصبح المعلم غزال زعيما فى السجن رغم أنه لم يدخل السجن من قبل ، كلمته على المسجونين أوامر ، وشفاعته لديهم حكم ، والسجان إذا أراد أن ينفذ أمرا استعان بالمعلم غزال . وأصبح المعلم غزال حبيب كل مسجون ، حتى الذين يخرجون أفراجا الى دنيا الحرية ، كان المعلم غزال يزودهم بالنقود وأحيانا يعينهم فى أشغال يحصلون منها على لقمة العيش .

ولكن لم تكد تمر شهور على هذا السلام الذى ينعم به المعلم غزال . حتى أوقع نفسه فى شر أعماله . وصلتته هدية من أحد أصدقائه فى الخارج عشرة أقفاص خوخ معتبر ليس مثله فى الاسواق ، فتروك خمسة أقفاص للمساجين ، وأرسل خمسة أقفاص للبيه الأمور . وسرعان ما استدعاه الأمور الى المكتب ، وكانت طريقة الاستدعاء تنبئ عن كيفية الاستقبال . فقد جاء عسكري غليظ الى الزنزانة وجر المعلم غزال من قفاه الى مكتب البيه الأمور . وعلى الباب كانت جريمته تنتظره . أقفاص الخوخ مرصوفة بعضها فوق بعض لم تمس ، وعسكري الأمور واقف عند الباب مهتدم وفى حالة انتباه . وانتظر المعلم غزال عند الباب ساعات حتى فرغ البيه الأمور من مشاغله ، وعندما سمحوا له بالدخول ، كان الأمور مجعوصا فى الكرسى الدوار وعصاه تنام أمامه فسوق المكتب وعيناه تقدحان شررا وملامحه كلها تنذر بالشر .

وقال المأمور وعيناه مثبتتان على وجه المعلم غزال :

— ايه الخوخ ده يامسجون ؟

وتصرف المعلم غزال بلباقة فقال وعيناه تنتقلان بين المكتب والجدار .

— هدية ياسعادة البية ، وزعت نصفها على عنبر ٩ وارسلت نصفها لِسعادة البية المأمور ليوزعها بمعرفته على بقية العنابر ٠٠ وكل سنة وسيادتك طيب .

وقال المأمور بعد أن اعتدل في جلسته :

— يعنى باعتها للمساجين ؟

— نعم .

قالها بسرعة وبهدوء كأنما الرد لا يحتمل التأويل ولا يقبل أى تفسير آخر .

وقال المأمور وهو ينهض من مكانه ليقترّب من المعلم غزال :

— أنا افكرت حاجة تانية يعنى ٠٠٠

— حاجة تانية ايه ياسعادة البية ٠٠ استغفر الله .

ومد المأمور يده فتناول عصاه . ولوح في وجه المعلم غزال ، يأمره بالانصراف وجرى المعلم غزال وهو يحمد الله الذى نجاه من براثن المأمور ، فقد كان المطب الذى وقع فيه فرصة المأمور لتمزيق لحم وجهه لو اراد !

بات السجن وسكانه فى شدة السرور للرزق الذى هبط عليهم من حيث لا يعلمون . وأصبح المعلم غزال أشهر مسجون بسبب هدية الخوخ التى وزعها البية المأمور بنفسه حتى يتأكد من ان المساواة قد تحققت والعدل يأخذ مجراه . ولم تمض أيام حتى استدعى البية المأمور المعلم غزال واستقبله بابتسامة عريضة وسمح له بالجلوس وقدم له سيجارة وطلب له واحد شاى فى كوب زجاج من نفس النوع الذى يشرب فيه البية المأمور .

وسأله عن صنعته وعن تهمته فأجاب المعلم غزال اجابات سريعة بأنه من ذوى الاملاك فى الخيزة وصاحب قهوة الاشراف ويحتكم على عدة ألوف من الجنيهات وأربع سيارات تاكسى وانه ألفى ومبسوط والحمد لله . ودرّش المأمور مع المعلم غزال ، وكانت لهجته حلوة وضحكته صافية وقلبه أبيض كاللبن الحليب . ولأول مرة يعرف المعلم غزال ان البية المأمور اسمه راشد وانه قضى فى السجن أربعين عاما طويلة ، وانه بدأ حياته من تحت السلاح ووصل

الى آخر ما يمكن لرجل مثله أن يصل اليه ، وانه رجل دوغري وصل الى مكانه
العالي بالصبر والمشي على الصراط المستقيم .

وتكررت المقابلات بين البية المأمور والمعلم غزال وتوطدت الصلات بينهما
اكثر . واحيانا كثيرة كان البية المأمور يسمح للمعلم غزال بالجلوس معه حتى
بعد التمام . وكان يتباحث معه اكثر فيوصي العسكري أن يترك بابه مفتوحا
طول الليل . وتحول السجن الى جنينة وأصبح المعلم غزال مأمور مساعدا
للسجن ، وأصبحت سهراته وقعداته مع المأمور حديث كل المسجونين ، ولأن
المأمور القاسي المتجهم الذي لا يرحم أمه ، والذي كان يحكى ذكرياته للمعلم
غزال في زهو شديد ، وهو يشرح بالتفاصيل كيف كتم على أنفاس السجنين
مقتله ، وكيف القى بآخر من آخر دور ، وكيف ضرب بالكرباج ولد قاتل شديد
البأس حتى قضى عليه . ولكن هذه الحوادث كانت أيام الشباب وكان البية
المأمور لا يزال شائشا بعد ، قويا كالثور ، شديد البأس كعنتسرة ، وكان
لا يستنزه الا القتلة والعيال المجدع فتوات زمان .

— تعرف أنا في يوم كنت في سجن مصر ، الكلام ده كان قبل الحرب ، سنة
٣٥ يمكن ، وكان البية المأمور انجليزى ، وجه السجن واد فتوة ضرب واحد
بالروسية قتله . كان واد زى الحديد ، كانت بزازة طالعة من صدره زى بنت
١٤ كان يمشى في السجن زى ما يكون فيل ماشى . . وكان في السجن واد
عسكري زى الحيطه كان كل السجن بيخاف منه . لكن الواد الفتوة ده خلاه
مسخة في السجن . ضربه بظهر ايده على صدره خلاه طرش الدم . . تعرف
عملت ايه ؟ .

وكان المأمور يسكت عند هذا الحد من القصة . . ثم يزوم كأنه ذئب ،
ويهز رأسه هزات متتابعة رتيبة ويقول في صوت خفيض :
— الغرض . . أيام . .

كان المأمور مفتونا بقوته ، شديد الاعجاب ببنيانه المتين . والحق أنه
كان رجلا من طراز غريب ، كانت عظام ذراعه عريضة كأنها جريدة نخل . .
وصدره اعرض من المكتب الذي يجلس عليه ، وشاربه مفتول بقوة كأنه
جناح صقر وسمانة رجله منفوخة كأنها كرة قدم . وصوته يجلجل كأنه زئير
اسد . وكان اذا سأل احدا من معاونيه لايتوقع جوابا ، كان يسأل ويجيب
في الوقت نفسه ، وكانت أسئلته أوامر ، وأجوبته أوامر ، وإشارات وإيماءاته

كلها قوانين ومراسيم . وكان المعلم غزال اذا جلس معه لا يعلق ولا يجيب ، كان يكتفى بالابتسام ويهز راسه بين الحين والحين . .

والحق أن المعلم غزال أحب البية المأمور حبا لا مزيد عليه . نحن مخطئون لاتنا نحكم على الناس من الظاهر ، ولو أننا تمهلنا في اصدار الاحكام على الناس وغصنا في أعماقهم لتبين لنا العكس . وهامو البية المأمور خير شاهد على صدق نظرية المعلم غزال . لقد كرهه في البداية ، وصدق ما يقال عنه في الزنازين ، وآمن بكلام المساجين بلا روية ، وانتقاد في الطريق الخاطيء بلا وعى . هؤلاء المساجين قطعاً غشاشين . ولو لم يكونوا كذلك لما كانوا هنا في السجن . . والبيه المأمور معذور عندما يقسو . الناس هنا يستحقون القسوة بعضهم مجرم حتى النخاع ، وحتى الطيبين منهم يتحولون داخل السجن الى ذئاب . ولولا عصا المأمور وقسوته لانتقلب الامر هنا الى فوضى ، ولأصبح السجن غابة من الذئاب والفهود .

في الشهور التي شهدت الصداقة المتينة بين المأمور والمعلم غزال ، تحول المعلم غزال شيئا فشيئا ، فأصبح لا يخفى اشمئزازه من تصرفات المساجين ، بل وأصبح يدافع أحيانا عن تصرفات المأمور .

وهمس المساجين بحقيقة العلاقة بين البية المأمور والمعلم غزال ، وانتقل الهمس من زناينة الى أخرى ومن عنبر الى آخر ، وبدأت الجفوة بين المساجين والمعلم غزال تتسع ، ولكن المعلم غزال لم ينتبه الى هذا التغيير على الاطلاق . فلم يكن لديه الوقت للتفكير في هذا الامر . النهار بطوله عند المأمور ، وعندما يعود من المكتب يكون المساجين داخل الزنازين . . وخلال تلك الايام عاد المعلم غزال الى حياته الاولى ، اكل مرة ملوخية بالارانب مع البية المأمور . وسمح له بطبق طرشي بلدى من سيدنا الحسين كان المعلم غزال يتمناه .

وذات مغربية والمعلم غزال يتأهب للخروج من مكتب المأمور الى الزناينة قتل المأمور وهو ينفخ صدره ويشفط كمية كبيرة من الهواء :

— المساجين ببسالوا ع الخوخ يا معلم غزال .

وقال المعلم غزال :

— انا تحت امرك يا سعادة البية . .

وقال المأمور وهو يهز عصاه :

— الف شكر يا معلم ، عندك زيارة باكر انشاء الله ، ابعت الخوخ على هذا العنوان .

جلس المعلم غزال في الزنزانة طول الليل يتفكر في العنوان المكتوب على الورقة التي دسها المأمور في يده لحظة خروجه من المكتب « ١٠ شارع كمال صدقي بالدقي » ولم يتم المعلم غزال حتى اشرق الصباح . وكان اسمه في مقدمة كشف الزيارة ، ووقف من خلف الاسلاك يتحدث مع زائريه باضطراب ، ثم دس لهم الورقة من خلال الثقوب وقال وكأنه يقرأ من كشف مكتوب :

— عشر صناديق خوخ ، وديكين رومي وصفحة سمن بلدي معتبرة وخروف سمين وكام جوز فراخ فيومي .

وعندما انتهت الزيارة عاد الى زنزاقته واغلق على نفسه الباب ونام ، وعشرة ايام طويلة مضت بعد ذلك وهو يعاني من الاضطراب ، النوم اصبح اعز عليه من الافراج . واصبح قليل الاكل شديد الانطواء ، حتى حارس الليل الشاويش شاهين لم يعد يجد متعة في الحديث اليه من خلال ثقب الباب . والبيه المأمور لم يعد يستدعيه ولم يعد يسأل فيه ، وطافت الظنون به وعذبتـه اى عذاب !

لا بد ان اهله تهاونوا في ارسال الهدية ، لا بد انهم ظنوا الامر كله مزاحسا ، او ربما ضاعت منهم الورقة التي تحمل العنوان . ولكن نفس المعلم غزال اصابها الاطمئنان ذات صباح ، كان في حوش السجن يدور مع السجناء في الطابور ، وكان البيه المأمور يقف كالفهد على باب المكتب ، عصاه في يده ، ونظارته السوداء على عينيه . وعندما لمح المعلم غزال لوح له بالعصا فتقدم المعلم غزال نحوه في اضطراب . وعندما اقترب منه قال المأمور في اقتضاب :
— متشكرين . .

ولم يزد حرفا ، وعاد المعلم غزال الى الطابور ، ولكنه عاد منشرح الصدر قرير العين فقد وصلت الهدية بحمد الله الى بيت المأمور .

ولكن هذه المسألة لم تمر ببساطة ، ففي السجن كل شيء ينكشف بعد حين هدية المعلم غزال اصبحت حديث السجن كله . حتى السجناء اشتهرُوا مع المساجين في الهمس والتأليف . وانتقل الهمس الى الضباط ، وانتقل من الضباط الى المأمور . واصبح السجناء اكثر ضراوة واشد قسوة على المعلم غزال ، واذا كان المعلم غزال يدفع رشاي فليس احق بها من السجناء الفقراء . . .

واحتمل المعلم غزال الاذى واحتمل الاهمال . فهو على استعداد للموت ولا يخسر البيه المأمور .

ولكن سلوك المأمور بعد ذلك كان غريبا وامره كان عجيبا . . ازدادت الجفوة بينه وبين المعلم غزال . . حتى حمايته لم يعد يبسطها عليه ، ذات صباح كبس المأمور على الزنازين في حملة تفتيش ، وعندما فتح السجان زنزانه المعلم غزال وقف المعلم « تمام » وكبست العساكر على الزنزانة وفتشوها ، وعثروا على مجموعات كثيرة ، امواس حلاقة ، وابور سبرتو ، زجاجة جاز ، وامتدت ايدى العساكر تداعب قفا المعلم غزال ، كل ذلك جرى والبيسه المأمور واقف كالصتر على باب الزنزانة يباشر العملية بهمة ويتفرج وكأنه لا علاقة له بالمعلم غزال ، وعندما انتهى التفتيش والضرب شدوه من قفاه على التأديب ، وغاب هناك ثلاثة اسابيع .

وخلال الاسابيع الثلاثة لم يسأل عنه احد ، لم يرسل له مسجون سيجارة ولم تصله حبة حلاوة ، ولا كوباية شاي . وجلس يفكر في هذا الانقلاب الذى حدث له في السجن . في البداية كانت زنزانه دائما عامرة بالمساجين ، يزورونه في الصباح وفي الظهر . وكان بعضهم يقوم عنه بالعمل ، يغسل له الزنزانة ، ويسخن له الطعام ، ويعد له الشاي ، وكانوا يجلسون في حلقة حوله يغنون له ويرقصون . ومرض مرة فسرقوا له الدواء من مستشفى السجن ، وناموا الى جواره مخالفين الاوامر حتى لا يبقى وحيدا في الليل ؟ ما الذى غير السجناء وجعل قلوبهم تقسر عليه ؟

صحيح انه لاحظ منذ بدأت علاقته تتوطد بالمأمور نفورا من جانب السجناء ولكن هذا النفور لم يكن خادا مكشوفنا ولكنه استطاع ان يحسه على اية حال . كانوا اذا جلس معهم لا يتكلمون الا بقدر ولا يملقون على الاشياء الا باتزان ، وتحولت ضحكاتهم معه الى شيء أجوف بلا رنين ، وحتى السلام يلقوته عليه بصفة رسمية خاليا من الود والصفاء . ومع ذلك لم يمر الامر اهتماما في البداية وعندما تطورت الامور بعد ذلك الى عداء حقيقى لم يهتم على الاطلاق ، فهو على اية حال ليس من صنف هؤلاء الناس . فهم مجرمون اعتادوا حياة الاجرام وهم في السجن ربما يتمتعون بحياة لطيب من التى كانوا يحيونها خارج الاسوار وهو اذا صادق المأمور فليس في الامر ما يخرج . فقد كان له في الخارج اصدقاء كثيرون من هذا الطراز الممتاز . والسجن بالنسبة له ليس مستقرا كما هو

بالنسبة للآخرين . ولكنه جبر كتب عليه ان يعبره بسبب جريمة لم تكن على انبال ، لقد كانت خنافة تقوم عشرات مثلها كل يوم ، ولكنها تطورت الى تماسك بالايدي وضرب بالاقلام . وهو عندما هوى بكف يده على وجه صبي القهوة بيومي لم يكن يخطر على باله ان الامر سيتطور الى هذا المدى البعيد ، ففسد هوى بيومي ميتا . ولا حول ولا قوة الا بالله ، مصيبة وقعت على راسه بسبب عيون الناس التي لا ترحم ، وهو من أجل ذلك في السجن وان كان الامر كله لن يزيد على ثلاث سنوات .

على اية حال لقد مضت الاسابيع الثلاثة بطيئة مريرة ثم عاد الى الزنزانة ورغم ان عودة كل مسجون من التأديب الى الزنزانة تعتبر حدثا داخل السجن الا ان عودته مرت دون احتفال ، فاعلق باب الزنزانة على نفسه وقاطع الجميع المساجين والحراس . . . ويوما بعد يوم اعتاد حياته الجديدة ، ووجد متعة في السجن الجديد الذي شيده داخل السجن . واصبح يطبق اللوائح على نفسه بدقة ولا دقة السجن ، فلا امواس خلقة ، ولا وابور سبرتو ولا زجاجة جاز . وحتى السجائر اقلع عن تدخينها والشاي كف عن شربه وراح يجتسر ايامه في السجن عازفا عن كل شيء حتى عن طابور الصباح . . ثم قرر ان يطلق لحيته واصبح يقضى الليل قائما يصلي ويذكر ربه بصوت عال اقلق راحة المساجين في الليل . وعندما ترامت الانباء الى البية المأمور عما اصاب المعلم غزال استدعاه ذات صباح . وعندما وصلته الدعوة لم يفرح بها كعهده من قبل . خرج مع العسكري يتهم باسم الله حتى وصل الى هناك . . ودهش المأمور لمنظره واستفسر عن سر اطلاق اللحية والهداية التي حلت عليه فجأة وبلا سابق انذار . وقال المعلم غزال وهو يخفض بصره الى الارض :

— مفيش حاجة يا سعادة البية .

— مفيش حاجة ازاي ، انت عامل احتجاج والا ايه . .

— ولا احتجاج ولا حاجة يا سعادة البية .

— امال اشمنعنى الدروشة ما حطتش عليك الا من يوم مارحت التأديب ؟

كنت فاهم ايه انت ؟ أنك اشتريت السجن يعنى ، والا عشان . .

ولم يتم المأمور العبارة ، انهال بيده السميثة القوية على وجه المعلم غزال فطوح به على الارض . ثم ركله بقدمه ركلة قوية ألقت به خارج المكتب ، ثم

استدعى العسكرى الحلاق وأمره بأن يزيل لحية « الشيخ غزال » وأن يعيده مرة أخرى الى التأديب حتى يعود عقله الى رأسه من جديد .

وقضى شهرا فى زنزانة التأديب يفكر فيما حدث من المأمور ولماذا حدث ؟ لقد كان صديقه فترة طويلة وكان بينهما عمار . ومن أجله خاضم السجن كله وقاطع المساجين كلهم ، وأرسل اليه فى البيت بما طلبه وأكثر . مسلك غريب لم يفهم مفزاه وموقف يحتاج الى عشرة انبياء لكى يتولوا عنه عملية التفسير . وذات صباح دق عليه باب الزنزانة طارق وامتدت له يد بعلة سجائر . ولكنه رفضها برفق . وعندما امتدت فى اليوم التالى يد أخرى ببرطمان مسربى ردها فى عنف . ثم وقف يصرخ فى الزنزانة كالمجنون .

— كلكو شمتانين فيه ، شمتانين فيه ، يامجرمين ياولاد الكلب .
وجذب صراخه العساكر فأشبعوه ضربا حتى هدا ثم انقلب على جنبه ونام . ثم جاء الفرج بعد ذلك ، وجاءه الافراج ، وخرج من باب السجن فى حراسة مشددة الى الدنيا الواسعة حيث لا يوجد وحوش مثل هؤلاء المساجين والسجانة أيضا من نفس طينة المساجين ، وحوش فى ملابس رسمية . . ولكن البية المأمور سيظل صديقه رغم كل شيء . وهذه الليلة ستكون آخر مزاج . . فسيحضر البية المأمور ، وسيعرف مقام المعلم غزال فى دنيا الحرية ، ربما أخطأ فهم هذه الحقيقة خلف الأسوار . وستكون وليمة ولا عزومة فى بلاط الرشيد ، وسيحضر كل الخلان ليروا البية المأمور بنفسه جالسا مع المعلم غزال وقسود يحاول المأمور الاعتذار عما بدر منه .

ولكن المعلم غزال لن يقبل أى اعتذار ولن يعطيه الفرصة لذلك فما فات قد مات . والمهم اللحظة التى نحن فيها . وهو اذا كان مأمورا الا ان المعلم غزال رجل الفى وله شنة ورنه وله سلطان فى الجيزة ينوق سلطان البية المأمور فى الليمان . والاضواء باهرة والدنيا حر والمعازيم تتحرك اشباحها على الجدران ولكن هناك صمت مريع ، لا أحد يتكلم معه ، لا أحد يتحدث اليه ، كأنها المعازيم مساجين تعقبوه من الليمان الى الحياة .

وصرخ المعلم غزال صرخة مدوية ثم سقط على الارض مغشيا عليه وقد اطبق الظلام على كل شيء . لم يكن المسكين يدرك أنه غادر السجن منذ شهور طويلة الى مستشفى المجاذيب .



العبرة



ابدا ٠٠٠ ليس فهمى عبید کالآخرین !
فالحياة ليست وظيفه ومواعيد مضبوطة وزوجة
تنام في حضنها طول الليل وفلوس معلومة والاولاد تزمق
الشيطان وتقصّر العمر ! الحياة مخ وتفكير واختراع
وحرب لا تنتهى وقفز فوق كل العوائق واجتياز لكل الحواجز
والسباحة بعزم من حديد مع التيار احيانا وضد التيار
احيانا ٠٠ ولكى تبلغ الغاية لابد من الصبر ومضغ الشوك
اذا اقتضى الامر ، المهم ان يصنع المخلوق شيئا عظيما
والافانه لم يخلق على الاطلاق ٠

ولذلك عندما خرج فهمى عبید من مدرسة الصنائع قبل ان يحصل منها
على شهادة ، وقف في دكان والده الحاج عبید وفي يده مروحة من ريش الفراخ
يهش بها الذباب من على وجه الزبون ثم يمد يده بعد الحلاقة ويقبض بها في
صمت على القرش صاغ اذا كان الزبون ثريا ، وعلى قرش تعريفه اذا كان
الزبون من الحتة ، وعلى الهواء اذا كان الزبون خاوى الوفاض مثل رأس الحاج
عبید أبوه !

واذا كان ثمة مثل حى للتناقض في الوجود فليس ادل على هذا المثل من
الحاج عبید وابنه . فمئذ أربعين عاما والحاج عبید في هذا الدكان ، شاخت
جدرانه وطقطق بياضه ، انخلع بلاطه ، وتقوس بابه فلم يعد ينغلق ولا ينفتح
الا بعد مصارعة عنيفة تستغرق ساعات كل صباح وكل مساء . . ومع ذلك

فالحاج عبيد مبسوط لرحان . وهو يحمد ربه على نعمائه ، ويثمنى لو استمر الحال على هذا المنوال الى ان يلتقى ربه في هدوء . . ولكن الولد فهمى لايعشق هذا الطراز من الحياة . وابوه الحاج عبيد ميت من زمان ، وهذا الدكان قبره . وهؤلاء الزبائن كأنهم زوار هذا القبر المهجور ، وعام بعد عام يتناقص عددهم باستمرار ، وسيأتى يوم قريب لا يجد فيه الحاج عبيد ما يأكله وسيموت مكانه وقد يتحول الى طعام للتطيط والكلاب .

ولكن فهمى عبيد لن يترك ابيه يتردى في تلك النهاية . سيصارع من أجل ان يطفو على السطح ، وسيكسب آلاف الجنيهات . فهو يحس احساسا عميقا نابعا من اعماق نفسه انه خلق لكي يكون فوق القمة ، وانه ولد ومعه كل ادوات النجاح والوصول الى المكان الذى يريد . وذات صباح اختلف فهمى من الدكان ، طاف في شوارع السويس يبحث عن عمل جديد . ولكن البحث قساده في النهاية الى دكان حلاق . . صحيح انظف من دكان ابيه وصحيح ان الحى هنا انخر واغنى والشارع هنا انظف والمع والزباين هنا اغنى واوجه وعطر يفوح من داخل المحل ، ومراوح في السقف ومرايات على الحيطان واسطوانات في ملابس دكائرة وزجاجات اشكال على الوان كأنه صيدلية ، وهو لا يهش على الناس هنا بمروحة من ريش الفراخ ولكن مروحة هنا من ريش النعام واصابعه تمتد للزبون لتقبض احيانا على نص امرئك وحيانا على ثلث كامل ولكن المسببة ان ما يحصل عليه هنا اقل مما كان يحصل عليه عند ابيه . . لقد كان في دكان ابيه هو الاوحد وكل الاموال السائلة هناك تصب في جيبه ، ولكن هنا الامر يختلف جميع الذين يعملون هنا يشتركون في البقشيش الاسطوانات يدخلون القسمة براجل وأنصاف الاسطوانات يدخلون القسمة بنصف راجل والصبيان يدخلون القسمة بربع راجل ، حصيلته آخر النهار نص لمسرنك لا يزيد وهجر الدكان وعاد لدكانه ابيه وفي المساء كان يجلس وحيدا في ميناء السويس ينظر في اسى شديد الى السفن المارة من بعيد ، ويحلم بسفينة من هذه السفن الكبيرة تضربها الرياح فتجنح الى الساحل ، وتأخذ الى الشاطئ الاخير البعيد . . ولكن سفينة واحدة لم تقترب من الشاطئ ، وجنية واحدة لم تظهر من اعماق الماء لتمشقه وتخطفه لتحقيق له ما يريد ، سنوات طويلة مضت وفهمى عبيد أصبح فى العشرين والاسوار التى من حوله تزداد ارتفاعا ، ولكنه رغم ذلك كان مطمئنا الى أنه سيحطم هذه الاسوار او يتسلقها يوما ما . . وكان فهمى على

حق ، انفجرت الحرب العالمية فجأة ، وتدفق على السويس خلق كثيرون واجناس
شتى ، وأصبح في كل ركن كامب يضيق بالجنود ، ومخزن يكتسظ بكل شيء ،
والفلوس تتلاطم في ايدي الناس . . كما تتلاطم امواج البحر عند رصيف ميناء
بور توفيق ، واشتغل فهمى بوابا على كامب ، فترة ليست طويلة ولكنها اتاحت
له مبلغا من المال بدا حياته كمقاوم معتمد للجيش . . والجيش الانجليزى حمار
ليس فيه ربط ولا زبط ، الشاويش الانجليزى يتسلم مائة بيضة ويوقع على الف
ويأخذ الف رغيف ويمضى على عشرة آلاف ، والفلوس تجرى الان بين يديه
كما تجرى سيارات الانجليز على طريق المعاهدة . نظرية فهمى اذن صحيحة
والحياة مخ وتفكير واختراع ، وكل شيء ممكن وكل شيء يجوز ، ولكن اصديقاء
الصبا الذين نجحوا في مدرسة الصنائع لا يزالون يجلسون على المقهى يلعبون
الطاولة كل مساء ، وابوه لا يزال في الدكان ، وصبيان الحلاق الكبير لا يزالون
يهشون المذابح بمراوح من ريش النعام . . ومضى فهمى يمتص حياته حتى
النخاع . والفلوس التى لا تنزه صاحبها ليس لها لزوم . . والحياة مخ وتفكير
ولكنها ايضا متعة وانسياب . . وليس امتع فى الحياة من كازينو بديعة ، والبنات
هناك ماركات كسيارات الركوب ، وكل واحدة لها شكل وكل واحدة لها لون .
والدنيا ايضا حظوظ ، وحظ فهمى مع قدرية ، وكل واحد برزقه ورزق قدرية
وفير . . وقدرية حلوة وصغيرة وفيها دائها يضحك ، ودمها خفيف كأنها سمكة
بلطية . ولو كان فهمى من النوع الذى يتزوج لكانت قدرية زوجته ، ولكنه
لا يتزوج ولا يرتبط بأحد . ولكى تنجح لابد ان تكون وحدك ، لىكى ترفرف
كالمصفور فلا تربط عنقك بحجر ثقيل يمنك عن الطيران . ولكن الشيطان
شاطر ، وقدرية حملت ، وداخت وداخ معها فهمى لتسقط حملها دون جدوى ،
كأنها حملت في حجر يابى ان يتدحرج من بطنها ، كأنه قرد يقبض على مصارينها
بأظافر من خديد . كارثة صحيح . ولكن الفلوس كفيلة بحل كل الكوارث ،
المولود بنت الخالق الناطق شبه ابوها وفي نعومة أمها . . وفهمى مهما كان
الامر ليس نذلا ، تزوج قدرية بورقة ، وكتب البنت الصغيرة باسمه ، وسماها
سعاد ، فقد جاءت وهو في قمة سعادته . ثم طلق الأم ومنحها مبلغا من المال
وبشرط ان تحتفظ بسعاد ، وافترقا رسميا وان ظلت الصلة قائمة بينهما كالمعتاد
وفجأة . . هوى نبا كالصاعقة سحق قلب فهمى وهدقواه . . فقد توقفت الحرب
فجأة ، ولم يعد هناك مزيد من الفلوس . . المعسكرات اقتربت والمخازن جفت ،
والدنيا تشققت حالها كأن القيامة على الابواب ، وعاد فهمى الى شوارع

السويس يتسكع اول النهار ، ويقضى آخره عند دكان الحاج عبيد ، ولكنسه لم يعد يمسك بالمروحة الساعات الطويلة يقضيها جالسا على كرسي قش أمام الدكان ، يحلق في الشارع في ذهول ، ويمد يده آخر الليل يتناول من أبيه ثمن الدخان . والرجل المعجوز لم يسأله أين كان ولماذا جاء ؟ كان يسمع أن ابنه في رغد من العيش وكان يفرح لهذا كثيرا ، ثم رآه فجأة ذات صباح على باب الدكان . وأدرك أن ابنه صادفه سوء الحظ ، وأن الحياة هذا شأنها منذ الازل تصفو حيناً ، وتتجه حيناً ، والعاقل من لا يفره الثراء ولا يفرعه الفقر .

وهاهى السنوات تمضى وفهمى مكانه على باب الدكان ، ليس معه من أيام العز الا بطاقة قيمة . . فهمى عبيد مقاول ومتعهد . . أين هى العهدة وأين هى المقاوله ؟ لم يعد هناك شيء الا الدكان والقروش القليلة التى يديسها أبوه فى يده كل مساء . . ولكن هاهى الأيام تبتسم من جديد ، الحكومة ألغت المعاهدة . . . وفى السويس طلبة يطلقون النار على الانجليز ، وعمال يؤلفون كتائب ، وصياع يحملون السلاح ، وغشاشون انتهزوا فرصة المعركة وارتدوا ملابس الميدان وليس أعظم من فهمى يعرف معسكرات الانجليز ومخابثهم فى القناة ، ليس أعظم من فهمى مستشارا لكتيبة نصفها صياع ونصفها نصابين . وفى تلك الايام التقيت بفهمى فى السويس ، فى مقر كتيبة الغداء ، وكان فهمى وقتئذ مستشارا يضع الخطط التى لم تنفذ قط ، ويتولى الحرب التى لم تبدأ على الاطلاق .

وذات مساء كان فهمى يجلس مطرقا فى مقر الكتيبة ، حزينا صامتا مهموما ينكش أسنانه المسوسة بعود كبريت التقطه من الارض . وعندما سأله عن سر همومه قال فى هدوء شديد :

— أبدا أنا بس بفكر فى المستقبل . .

— الكتيبة مش عندها سلاح وذخيرة ؟

— وأنا مالى ومال الكتيبة ماتندعق ، أنا قصدى

— قصدك ايه ؟

— قصدى مستقبلى . .

— المستقبل بتاع ربنا يا فهمى . .

— أى نعم . . لكن برضه

وكان الدم قد سال من أسنانه فألقى بعود الكبريت غاضبا ، وقال وهو يمسح الدم بأصابعه :

— افترض انا قدرت اطلع الانجليز من القناة ، الحكومة تدينى مليون جنيه ؟
— انت هتطلعهم لوحداك ؟
— بقول يعنى .
— ياسيدى طلعمهم وهمه يدوك عشرة مليون ..
— تفتكر ...
— طبعا .

وصيت فهمى قليلا ، وبدا كأنه يفكر بعمق فى موضوع يقلقه ، ثم استأنف وانصرف وعاد بعد أيام ومعه مشروع كامل اطلعنى عليه .
— مفيش حل غير كده ، خلينى بس اقبل رئيس الوزراء ، وانا اكلمه ،
همه يدونى العشرة مليون جنيه وماحدث له دعوة . انا هاشتري قنبلة ذرية
بسبعة مليون جنيه ارميها ع الانجليز فى القناة وانا الهف الباقي .
وعندما افهمته ان مشروعه خرافى ولا يمكن تحقيقه ، قال فى هجر :
— انت مالك ، خلينى اقبل رئيس الوزارة ومالكش دعوة .

كان فهمى يعتقد اننى صاحب نفوذ ، وان نفوذى يمتد الى حد استدعاء
رئيس الوزراء فى اى وقت يشاء واى مكان يريد ، ولذلك بدا له فى الايام التى تلت
الحديث حول المشروع اننى اراوغه واننى حاقد عليه وخطر له احيانا اننى اضغط
عليه كى اساومه . وذات مساء كنت فى مقر الكتبية وحدى حين دخل فهمى
ومعه كراس من النوع الذى يستعمله تلاميذ المدارس وفى هذا الكراس كل
تفاصيل المشروع من اول السفر لامريكا ، والاتصال بوزير الحربية الامريكية
وشراء القنبلة الذرية ، حتى الفندق الذى سينزل فيه لم ينس فهمى ذكره .

وعندما سألته متهمكا :
— واشمعنى فندق والدرف استوريا .
رد فهمى مرتبكا ..
— بلاش .. اى فندق على كيفك ..
وبعد ان انتهى من شرح مشروعه بالتفصيل قال وهو يضغط على فخذه
باصابعه :

— وعلى العموم آهى لقمة ناكلها سوا ..
— يعنى ايه يا فهمى مش فاهم ؟

— ولا حاجة . . ربنا هيسهلنا بثلاثة مليون . . انت تاخذ نص مليون واننا
الباقى . . بس انت تخلينى اقابل رئيس الوزارة .

ورغم هذا العرض السخى من فهمى الا اننى لم اتحرك خطوة واحدة فى
طريق اللقاء المنتظر بين فهمى ورئيس الوزارة . واذا انتابه اليأس منى حمل
فهمى كراسته وراح يطوف بها على دور الصحف عارضا مشروعه على المسؤولين
فيها متوهما انه سيحدث هزة ليس لها مثيل فى التاريخ .

واصيب فهمى بخيبة أمل شديدة لاعراض دور الصحف عن المشروع . . .
وعاد الى السويس والحزن يملأ قلبه واستقال من وظيفته الشرفية كمستشار
لكتيبة الفداء . . وعاد الى دكانه يجلس امامه طول النهار لاعنا هذا البلد السفى
الذى لا يريد ان يستقل . .

وخلال الايام التى اعتبت استقالته من الكتيبة ازدادت ثورته على كل شيء
وعندما التقينا صدفة فى الطريق ، قال وهو يشيح بيده فى وجهى :
— وحياء ربنا لو الانجليز دخلت السويس لاخدهم بالحضن . . عشان دى
بلد تستاهل الحرق . وعندما دعوته للعودة الى مكانه فى الكتيبة قال وهو
يفتض من شدة الغيظ :

— يا عم بلا كتيبة بلا زمت . . هى دى كتياب دى . . دا نصب . . دول
عالم كلهم حرامية .

— طيب انت مش كنت مستشار عندهم .
— يا عم مستشار ايه وبتاع ايه . . ع العموم انا استفدت م التجربة . . .
انا هاعمل كتاب اكشف فيه حقيقة الكتياب دى للرأى العام .
وصمت فهمى قليلا ثم قال :

— بس انت بقى تشوف لى ناشر يطبع لى الكتاب ده وعلى فكرة . . هم
بيدفعوا كام . .
— ميت جنينه .

وبدت الدهشة على وجه فهمى وقال وهو ينظر نحوى نظرات متسائلة :
— ميت جنينه . . ميت جنينه ايه . . دنا فاهم بيدفعوا ميت الف . . خمسين
الف .

— حيلك حيلك . . الكتاب كله مايبيعش الف نسخة يا فهمى .

— مين قال لك كده . . كتاب زى ده ما بيعمش أقل من مليون نسخة . . .
أنا هاقول فيه أسرار خطيرة جدا . . بس انت شوف لى ناشر وأنا هتكلم معاه .

ومرت أيام طويلة بعد ذلك ولم تجمعنى الصدفة بفهمى . . وكدت أنسى أمره
فى غمار الاحداث التى وقعت بعد ذلك . . خيم الظلام على منطقة القناة ذات
مساء والانباء تتناثر هنا وهناك أن حريقا رهيبا مروعا اكل القاهرة وأن الرصاص
يثر فى الفضاء والجثث بالاكوام فى الشوارع واللصوص يخطفون البضائع من
المحلات ورجال البوليس يخطفون الرجال من البيوت وأن الامر عاد الى الانجليز
من جديد . وفى الصباح تحققت الاشاعات . . كبس البوليس فى السويس على
البيوت وخطف الرجال والسلاح . . ولفظت المعركة انفاسها واختفى من
الميدان الفدائيون واللصوص معا ، واضطرت الى السفر خلسة فى الليل من
السويس الى القاهرة تاركا ورائى اشلاء معركة كانت حية نابضة حتى الامس .

وران على مصر فترة من الظلام اسود من قرن الخروب . وذات صباح
انقلبت مصر رأسا على عقب ، تحرك الجيش وقامت الثورة وعادت الالسنة
تلوك معركة القناة من جديد ، وعادت الاقلام تخوض فى بحرها ، وذات مساء
جاءنى فهمى عبيد الى الجريدة وصافحنى بحرارة وجلس صامتا يحتسى فنجان
الشاي ويلقى نظرات خاطفة على صفحات كراس قديم يحمله . . وعندما
سألته عن الاحوال اجابنى فى سرور بأن الاحوال عال وكل شىء على ما يرام
وهمس فى اذنى بأن لديه مشروعا سيحدث هزة فى العالم ليس لها مثيل ،
وقلت له مازحا :

— اياك مشروع القنبلة الذرية . .

— لا أبدا . . أنا كاتب مذكرات هتعمل هزة . . أسرار معركة القناة . .

واطلعنى على الكراسية التى معه : كانت الكراسية تحوى نصولا شيقة بلا
جدال عن أسرار كتيبة الفداء ، كيف تكونت ، كيف حصاريت ، كيف انتصرت ،
التكتيك الذى عليه فى المعارك الطاحنة ، كيف عاملت الاسرى الانجليز
الذين وقعوا فى قبضتها ، كيف استشهد أبطالها فردا بعد الآخر ، وكيف انفتحت
لهم اوسع ابواب التاريخ . وقائع مذهلة لم يحدث شىء منها على الاطلاق . .
وكان يمكن لفهمى أن يطلع أحدا غيرى عليها ، فربما اقتنع .
نظرت الى فهمى نظرة طويلة وقلت وأنا الوح بالكراسية فى يدى :

— كلام ايه الفارغ ده يا فهمى .. بقى كتيبة الفداء اللى كانوا كلهم حرامية عاملهم ابطال .. ومعارك ايه ياراجل انت .. بقى بذمتك حصلت معارك .

— ما حصلش .. لكن الجو عاوز كده .. وع العموم دى هتعمل هزة .. المهم انشرها مسلسل فى الجريدة .. بس بشرط تنشروا صسورتى وتكتبوا تحتها « فهمى عبيد مستشار الكتيبة » وتدفعوا لنا الف جنيه .

وقلت لفهمى انه لا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الكاذبة ، لان معركة القناة حدثت منذ اشهر قليلة ماضية ، وجميع القراء عاصروها وعرفوا أحداثها ولا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الا فى القرون القادمة فقد تجد من يصدقها ..

وبان القرف على وجه فهمى وخطف الكراسية من يدى وقال فى صوت خفيض :

— لا منك ولا كفاية شرك .. وع العموم بكرة نشوف .. أنا هانشرها ..

وقلت لفهمى وأنا أهديء من ثورته :

— انت اشتغلت والا لسه ..

— لا .. ما باشتغلش ..

— طب ما تشتغل ..

— ايدى على كتفك ..

— تعالى وأنا اشغلك بكرة ..

— نين ؟

— فى الحكومة .. أنا اعرف وزير الشئون الاجتماعية وهقوله انك انت

كنت من عمال القناة ويشغلوك على طول ..

— بـكـام .

— عشرين جنيه اول تعيين .

— عشرين جنيه .. واعمل بيهم ايه دول .. اشرب بيهم سجائر ..

— احسن من مفيش ..

— لا .. مفيش احسن .. وع العموم انا كنت بكسب العشرين جنيه دول

فى دقيقة ..

— امتى الكلام ده ؟

— أيام ما كنت متعهد في الجيش الانجليزي .
— طب دي ايام كان لها ظروف وراحت يا فهمي . .
— مفيش حاجة اسمها راحت . . الجايات اكثر من الريحات . . سلام
عليكم .

وانصرف فهمي غاضبا ، ولم اره بعد ذلك . . قاطعنى تماما ، وكنت انسا
اتحسس اخباره كلما سافرت الى السويس ، كانت اخباره دائما لا تسر . . .
ومرت خمس سنوات طويلة ثم جاء فهمي لكنه لم يكن فهمي الذي اعرفه ازداد
نحولا وشحوبا وتساقط شعر رأسه وانحنى ظهره وبدأ بلحيته النابتة وقميصه
المتسخ كأنه عائد للتو من رحلة في الصحراء ، ورحبت به كثيرا ، وجلسنا
نتسامر ، وكان يشاركنى في الحديث بنكت بايخه ، وضحكات فاترة ، ونجاة
اعتدل في جلسته وقال في اهتمام شديد :

— أنا جيلك في مشروع رهيب جدا . . البلد بتاعتنا دي مش فاهمة اى حاجة
عمالة تعمل مصانع . . وتصلح في أرض ، ودي حاجات مانجيش فلوس . . .
أنا عندي مشروع يكسب ذهب . . نشترى كام ناقلة بترول . . تعرف الناقلة
بتأخذ كام في الرحلة الواحدة . . ميت ألف جنيه عملة صعبة والنافلة كلها
بمليون جنيه . . يعنى عشر رحلات يجيبوا حقها . . والباقي يبقى مكسب . .
وأنا بصراحة عاوز أعمل المشروع ده . . نعمل أسهم . . والسهم بألف جنيه
و . . ونشترى ناقلة وأنا ابقى المدير بتاعها . . والسهم ده هيكسب ألف جنيه
في بحر سنة وأنا آخذ سهم وآخذ مرتب . . أعمل ميتين وخمسين جنيه لنفسى
في الشهر . . لما تكسب قوى . . نجيب واحدة تانية . . وكمنا واحدة . . وكمنا
واحدة . .

ولم اشأ ان أصدم فهمي في أحلامه فأنثيت على المشروع ثناء عظيمما ،
وابديت اعجابى الشديد بعقليته الاقتصادية الرائعة وتمنييت له النجاح
وغادرنى فهمي تلك الليلة مسرورا وعاد مرة أخرى بعد شهر ولسكن بمشروع
جديد .

— تعرف السمك بتاع البحر الاحمر . .
— ماله . .
— بيتباع في بيروت الكيلو بجنيه . . يعنى احنا نشترى لنس تجارى فيه

ثلاجة ونصطاد سمك من البحر الاحمر ونسافر ونبيعه في بيروت تعرف نبيع
بكاف في الرحلة الواحدة .. بعشر تلاف جنيه واحنا مش هنكلف كثير ..
هنجيب كام واد هيادم السويس نديهم على قفاهم .. وكل واحد ياخذ له
جنيه في اليوم وهم اللي يصطادوا ويسوقوا اللنش .. واحنا نقعد زى البهوات
.. نسافر بيروت .. نبيع ونرجع ..

— مشروع عظيم خالص ..

— يعنى عاجبك ..

— قسوى ..

وصافحنى فهمي بحرارة وانصرف مبتهجا .. وعاد مرة أخرى بعد أسابيع
ولكن بمشروع جديد ..

— تعرف المينا بتاع السويس ..

— أيوه ..

— فيه كنوز بملايين الجنيهات .. أيام الحرب غرق في المينا دي ييجي ميت
سفينة .. ولسه غارقانين لحد الوقت .. احنا نعمل شركة لانتشال السفن
الغارقة .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام واد غطاس م السويس نديهم
على قفاهم ونطلع السفن دي .. متلاقى كل حاجة .. ذهب حتلاقى ..
فلوس حتلاقى .. حديد هتبيع .. مكاتب راديوهات .. سراير .. كل حاجة
تعرف تكسب كام العملية دي .. الف جنيه كل يوم يعنى ثلاثين الف جنيهه
في الشهر .. ايه راك في المشروع ده ..

— عظيم جدا ..

— اهو المشروع ده .. متوقف عليك انت ..

— ازاي بقى ..

— نجيب تصريح م الحكومة ..

— طيب ان شاء الله ..

— صحيح ..

— باذن الله ..

— طب سلام عليكم ..

وصافحنى فهمي مسرورا وانصرف .. ونسيته تماما ونسيت مشروعه
حتى هبط على ذات مساء فتذكرت ، وجلست معه افكر في طريقة مناسبة

للاعتذار ولكنه لم يترك لى فرصة للحديث . بادرنى على الفور بمشروع جديد .

— أهو ده مشروع بقى .. مفيش زيه ..

— مشروع ايه يا فهنى ..

— شركة النور للسياحة .

— هنعمل شركة سياحة يعنى .

— آه .. بس جديدة .. بقى فيه سفلن بتيجى م الشرق الاقصى وتيسات

فى السويس وتقوم المصبح تروح على بورسعيد ويتقعد اتناشر ساعة فى القنال

بدل الركاب بتوع المراكب دى ما يزهقوا احنا ناخذهم فى عربيات نفرجهم ع

القاهرة والاثار ونبيتهم هنا ونطلعهم على بورسعيد ياخدوا المركب بتاعتهم من

هناك .. كل سائح يدفع خمسة جنيه عملة صعبة كل يوم ناخذ خمسين سائح

فى خمسة بميتين وخمسين جنيه .. يعنى سبعة تلاف وخمسميت جنيه فى الشهر

عملة صعبة ومش هنكف حاجة .. بس عاوزين عشر عربيات مرسيدس ونجيب

كام عيل سواق م السويس نديهم على قفاهم وواحد ترجمان نرميله جنيهه فى

اليوم والا حاجة وكان الله بالسز عليم .. ايه رايك ..

— مشروع عظيم قوى .

— صحيح ..

— أيوه صحيح ..

— طب شد حيلك بقى معنا .

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف .. وغاب هذه المرة طويلا .. حتى خيل

الى انه نفذ فعلا مشروعه واستراح ولكنه عاد بعد ذلك بأشهر طويلة وقـد

ازداد نحوله وازداد سعاله وبدا عجوزا اكبر من عمره بعشر سنوات ، وبدأت

عيناه مجهدتين كأنه لم ينم منذ فترة طويلة ، وقميصه متآكل الاكمام وحذاؤه

مضروب ومبطوح ، وكالح اللون ، وكان معه مشروع جديد .

— عارف السرديا .

— لا مش عارف ..

— دا نوع م الحيوانات البحرية فى البحر الاحمر .. لذيذ قوى انما الناس

الذوات مايردوش ياكلوه عشان شكله وسخ والبياعين بيعدموه بطريقتة

وسخة انما اخنا لو قدمناه بطريقة نظيفة .. نقدر نبيع منه مليون علبة كسل

اسبوع .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام عيل صياد م السويس نديهم على قناهم وجاوزين ثوية ملبكرتون ووادموظف يتعمل بالمحلات واللوكاتادات الكبيرة وكان الله بالسر عليم .. تعرف فيها مكسب قد ايه .. عشر تلاف جنيه كل شهر .

وانا بدات المشروع فعلا ..

وانتزع من لفانة كانت في يده علبة كرتون صغيرة وقال وهو يقدمها لى :
— اهو الصنف ايه .. ابقى دوقه وقوللى رايك وع العموم انا انت على جروبى ولاباس النهاردة ، وطلب كل واحد عشرين دسنة .. وفكر انت في المشروع ده واحنا هنعمل عمل كبير باذن الله .

وترك فهمى العلبة وانصرف ، كان في العلبة خليط من شرائح لحم لاتستطيع ان تحدد اصلها ، لها رائحة خبيثة كأنها رائحة فار معفن ميت منذ عشرة ايام ، كالحة السواد كأنها جلد فيل مفروم ، والقيت بالعلبة في صفيحة الزبالة ونسيت فهمى ومشروع . ولكنه سرعان ما عاد وفي هذه المرة كان بالتقيص والبنطلون لمقط رغم أن البرد في الخارج لا يحتمل ، وجلس امامى مقويتا كأنه عجينة التوت بفعل خباز ماهر ، قال وهو شديد الانكسار .

— ما حدثش رضى ياخد م العلب .. مفيش حد بيقدر في البلد دى ..
وقلت لفهمى لتهدئته :

— ما هو انت لازم تشوف شغلة ثابتة وسعدين تفكر في المشاريع دى .. انت عارف الناس اللي اشتغلوا ايام القتال بياخدوا كام الوقت .. خمسين جنيه وستين جنيه .. يعنى انت لو كنت طاوعتنى واشتغلت وقاطعنى فهمى بمنتهى الغضب .

— ياراجل بلاش فخر .. الواحد يهجم البلد دى احسن وع العموم انا عندى مشروع تانى .. بس مش هاكشفه دلوقت سلام عليكم .
ومضى فهمى سريعا واختفى هذه المرة ، انقطعت عنى اخباره فلم اعد اعرف عنه شيئا ، وخيل لى انه نفذ مشروعه وطفش من السويس خلصة على ظهر مركب متجولة ، وأخيانا كان يطوف بخاطرى انه مات جوعا بعد أن نقد الرجل الوحيد في هذا العالم الذى كان يعطف عليه ، أبوه .. الاسطى عبيد .
صاحب محل الحلالة .. ولكن ظنوني خابت كلها فجأة .. وقد رايت فهمى ذات

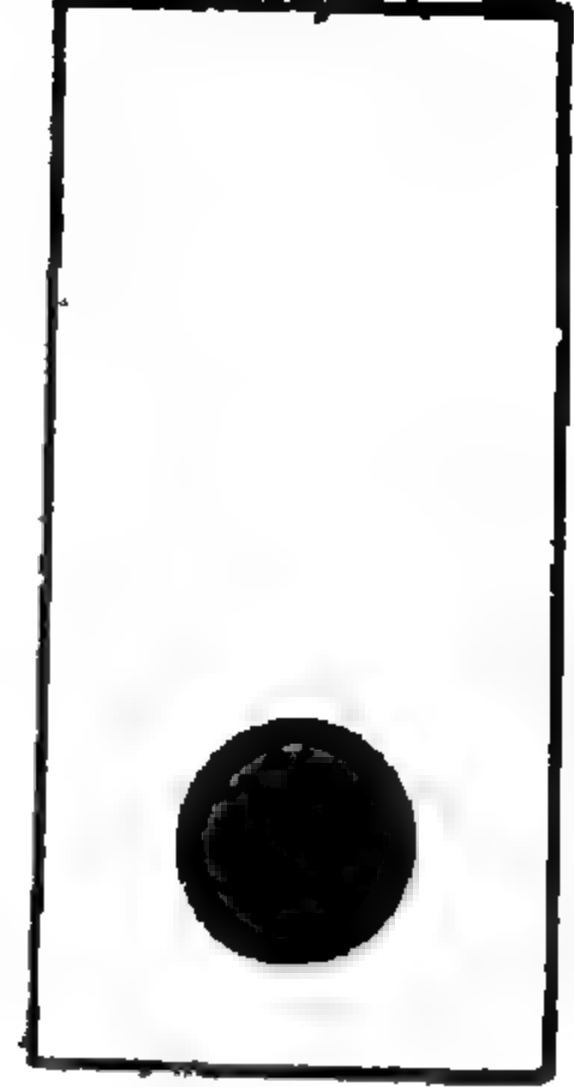
صباح متورد الخدين شديد الاناقة على عينيهِ نظارة مذهبة يقود عربة فارهة
وعندما رأتى ركن مربته برشاقة وأقبل نحوى يضمنى اليه بحرارة ، ولكنّه
رغم التورد والثراء كان يبدو شديد القلق ، حديثه مضطرب وأفكار شاردة
وانصرف سريعا وقد اتفق معى على لقاء ، ولكنه لم يعد واستغزنى منه هذا
التصرف الغريب فبحث عن السر الذى نقل فهمى هذا الانتقال المفاجيء
السريع .. وسرعان ما اكتشفت السر .. هل تذكرون قدريسة .. البنيت
الراقصة التى عاشرها أيام العز ، والتى أنجب منها طفلة اسمها سعاد ثم
هجرها بعد ذلك وانشغل فى هوميه وأحلامه .

كانت هى الأخرى تسير مع فهمى فى خط واحد انتهت الحرب ولفظتها
الملاهي ولكنها وجدت لنفسها مكانا فى الأفران والليالى الملاح ترقص شسبه
عارية كل ليلة أمام جمهور من الصبية ، والعجائز وتلقى بصدورها وهى تتثنى
أوراقا صغيرة ملونة من فئة العشرة قروش وأحيانا من فئة الربع جنيه ...
ولكنها استطاعت من هذه الأوراق الصغيرة أن تجمع ثروة وأن تقيم منزلا ...
واعترلت الرقص لتتفرغ لمهنة أخرى أسهل أداء وأوفر مالا تحولت الراقصة
القديمة الى قوادة وأصبحت تشرف على العشرات من راقصات الحـرب
القبداى .

ونجحت قدريسة نجاحا منقطع النظير ولكنها لم تهبط فى البحث عن زوج وجربت
كثيرين ونشلت ثم التقت مصادفة بفهمى فى الطريق ، كانت هى فى مربتها الفارهة
وهو فى هيئته الزرية وذقنه النابتة وكراصة مشاريعه ، وعندما دفن نفسه
الى جوار قدريسة فى السيارة أحس براحة شديدة ربما لأول مرة منذ أعوام
طويلة وبات تلك الليلة معها فى فيلتها الانيقة ولم يخرج منها بعد ذلك عاد زوجها
لقدريسة وأصبحت كل مشاريعها تدار باسمه وان كان هو نفسه لا يعرف عنها
شيئا ولكنه على أية حال استراح للحياة الجديدة ، واسترحت أنا الآخر من
فهمى فلم يعد يزورنى اذ يبدو انه لم يعد فى حاجة الى مشورتى أو لم يعد
لديه مشروعات جديدة .



السماء السوراء



سبعة اعوام طويلة ، والمعلم محفوظ بلا شغلانة ،
صحيح انه لايجيد صنعة ولكنه خبير في الحياة ..
والسنوات السبع الماضية قضاهما كلها على مقهى الامير
بالقلعة يتفرس في وجوه الناس ويدقق النظر في ملامحهم
وصحيح ايضا انه قضى فترة في فجر صباه في دكان
نجار ولكنه لم يفهم من سر الحرفة شيئاً .. حادث
واحد فقط كان يذكره دوما وهو جالس على المقهى كل
مساء جعله سعيدا رغم البطالة والفشل .

فقد كان محفوظ — ولم يكن قد اصبغ معلما بعد — ينشر جذع شجرة
بلوط ضخمة ، ونجاة بعد ان انشق الجذع الى نصفين راى بعينه — هكذا
يزعم — دودة طويلة رفيعة وبجوارها خبز وماء .. وكان دائما يذكر القصة
ليدعم بها رأيه ، وهو ان الله لاينسى احدا ، حتى الدودة الصغيرة الحقيرة في
جذع الشجرة !

ولكن لماذا لم يرزقه الله كما فعل مع الدودة داخل الشجرة .. فهذا
يرجع لحكمة يعلمها الله وحده ، ولم يجهد المعلم محفوظ نفسه ابدا في تفهم
هذه الحكمة او معرفة دوافعها .. المهم ان حكمة الله شامت ان تقع الحروب
نجاة .. وبدأ الصراع رهيبا في اوروبا ، واتخذ هذا الصراع الرهيب له في
مصر مظهرا بسيطا عبارة عن مكتب صغير في شبرا يديره ضباط انجليز ويقتل
عمالا من مصر وبأجور خيالية .

وخطف المعلم محفوظ رجله الى مكتب شبرا ووقف ساعة تحت الشمس ضمن طابور طويل من الرجال ، خيل اليه في بادىء الامر انه لن ينتهى .. ولكن شاعت كلمة الله الا ينحرم النهار الا وقد استطاع ان يقيّد اسمه .. وعندما سأله الضابط الانجليزى الذى يتكلم عربية ركيكة عن مهنته اجابه دون وعى .. نجار .. هو نفسه لم يدرب بعد ان غادر المكتب ، لماذا اختار هذه المهنة بالذات .

وجاءه الخطاب على عجل ليتسلم العمل ، نجار فى مسكرات العباسية وأجره جنيه فى اليوم ..

شغلة عظيمة وربح وفير .. والسبب الحرب ! بارك الله فى الحرب .. لو انها وقعت منذ سبعة اعوام مضت لما تذوق المعلم محفوظ مرارة البطالة ونظرات الناس الشامتة ، ولكنها حكمة الله شاءت ثم عدلت مشيئتها .. وقد ان الاوان لكى يعمل المعلم محفوظ ويربح مثل بقية خلق الله .

ومضت أيام الأسبوع الاول رتيبة والمعلم محفوظ يرسم بسذاجة خطوط المستقبل .. انه يستطيع ان يوفر مبلغا من المال وان يفتح ورشة .. او يفتح مقهى ، يضمن له معاشا ثابتا .. عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب .

ولكن مضى شهر . ثم مضى عام ، ثم عامان .. والمعلم محفوظ لم يدخر قرشا .. وعرفت قدماء الطريق الى البارات والملاهى ودور الرقص الى الحياة الصاخبة الحافلة التى حرم منها طويلا .. واصبح للمعلم محفوظ احتياجات لم يكن فى حاجة اليها من قبل . والجنيه لم يعد يكتفيه .. ولسانه الذى أخذ « يرطن » بكلمات انجليزية اصبح قادرا على التفاهم اكثر من ذى قبل .

ووقع المعلم محفوظ فى مشكلة جديدة ، ولكنها سرعان ما اندثرت .. هكذا قضت مشيئة الله !

انتقلت الحرب الى الصحراء الغربية .. ولم تعد أوروبا تشهد أى نوع من الصراع ، فقد انطوت كلها مستسلمة .. وعبر الالمان البحر الى تونس ليخوضوا الصراع على رمال صحراء افريقيا الميتة ..

انتقل على المعلم محفوظ عندما ساومه الانجليز ليذهب الى

طبرق .. ومضاعفة الاجر مرتين ، ولم يناقش المعلم محفوظ بل ركب اللورى مع « شحنة » من الرجال ومضى بهم جميعا الى طبرق .. ومضت ايسام طويلة وهو محبوس كالفار داخل المدينة يعمل ويقبض ويدخر كثيرا فليس امامه مجال للانفاق .. وعاد من جديد يفكر فى امر الورشة ، او المقهى ، والاستقرار الذى ينشده عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب وينتهى معها كل هذا الثراء .. ولكن تفكيره انقطع فجأة ، فقد استيقظ ذات صباح فاذ بالانجليز هجروا المدينة وقوم جدد يحتلون مرافقها ويحاصرونها بأسلحة الحراب .. وامروه بخلع ملابسه وسلموه زيا جديدا ، بنطلونا ازرق وقميصا من نفس القماش واللون .. ولطشوا منه النقود التى ادخرها ، ثم علم بعد ذلك كله انه يتعامل هذه المرة مع جنس آخر .. مع الالمان ..

وامروه ان يعمل ، وعمل طويلا وبجهد اكبر من الجهد الذى كان يقوم به عند الانجليز ، والسبب ان الالمان اكتشفوا السر الذى لم يكتشفه الانجليز طوال اعوام ثلاثة ، وهو ان المعلم محفوظ ليس نجارا ولكنه يصالح — وهو القوى كالثور — عتالا يحمل البضائع والذخائر على رصيف السكة الحديد . ومرة المعلم محفوظ بمحنة .. ولكنها علمته اشياء كثيرة . فالانجليز لا يأكلون عرق الناس ، بينما الالمان يفعلون هذا !! لم يكن المعلم محفوظ قد اكتشف بعد .. انه وقع اسيرا !!

حتى بعد ان اكتشف ذلك لم يستطع ان يجد تفسيرا لعدم منحسه اجره عن العمل الذى يقوم به .. انه ليس جنديا حتى ياخذوه اسيرا .. كان يعمل عند الانجليز ، والان يعمل عند الالمان ، ولكن فرق كبير بين العمل هذا والعمل هناك .. لو ان هؤلاء الالمان فكوا اسره والحقوه بعمل ونقدوه اجره .. اذن لبقى معهم الى الابد .. فهو لا يعتزم الفرار .. انه فقط يبحث عن عمل .. ولكن هؤلاء الالمان الذين يصرخون دائما لا يفهمون حقيقة موقعه .. لقد وجدوه مع الانجليز فحسبوه معهم .. وهو ليس كذلك على الاطلاق ! .

ولم يكن هناك سبيل للتفاهم مع الالمان .. حتى لو ان هناك سبيلا فلا فائدة ترجى من التفاهم .. واستسلم المعلم محفوظ لمصيره ولم يعد يفكر فى شيء على الاطلاق حتى ولا فى المبلغ الذى لطشوه .
شيء واحد اقلقه .. اين بقية زملائه الذين كانوا معه فى طبرق قبل

الغزو ؟ هل استطاعوا الفرار مع الانجليز ؟ أم قتلوا في المعركة ؟ أم انهم يعملون مع الالمان ولكن في مكان آخر ؟ وهد الارهاق الشديد كيانه ، واستبد به فئسى كل شيء ماعداه .. اصبح همه كله ان يطيع الاوامر فلا يضربه الالمان .. فقد تلقى درسا رهيبا عندما سولت له نفسه ان يسأل الحارس مرة عما اذا كانوا سينقدونه اجره بعد الحرب ، ويومها ضربه الجندي بمؤخرة البندقية على راسه ففقد وعيه لساعات . ولم يفضبه في المسألة كلها الا ان الجندي الذى ضربه لايحتمل لكمة واحدة من قبضة المعلم محفوظ النولاذية ... فقط لو كان بغير سلاح !

وسرعان ما دارت الايام .. واستيقظ ذات صباح على صوت طلقات تأتي من كل اتجاه .. وازبز طائرات يكاد يصم الآذان ، ورائحة حرائق تشتعل في كل مكان .. واحس بان الارض تميد به وانه يفقد بالتدريج توازنه ثم السيطرة على نفسه ، ثم وعيه ..

وعندما استيقظ بعد ذلك بايام كان على سرير في مستشفى طبرق وبلا ذراع ! واكتشف ان الانجليز قد عادوا الى المدينة وان الالمان هجروها ، ومعهم ذراعه « وعرقه » لمدة شهور قضوها يحمل كل شيء كالثور على رقبته على رصيف السكة الحديد ..

ومضت ايام طويلة وهو راقد على سرير في المستشفى .. والعنبر الذى برقد فيه يعج بالجنود الجرحى .. ملفوفين في الضمادات .. حتى عبونهم نفسها مغلقة تحت اللفافات ، وكثيرا ما سمع صراخا في جوف الليل ، ثم حركة غريبة وكم شاهد رجلا معددا على « نقالة » يدفعها انجليزى خارج العنبر ، ووجه الرجل يخفى تحت ملاءة بيضاء .. وكان المعلم محفوظ يرفع اصبعه دائما الى أعلى وبرتل الشهادتين على روح الميت رغم انه انجليزى ، فهو على اية حال غريب في هذه الصحراء ..

وتم شفاء المعلم محفوظ بعد وقت قصير .. وسلمه الانجليز ملابس جديدة ومائة جنيه ثمن ذراعه المبتورة .. وطلبوا منه ان يعود ... فلم تعود الحرب في حاجة اليه بعد ان فقد أهم ما تحتاجه الحرب فيه !!

ولم ينس المعلم محفوظ ان يعد الجنهات المائة قبل ان يغادر طبرق .. ثم « لنع » الشئوال الضخم الذى دس فيه بنطلونى جيش .. وبأكوات

شأى ٠٠ وعدة زجاجات فارغة ٠٠ وخرج من طبرق على قدميه ٠٠ وحذاؤه الذى كان فى قدمى جندي من قبل : يضرب فى الرمل فى طريقه الى ربوة موسى حيث تنتظره العربية هناك .

وعندما انحدر المعلم محفوظ ناحية الربوة قاطعا المنحنى الضيق الذى يفصل طبرق عن الطريق الرئيسى ٠٠ لفت نظره أن كل شئ قد تغير فسى المكان ٠٠ كان الطريق عندما قطعه أول مرة تزيته أشجار السرو العالية ٠٠ ومعالم الطريق الدالة عليه ٠٠ لقد أصبح الطريق مهجورا ولا أثر لشجرة واحدة ٠٠ وثمة فجوات عميقة على الطريق من أثر القنابل تبدو كأنها مقابر مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب .

وعلى امتداد صفحة الصحراء المحيطة بالطريق كان كل شئ يبدو بشما رهيبا ٠٠ عربات مقلوبة وهياكل دبابات محترقة وعظام نخرة أكل الدود ما عليها ٠٠ وبقايا جثث ممزقة وخوذات جثود من جميع الأحجام ، استحال لونها الذى كان اصفر الى لون كالح أشبه بلون المياه الراكدة ٠٠ والجو يعبق برائحة خبيثة ٠٠ ودود كثير يزحف فوق الرمال ، تشرقه جثث القتلى فعاد يأكل منها ٠ ووقف المعلم محفوظ برهة ينظر الى كل اتجاه ، آلاف الجثث مطروحة فى الصحراء . وكأنها فى انتظار نفير رهيب سيدوى صوته فجأة فى الأفق لترتفع من جديد وقد دبّت فيها الحياة !! وبين الجثث كان هناك عدد منها يعرف أصحابها جيدا ٠٠ فقد عاشوا معه فترة طويلة داخل طبرق . ظن يوما أنهم هربوا من الانجليز ٠٠ او يعملون مع الالمان فى مكان بعيد ٠٠ كانت بقايا ملابسهم تدل عليهم ٠٠ واصطرعت بأذنه أصوات مبهمّة بشعة أشبه بنعيق قطع من البوم فى ليل بهيم ٠٠

وعندما رفع بصره الى أعلى رأى السماء وقد اسود لونها تماما ، كانت هناك مظلة من الغربان ٠٠ ملايين من الغربان لايعرف من أين جاءت ولا كيف جاءت ، تصفق بأجنحتها فى الجو ٠٠ وهى هابطة نحو الأرض لتلتقط من الجيف المنتشرة على الرمال قطعا ثم تعود الى التحليق من جديد .

واستبد الرعب بنفس المعلم محفوظ ٠٠ وامتألت نفسه مرارة ٠٠ وود لو يستطيع أن يبصق على الالمان والانجليز وسائر الناس ٠٠ واختلس نظرة الى كم جلبابه وقد تدلى الى جواره بلا ذراع ، و « لفع » الشوال الضخم على كتفيه ومضى مسرعا على الطريق نحو ربوة موسى .

وتساءل المعلم محفوظ بينه وبين نفسه وهو يحث الخطى على
الرمال : ترى ما هي الحكمة في نشوب الحرب بين الناس ، ثم ينتهي الجميع
الى مجرد عظام ؟ واجاب على سؤاله بنفسه : قد تكون الحكمة من وراء
الحرب هي اطعام هذه الملايين من الفريان !!

ومصمص المعلم محفوظ شفتيه في اسي عميق وهو يسرع الخطى
صاعدا نحو الربوة .. وتذكر في تلك اللحظة الدودة الرفيعة الطويلة في
جذع الشجرة وامامها الخبز والماء !!

وعندما تكور حول نفسه بجوار الشموال في العربة اللوري ، اختلس
النظر نحو السماء .. كانت لاتزال سوداء .. بلون ملايين الفريان التي
راحت تصفق بأجنحتها وهي تهبط نحو الارض لتلتقط بمخالبها نتفا من الجيف
المنتشرة على صفحة الصحراء !!

واعظ الليمان



كانت الشمس تلهب رمال الصحراء العريضة
المحيطة بالليمان . ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد
عدة أميال من مكان السجن . . ولا ثمة طيور شاردة في
الجو ، ولا بئر ماء . . ولا أثر إطلاقاً للحياة ، لم يكن
هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب
وصقور الجو الجائعة . وكان الطريق من المدينة إلى
السجن طويلاً مرهقاً ، والعربة الوحيدة التي صادفها
واعظ السجن لتنقله إلى هناك ، عربة نقل تستعمل في
نقل اللحوم مرة كل أسبوع إلى هؤلاء الذين لفظتهم
الحياة بعيداً عنها .

كان الواعظ بديناً قصير القامة ، أحمر الوجه ، يبدو للوهلة الأولى
كأنه من عهد الريف الأثرياء . وكان حديث التخرج ، وكانت وظيفة واعظ
السجن . . هي أول عمل يقوم به في الحياة .

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما عساه سيقوله في صباح الغد
للمذنبين من نزلاء الليمان . وتذكر وهو جالس بجوار السائق ، والعربة تهزه
هزا عنيفاً — كل خطب الواعظ التي حفظها عن ظهر قلب ، خطبة رمضان
المعظم ، وفيها الحث على الصوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج . . وفيها
المناسك جميعاً ، وخطبة رجب وفيها النهي عن زيارة المقابر و . . . و . . !!
وابتسم الواعظ في سرور ، أنه لم يزل يحفظ هذا كله ، وفي جعبته عدد
لا بأس به من الآيات والأحاديث . .

واستقر في مقعده مطمئنا الى النجاح الذي سيصادفه غدا عندما يقف امام حشد المدنيين ليعظيهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذي يرفعه الله الى سمواته . ودس يده في جيبه فأخرج منديله الكبير ، وجفف به عرقه الذي ظل يسيل من فوق جبهته فملاً عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه . وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فأغمض عينيه وراح في نوم عميق .

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي ، كانت الشمس قد توسطت الافق ، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شدة الحرارة ، وكان قد قضي ليلته غارقا في نوم عميق انساه طول الرحلة ، ووعورة الطريق . وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول افطاره ، وكان شهيا لذيذا وبكميات ضخمة ودهش لوجود مثل هذه الاصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل اليمان . . لابد انهم سعداء هؤلاء النزلاء ، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران — في عالم الحرية — ايام ان كان طالبا في الازهر . . لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الاصناف .

لم يفكر طويلا في هذا الامر الذي بدا غريبا في نظره . . وراح انشاء تناوله الطعام يفكر في الخطبة التي اعدّها . . والتي يرجو من أعماقه أن تحوز رضا مأمور اليمان ، وتجشأ الشيخ عبد الحميد — وهذا اسمه — وهسو يخطو امام الحارس في طريقه إلى مكتب المأمور . . ليتعرف اليه ، اذ لم تكن امامه الفرصة ليقوم بهذا العمل في مساء أمس عندما هبط السجن في عربة اللحوم .

وكان غريبا عليه ايضا هذا الذي صادفه في شخص المأمور ، فقد كان رجلا بدينا تدل ملامحه الفليضة على الطيبة والهدوء . وكان فوق هذا وذاك مطلعاً على كتب النحو والبلاغة ، وآراء الشراح القدامى والمحدثين . وبعد ان انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين . اتخذ المأمور سمت الحساكم وقال مخاطباً الواعظ بعد ان اصلح رباط عنقه :

— اننا هنا اسرة واحدة . وانا طيب جدا ، مادام النظام هنا على اكمل وجه . والرجل الذي يعمل داخل السجن ، هو في الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جدا مادمت مخلصا لها ، مقبلا عليها ، وارى من واجبي أن أخبرك ان زميلك الذي حللت انت مكانه ظل معنا هنا لمدة

طويلة . كان فيها مثالا للكفاية والاخلاص . ولكنه نجاة نسي اصول مهنته
فأخذ يتدخل فيما لايعنيه . واصبح هو سببا قويا في تمرد المذنبين على الاوامر
فقد كان يتدخل دائما في طريقة معاملة السجائين للمسجونين . ولكنه نال
جزاءه . فقد نقل من هنا الى جهة نائية . فانا لاحب شيئا قدر حبى للنظام .
وأضحى فى سبيل تدعيمه بأقرب المقربين الى .

تصيب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصة
الواعظ الذى سبقه . وجف حلقه تماما عندما انهى المأمور قصته بخبر نقله ،
واستعاذ برب العباد من شر الشيطان الرجيم ، ودعا الله سرا ان يوفقه فى
عمله . فيعمل آمنا مستقرا ويجمع قدرا من المال ليشتري به قطعة ارض على
« حرف » التربة كما فعل الشيخ رشيد ، والشيخ سلمان ابنسا قريته ...
وزميلا الدراسة . . !

وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المأمور وهو
يتمتم باسم الله ، والحارس يخطو امامه فى الردهة الضيقة الطويلة ليقوده
الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته .
وعندما اطل على الفناء كان الحر لايزال شديدا ، ورأى اكثر من الف
مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال فى مواجهة منصة صنعت خصيصا
لتقى الواعظ من حرارة الصيف فى تلك المنطقة الجافة الحارقة . وحول
الجالسين اصطففت فرقة من الجنود المسلحين ، وقد صوبوا اسلحتهم الى
القطيع البائس . وكان اللفظ يدور شديدا بين الجالسين وكأنهم فى معركة
كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماما عندما اقترب الواعظ من الجمع
المحتشد ، وتركزت كل النظرات عليه . . . حتى نظرات الحراس ، واحس
الشيخ عبد الحميد بأهميته البالغة ربما للمرة الاولى ، فتحسس جيبه ،
وأصلح من وضسع العمامة . وثبت بصره بالارض وهو يصعد السلالم
الخشبية المؤدية الى المنصة . وألقى نظرة شاملة على كل من حوله . ثم
رفع صوته بالتحية وبدأ يلقي موعظته فى صوت رتيب ونبرات حلوة . ولكن
هبت الاصوات من جانب الجالسين :

— هس يا جدد انت وهوه

— اللي يحب النبى يسكت

— خلونا نسمع الكلام المفيد

ويبدو أن أحدا منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد ، فـظلـت الموضوعات تتصاعد من حوله ، وكأنه يعظ في سوق • ولم يثنه هذا عن النوقف • فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة ... وهو شجاع ، فواصل حديثه اليهم :

— ايها الناس ... امرنا الله باتباع طريق الخير ... والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره • نهانا الله عن الخمر ... فلا نقربها • وعن الميسر فلا نمارسه ، حكمة سماوية ... للبعد عن الخطيئة التي يزينها الشيطان ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه • فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية • والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب ، فاتقوا الله يا معشر المسلمين تناولوا رضاءه !!

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجف عرقه الذي سال من جبينه على عينيه • واحس ارهاقا شديدا • وصعوبة في التنفس لابد انه اجاد واحسن والا • لماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسي نفسه والقى الشيخ عبد الحميد نظرة على من حوله ليرى وقع حديثه في نفوس السامعين • لم يكن هناك من ينظر اليه ، المذنبون يتجادلون في ضجة ... ربما من اجل عملية بيع وشراء • ولقائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، واوراق لامعة تتناولها الايدي لتسلمها الى اخرى • والحراس مستندون الى نوهات بنادقهم ، وعيونهم مغلقة في اغفاء لذيدة • وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماما انه اجاد اختصار موضوع الموعظة ، وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لا يستمع اليه هؤلاء الجهلاء !!

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلا حديثه ، وفي هذه المرة بصوت اشد :

— ايها الناس ، ان الله يأمركم بالزكاة • ففي اموالكم حق للسائل والمحروم • فلا تكنزوا ثرواتكم فتجنوا حسرة الدنيا ... وعذاب الآخرة ، ولا تبذروا في اموالكم ، فقد نهى الله عن التبذير ... ان المبذرين اخسوان الشيطان • فعلى كل منكم ان يطهر ماله بالزكاة •

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط أنفاسه ، وعاد من جديد ينظر الى الجمع المحتشد امامه ! كان الجميع مشغولين عنه وعن حديثه بما يبدو أنه أهم من ذلك . عمليات بيع وشراء على الطريقة التى كانت سائدة يوما ما قبل أن تخترع النقود . والحراس فى نفس الاغفاءة اللذيذة ، واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثير على هؤلاء الناس . . . وقد نجح من قبل فى السيطرة على اهل قريته عندما كان يخطب فيهم الجمعة خلال زيارته المتعددة لهم فى فصل الصيف . . . وكان لم يزل طالبا . . . والان وهو يعمل كواعظ رسمى لا يستطيع ان يلفت اليه نظر هؤلاء المذنبين . واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد . . . وهو لا يدري تماما ماذا يجب عليه ان يفعل . هل ينسحب ويمشى ؟ ولكن هذه قد تحسب عليه . اذن هل يصرخ فيهم ان انتبهوا ايها الكافرون ؟ . . . ام . . . وقبل ان يمضى فى تفكيره للعثور على حل لهذه المشكلة . انتبه على صوت اجش يرتفع صائحا :

— انتبهوا .

وعلى الاثر ظهر المأمور وبجانبه كبار الضباط . وعدد كبير من الحراس ، متبلين جميعا فى موكب مهيب تحو منصة الشيخ . وانتفض الحراس فى وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم . وصمت المذنبون وكانهم جثث فى مقبرة . وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الآخر ، فقد اخذته روعة الموكب المهيب . واختلطت فى ذهنه جميع المواعظ التى حفظها عن ظهر قلب طول حياته الماضية . وارتفع صوته من جديد ، وكان المأمور قد اتخذ له مكانا على مقربة من الحشد الكبير .

— ايها الناس ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . . « وكل عمل ابن آدم لنفسه الا الصيام فهو لى وانا اجزى به » والصيام دواء لمرض التخمّة ، ولا تشعركم بما يلقاه المحرومون من اخوانكم فى الانسانية ، فتعطفون عليهم ، وتحسنون اليهم . وترزقونهم مما رزقكم الله .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا . كان الصمت لا يزال مخيما على الجميع ، وهم ينصتون فى هدوء ويمصصون شفاههم فى « طرقات مسموعة » ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التى وقف فيها المأمور . وكان يبدو عليهم التأثير الشديد لما يقوله ورضى الشيخ عبد الحميد عن نفسه

كثيرا ، وراح يربت بيده على صدره العريض وكأنه أفئدتهم قد تفتحت للتوجيه الحكيم الصائب . لقد آمن افراد هذا القطيع أخيرا ، امنوا بالصلاة والصيام والزكاة . . والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا وغشيت عيناه سحابة من اثر الرضاء وعاد الى حديثه يلقيه فى عزم وقوة وعيناه لاترى شيئا امامه سوى الاستقرار الذى سيلقاه فى عمله . . وقطعة الارض التى سيشترىها بجوار التربة . ولم لا ؟ وقد ران الصمت على الجميع واستطاع ان يغزو قلوبهم بالايمان ؟

الى طما



اخيرا جاء القطار ونهض هريدى عبد العال من مكانه على الرصيف ، ورفع الشوال الهائل الذى يحوى كل ما معه من هدايا لاسرته القابعة فى زاوية مهجورة من زوايا الصعيد . وقذف به داخل القطار ، ورفع ليل جلبابه بين أسنانه وأمسك بناقذة القطار وراح يجرى معه ، وسقطت فردة خذائه الممزق تحت العجلات وخطر له أن يترك القطار ليجرى خلف (الفردة) ولكنه طرد هذا الخاطر بعد أن وجد نفسه فجأة وبطريقة ما داخل القطار ، والشوال الضخم بين يديه يحاول عبثا أن يجد له ولنفسه مكانا بين مئات من أمثاله افترشوا أرضية العربة المظلمة وراحوا يتحدثون ويهرثشون غير ملقين بالا الى من يدوسون فوقهم بالاقدام .

ووجد هريدى لنفسه مكانا وسط هذا الزحام وفتح الشوال ليرى بنفسه أن الهدايا لم تمس . ولكن الغضب استبد به عندما اكتشف أن زر الشمام قد أصيب بضرية فى جنبه وأن كيس السكر قد انفط ، وزجاجة المزيج قد سالت فلطخت كل شيء . وطوى هريدى الشوال ووضعته تحت جنبه عندما بدأ القطار يتحرك نحو الصعيد . وخطر له أن ينام ، فان أمامه أكثر من عشر ساعات حتى يصل القطار الى طما ، ومن هناك سوف يركب الجلزونة الى بيت الحلاجى ، وبعدها يستطيع السير على قدميه الى حيث يشاء .

ولكن حديث المسافرين وهرشهم ونداءات باعة القازوزة واللبن والبيض والسميط وكذلك الهدايا التي في الشوال ، والجنيحات العشريين التي في جيبه ، كل ذلك طرد النوم عن عينيه ، فظل ساهرا يرقب أعمدة التلغراف وهي تجري مسرعة في الطريق المضاد وكأنها أطفال مذعورة تجري مهرولة في طلب الأمان .

وغاب هريدى تماما عن كل ما حوله ، وتذكر اليوم الذى جاء فيه الى القاهرة ، أول مرة ، حدث هذا منذ عام . كان الوقت ظهرا والمكان محطة مصر ، والزحام على أشده وعربات كثيرة في عدد جميع الحلزونات التي تمر على ميت الحلاجى في عام كامل . . . تجري في كل الاتجاهات ومركبات حديدية تحدث ضجيجا يصم الأذان وباعة شمام وبطيخ وورق ، وخلق كثيرون أكثر من كل الذين يسكنون الصعيد ، ورائحة غير ذكية والناس مجهدون صفر الوجوه ، مرضى جميعا بالسعال ولكنهم في ملابس نظيفة وأحذية جديدة ومع بعضهم نساء بيض جميلات . ونظر هريدى الى قدميه العاريتين المتورمتين وجلبابه الممزق ، وتذكر صابحة زوجته ، وتمنى لو كان له حذاء وأمسك في يده بورقة مطوية وسار في الطريق .

وقبل أن يقطع مسافة طويلة استوقف أفنديا كان يعبر الميدان مثله ، وأبرز له الورقة المطوية فألقى الأفندى نظرة عليها ثم أشار عليه أن يمضى الى الامام ثم الى اليمين ثم الى الشمال ثم . . . أشياء كثيرة معقدة لم يفهم هريدى منها حرفا ، حتى الورقة التي تحمل العنوان لم يحصل عليها هريدى فقد أخذها الأفندى وجري فجأة وباقصى سرعة خلف حلزونة ضخمة كانت تجري مسرعة ولم يلبث أن أصبح الأفندى داخلها ، وغابت العربية مع العنوان عن الأنظار .

وهكذا عثر هريدى على الشيخ أحمد مروان متعهد الانفار بعد أربعة أيام ، قضى ثلاثة منها في قسم الموسيقى . . . ولم يدر هريدى السبب في هذا ، كما أنه لم يدر أيضا السبب في أنهم تركوه ، المهم أنهم عندما أخذوه سألوه عن اسمه ومقر إقامته وصناعته ، وكان هريدى صادقا فلم يذكر سوى أنه يملك جسما قويا كالثور يستطيع أن يهدم به حائطا ، أو يجر به حلزونة ، أو يصرع به رجلا من رجال المدينة الصفر الوجوه .

واهتز القطار فجأة ، وكانت الهزة قوية أيقظت هريدى من أحلامه ودفعت

بكثير من الجالسين الى الوقوف ليروا من النوافذ حقيقة الامر ، وهتف بعضهم
تصليح : ٠٠ فيه تصليح فى السكة ٠٠
وهتف البعض الآخر :
- يامستمجل عطلك الله .

ثم خيم الهدوء من جديد . . وتوقف القطار قليلا قبل ان يسير وعساد
هريدى يذكر تلك الايام منذ عام كيف افه ظل عاطلا بلا عمل عدة اسابيع . ثم
أخذه المعلم مروان ليعمل فى عمارة ، وكان العمل سهلا ، يحمل على كتفيه
خمسین طوبة ويصعد بها على سقالة وثبا كالبهلوانات الى الدور الخامس ثم
يعود ، وعند كل مساء كانوا ينقدونه رايلا كاملا وصرف هريدى الريال فى اليوم
الاول ، وفى اليوم الثانى وبقية ايام الأسبوع وعندما اخذ يقتصد توقف العمل
فى العمارة ، ولم يعد البناء فى حاجة الى مزيد من الطوب ، وهكذا مضت اسابيع
أخرى وهو بلا عمل وأحيانا بلا طعام ، اما الماوى فمضمون ، فى الساحة التى
يملكها المعلم مروان فى حوضن الجبل عند الدراسة ، وهكذا عرف هريدى
الدراسة والازهر والعباسية أيضا حيث كان يعمل فى العمارة . وعرف كثيرا
من بلدياته فى المقهى التى يجتمعون بها كل مساء يدخلون المعسل ويشربون
أقداح الشاي الاسود ٠٠ ويلعبون الطاولة وأحيانا يأكلون العيش القمح مع
الفول ودخل هريدى فى عمل جديد وخرج منه الى عمل آخر ، وفى كل يوم
تنشق الارض عن عماره ضخمة ، ثم تنتهى لتقوم بجوارها او فى حى آخر
بعيد عمارة مثلها وهريدى ينحمل الطوب على كتفه ويغنى وهو يتأرجع على
السقالة ويشرب اكواب الشاي فى فترة الغداء ، وينام فى الليل على الرملية ،
كم هى باردة لذيدة فى الليالى الحارة اعظم بكثير من الارض الساخنة
الصلبة التى كان يفتريشها فى الصعيد .

وتنهد هريدى فى عمق ، وهو يسترجع فى ذاكرته تلك الليالى البعيدة .
وارتجف بدنه كله عندما تذكر ٠٠ كيف خطر له ذات مساء وهو جالس على
الرمل ان يترك زوجته واسرته الى الابد وان يخلص رقبتة من تلك العلاقة التى
تجعله يدور مجهدا حول نفسه ، كالثور الكبير ٠٠ وتذكر كيف استبد به هذا
الخاطر حتى اقلقه ، وكيف استقر رايه ذات مساء ، وهو يجلس وحيدا على
الرملية واصابعه تعبت فى بطن الكثيب البارد على الا يعود الى الصعيد ، أف
لهذه الحياة التى يعيشها الناس هناك ، حيث الظلام والنساء اللاتى فى شكل

غربان الجو ، والعيس الذى ينافس الطوب ، أمسا هو ففى مصر ٠٠ أم
المدائن كلها . . هنا الفول المدمس بكثرة والعيش لين يبتلعه الناس بسهولة ،
وشوارع نظيفة ونقود ، الناس هنا يختلفون عن الناس فى قريته بهادة ،
وفى ميت الحلاجى وفى طما ٠٠ هنا الناس يبدون أكثر بهجة وأشد نظافة
وأصواتهم أكثر رقة وجيوبهم عامرة .

وعجب هريدى ليلتها لان الناس هنا اشد غفلة من الذين هناك ، انهم
هنا يقطعون الوقت فيما لا فائدة فيه ، انهم يذهبون الى الخلاء والى الملاهى
والى النهر . وهو لا يعرف طعما لهذا كله ، ولو ان الناس هنا أصحاب فطنة
حقا لقتلوا الوقت كله فى الاكل ؟ الاكل هنا متوفر والناس لا يعرفون قيمته ،
ولو ان كل هذه الكميات الضخمة من الفول والطعمية والباذنجان المخل فى
الصعيد لآتى الناس عليها فى لحظة ، ولكنه أحيانا يرى أصحاب الدكاكين وهم
يلقون ببعض فضلات هذه الاشياء فى الطريق .

واهتز القطار من جديد ، وتمهل فى سيره قليلا ووقف بعض الركاب ووقع
البعض الآخر ، وجرى بعضهم نحو النافذة ، وفتقوا . المنيا وداس النازلون
والصاعدون على الجالسين ، وتململ رجل كان يفترش الارض بجوار هريدى
وابدى تبرمه من هذا الحذاء الضخم القذر الذى انحشر فى قدمه ، وصاح
رجل عجوز كان يتمدد تحت كرسى : - استحملوا بعض يا خلائق . دى كلها
ساعتين والعمر كله يومين .

ومصص بعض الجالسين شفاههم فى اعجاب ، وهتف احدهم :
سربنا ينوتها على خير .

وتحرك القطار من جديد فى طريقه الى أسسيوط ، وعاد هريدى الى
ذكرياته فى مصر ، الى هذا الخاطر الغريب الذى استبد به بعض الوقت
فى ضرورة هجر أسرته وزوجته ، والصعيد كله ، ثم تذكر ماحدث بعد ذلك .
وكان قد بدد كل ما اقتصده ، ولماذا يقتصد . انه الآن ينوى ان يفعل ذلك .
ولكن خاطرا ملحا ظل يطرق خلايا مخه بانتظام وفى قسوة شديدة وجوع مسعور
نحو المرأة يأكل كيانه ويكاد يحيله الى شعلة

وهمس ليلتها فى اذن بلال ، الصعيدى الزنجى الذى جاء الى مصر منذ
خمسة اعوام ، همس له برغبته الجنونية ، انه لم يكن يحس هذا الاحساس

من قبل في الصعيد ، ربما لان زوجته كانت في شكل الغراب . عجفاء مثل عود الحطب ، وربما هو الطعام اللذيذ الذي حرك في نفسه هذا الغول الرهيب وقاده بلال في ذلك الصباح الى الجبل بجوار المشرحة ، حيث بعض النساء الممتلئات الملطخات الوجوه بكل مافى الوجود من هوان . وفي وجوههن بثور غريبه ، ومن ملابسهن تفوح رائحة غريبه ، ولكنهن اجمل بكثير من التى تنتظره في بهاده مع نصف دسته من الاطفال .

ولن ينسى هريدى ماحدث ، ضربه بعض الرجال ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه وسلبوا منه الريال الذى كان معه ، ومع انه قوى فى حجم الثور والآخرين ضعاف كالذباب ، الا انهم كانوا يتحركون بسرعة عجيبة ، ويضربونه في وجهه وعلى رأسه في مهارة وكأنها طبقا لخطه وكان يود لو يمسك بأحدهم ولكنهم لم يمكنوه وعندما تركوه لم يستطيع أن يفتح عينيه . وعندما فتح عينيه وجد نفسه داخل حلقة من الجنود السود مثل بلال وفي ايديهم كرابيج .

واهتز القطار فجأة ، وقام بعض الناس ووقع البعض الآخر ، ورفع هريدى يده يتحسس قفاه وظهره ، صحيح ان الالم زال ولكن آثار الضرب المبرح بالكرابيج مازالت في مكانها هناك وكأنها حدثت بالأمس .

وابتسم هريدى فى خبث شديد ومضى وقت طويل قبل أن يسير القطار ، وسأل هريدى جاره عن الساعة ، وسأل الجار رجلا آخر . وسأل الجار الآخر جارا آخر ، ثم جاء الجواب من بعيد ، من رجل كان يجلس في آخر العرببة .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والحر يكتم الانفاس ، ورائحة الرجال مختلطة برائحة الشمام برائحة البطيخ برائحة المزيج . وعاد هريدى يهرش في قفاه وفي ظهره ؟ وفي رأسه تتلاطم الافكار والذكريات متزاحمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، والمشاهد تترى امامه كاعمدة التلغراف التى تجسرى مذعورة على الطريق المضاد والتى أخفاها الظلام عن عينيه .

وعاد هريدى يذكر كيف نام في الساحة عشرة ايام بعد . . « العلقة » لم يستطع ان يبرحها ، وكيف طرد عن نفسه خاطر الانفصال عن أسرته وزوجته وعن الصعيد ، ثم عاد الى العمل من جديد ، من عمارة الى أخرى حتى جاءه

المعلم ذات يوم وقاده الى معلم آخر . فسلمه لرجل نظيف لا يبدو مثل الآخرين قالوا له انه مهندس وان عمله سيكون بعد ذلك الحفر فى الرمال دون ان يحمل طوبيا او يتسلق عمائر . . . شئ لا فائدة فيه ولكنه سيتقاضى اجرا كبيرا . . . ثلاثين قرشا فى اليوم ، وسيعمل بلا انقطاع .

وفى جوف الصحراء بعد الهرم راح يضرب الفأس فى جوف الارض . . عمل مريح ، وفيه نوع من الاستقرار وهؤلاء البلهاء يدفعون الاجر ، وهو لا يفهم معنى لكل هذا العمل التافه ، الحفر فى الرمال . . ربما جاءه الحظ الذى اصاب بعض الناس من قبل . ان بعض الناس فى المدينة لا يعملون شيئا ويتقاضون اجرا كبيرا . والافندى الذى يعمل معه يجلس فقط على الكرسي خلف مكتب كبير وفى الظل لا يحفر الارض ولا يحمل الطوب ، ورغم ذلك فيبدو انه يتقاضى اجرا كبيرا لانه يدخل السجائر فى علبة ، ويشرب الشاي والقهوة ويدفع أحيانا بقشيشا سخيا لهؤلاء الذين يحفرون ، والمعلم مروان مقاول الأنفاق انه لا يفعل شيئا هو الآخر ، الا الجلوس على المقهى ولعب الطاولة وتدخين المعسل ، ومع ذلك فهو يتقاضى اجرا كبيرا ، اتاح له ان يبني عمارة فى مصر ، ويشترى عشرة افدنه فى طما ويتزوج اربع نساء . . انه الحظ لابد اذن قد هبط عليه هو الآخر ، والا فما معنى كل هذا النعيم الذى يرفل فيه . . الحفر فى الرمال خمس ساعات والاجر ثلاثون قرشا ولا توجد هنا بطالة كما هو الحال فى شغل العمارات ويبدو انها لن تكون . . لان الصحراء عريضة طويلة ، والحفر فيها يستغرق الدهر كله . .

وتذكر هريدى كيف مرت الشهور رتيبة هينة حتى حدث شئ عجيب . . منذ اسبوع واحد وكان هريدى يضرب الفأس فى الرمل فى بطن ممل فليست هناك رقابة ، الافندى فى المنزل والريس فى القهوة ، والصحراء لن تتصدع اذا تأخر العمل فيها قليلا او سار فيها فى بطن شديد ، وعاد هريدى الى الضرب بالفأس فى باطن الصحراء ، ثم مضى وحده يسرع فى العمل ويرفع الفأس الى أعلى فى نشاط ويضرب فى الارض بقسوة ، لا يدري لماذا ؟ ربما لانه تذكر زوجته وامه التى تركها تموت فى الصعيد ولكنه توقف فجأة عن العمل فقد غاصت الفأس فى الرمل ، وعبثا حاول أن ينزعها دون جدوى واستطاع اخيرا عندما استعان ببعض الرجال . وخلف الفأس فى الارض فجوة كبيرة مظلمة سوداء كقلب المعلم مروان ، وانحنى هريدى ينظر داخلها فى بلاهة ثم قفز من شدة الرعب . . كان

هناك شيء أشبه بالحجرة ، وجثث كثيرة ممددة وكأنها نائمة وأوانى طبسج وأشياء أخرى كثيرة من بينها أرغفة خبز تبدو تماما مثل خبز الصعيد .

وامتقع لون هريدى وهو يفكر فى هذا الامر ان هذا الذى يراه لابد مقبرة هائلة ، وهؤلاء موتى منذ زمن بعيد . . تذكر كلمات الشيخ الدسوقى واعظ القرية التى يرددها فى المسجد كل يوم جمعة ، وهى ان الارض تخفى تحتها جثث ملايين الخلق منذ ياجوج وماجوج .

وهريدى لايدرى متى كان ياجوج وماجوج هذا ، ولكن لابد أنهم ظهروا منذ زمن بعيد يضرب فى بطن التاريخ الى غور سحيق .

واصفر لون هريدى عندما خطر له انه ربما كان هؤلاء القوم من « المساخيط » الذين سخطهم الله لضلالهم .

وتذكر ثانية كلمات الشيخ دسوقى حيث كان يقول ان الله كان يسخط القوم الظالمين ، وانه سيسخط العالم قريبا بكل ما فيه ومن فيه ، اذن كان الشيخ دسوقى يقصد ان العالم كله سيتحول الى شيء من هذا القبيل وخطر له ايضا ان هؤلاء القوم ربما يمتون الى الافندى المهندس بصلة قسراية ، وان الغرض من حفر الصحراء كان هو العثور عليهم . المهم ان هريدى انتهى من هذه الخواطر جميعا بان صاح وبلا وعى :
— يارجاله ، يارجاله ، يارجاله . .

وهرع الرجالة اليه وتوقف العمل فى كل مكان الا عند هريدى . ونزل هريدى من الفتحة الى الداخل ، كانت الرائحة عفنة قوية . والناس ينامون فى هدوء تبدو على وجوههم راحة السنين الطويلة .

ونظر هريدى اليهم فى اشفاق وذعر . . وفى حسد ايضا . . صحيح ان الدسوقى كان صادقا حينما كان يقول : لاتأتى الراحة الا مع الموت . . وراح هريدى يذرع ارض الحجرة المظلمة بحثا عن شيء ، لم يكن هناك سوى أحجار فى أحجام مختلفة . .

وفجأة عثر على شيء لامع لابد انه كنز ، وعندما وضعه فى جيبه ، كانت الفتحة قد اتسعت أكثر ، وأصبح فى وسع الرجال ان يروه .

وجاء الرئيس بعد ساعة ، وجاء المهندس بعد ساعات ، وتوقف العمل في ذلك المساء ، ونام هريدى بجوار الفتحة تحت الحراسة ، كانت المنطقة قد تحولت كلها الى نهار بفعل الاتوار التى جلبها المهندس ، والمكان كله طوقه الجند المسلحون ، واغتم هريدى لهذه النهاية السيئة ، لابد أن هذا الذى عثر عليه كنز تملكه الحكومة ، أو مقبرة.تضم رفات احد اجداد رجال الحكومة .

وسهر هريدى الليل بطوله يفكر فى الاقوال التى سيدلى بها ، انه لايقصد هذا العمل على الاطلاق . . والافندى المهندس هو الذى أمره بذلك وعندالفجر سقط هريدى،نائما من الاعياء . وعندما جاء الصباح أيقظوه ، وقادوه الى خيمة نصيبها الجند بسرعة ، ودس يده فى جيبيه وأخرج القطعة الصفراء والقى بها فى الرمل وداس عليها بقدميه .

ودخل هريدى الى الخيمة . . كان هناك ضابط صفيير السن ، والافندى المهندس وافندية مثله . . بعضهم يلتقط مناظر ، وبعضهم يدون شيئا على ورقة ، لابد انهم رجال النياية . . وهم هريدى أن ينحنى على حذاء المهندس يستعطفه ويستحلفه بكل مقدس أن يتركه ، ولكن صوتا رتيبا هادئا جاءه من الخلف من الضابط الجالس فى الخيمة :

— انت الملى دخلت مقبرة فرعون فى الاول ؟

— أنا مظلوم والله العظيم يابيه

ولم يلتفت الضابط الى الاستعطاف وسأله :

— كانت الساعة كام .

— والله العظيم مظلوم يابيه ، احنا ناس غلابة مامعناش ساعات .

وضحك الناس الجالسون ، لابد انهم يسخررون منه ، وهكذا الناس يضحكون دائما من كل ما يصيب الآخرين من شرور ، وانتهى التحقيق بسرعة وخرج من الخيمة دون أن يمسه أذى ، وبجوار الفتحة قضى هريدى خمسة أيام خلوال مسح خلالها كل الصحراء المحيطة بالمقبرة ، بحثا عن القطعة الصفراء التى ألقى بها ، واول أمس نقدوه الاجر كاملا ومكافأة عشرة جنيهاات وقالوا له اذهب اذا شئت . . هؤلاء البلهاء .

وذهب هريدى وهو لا يصدق، واشترى الشمام واقة الارز وكيس السكر وعاد الى طما وهاهو القطار يقف فيها الآن والنازلون والصاعدون لن بدوسوا عليه . . انه سينزل معهم وسيدوس هو أيضا على الآخرين . .

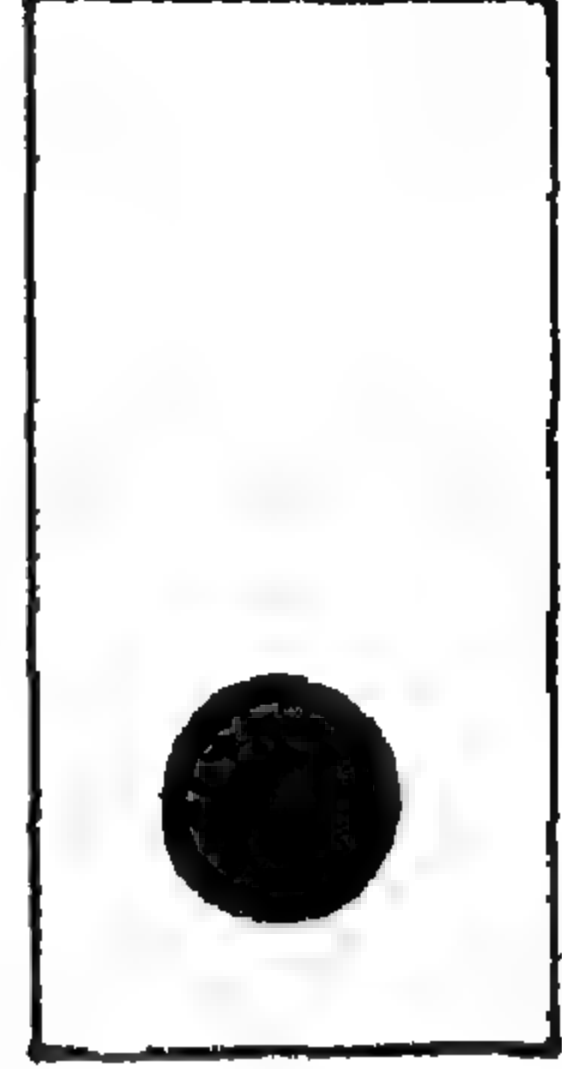
وتحسس هريدى الجنيهاات العشرين التى فى جيبه . وفتح الشوال من جديد ليرى مافيه كان كل شىء مكانه ، حتى نسخة الجريدة التى تحمل صورته عند الفتحة والتى اشتراها بقرش صاغ لتتفرج عليها زوجته وكل الرجال فى بهادة .

وهبط هريدى الى الرصيف ، وقبل ان يترك الرصيف كان القطار قد تحرك . . ونظر هريدى الى قدميه كانتا عساريتين تياما ، لقد نسى ((الفردة)) الثانية داخل القطار ، اما الفردة الاولى فقد سقطت منه تحت العجلات عند بداية الرحلة .

وخطر له ان يجرى وراء القطار لياتى بالفردة ولكن القطار كان قد اختفى مع ((الفردة)) فى الظلام . . ورفع هريدى الشوال على كتفه ، وعلى تراب الارض الطيبة غاص هريدى باصابع قدميه الضخمتين . . ومضى مسرعا فى الطريق الى . . طما !



المرحوم



توقف العمل تماما في القرية فقد مات الشيخ
فراج عند الفجر ، وعمت القرية فرحة شديدة لم تشهدها
من قبل .

وعند الدرب الذي ينتهي الى المرحوم جلس
الشيوخ على الارض في حلقات يدخنون ، ويسألون عن
اسعار القمح وعن موعد تدفق المياه في الترعة ،
ويثرثرون حول سن الشيخ فراج وهل حضر هوجة
عرايى ام انه كان طفلا لا يدرك شيئا .

وراح بعضهم يسرد في حماسة قصص أحداث بعيدة له ، وللشيخ
فراج عندما كان كل منهما فتى في ربيع العمر ، وعلى مقربة من الشيوخ
جلس الفتيان فرحين بالفرار من عناء العمل في الحقول وراح كل منهم يقص
مغامرة حديث بينه وبين الشيخ فراج عندما حاول سرقة ثمار الجوافة التي كان
يملكها المرحوم عند الجسر ، وكيف ضربهم الشيخ فراج بعصا التوت الرفيعة
وكان في جسم كل فتى من ابناء القرية آثار من عصا المرحوم .

وانتشر الاطفال الصغار يلعبون في الساحة الواسعة التي سيقام فيها
« الصوان » في الليل والبشر يغمر نفوسهم ، لان مساء ذلك اليوم لن يكون
كثيبا مثل الليالي السالفة ، فستشع أنوار « الكلويات » وسيستمد نورها في

الساحة وسيلعبون حتى الفجر دون أن يذجرهم أحد فسيكون الجميع في
الماتم حتى الصباح .

وكان الاطفال يرددون وهم يدورون حول انفسهم لحنا مسساذاجا اشبه
بالنواح :

— حانسهر بالليل ، وناكل لحمة على روح المرحوم .

وكان يسكتهم احيانا عن ترديد اللحن مرور شيخ عجوز مخترقا
الحوش في طريقه الى بيت المرحوم حيث يجلس الرجال في انتظار تشييع الجنازة
فيذجرهم بصوت غاضب وهو يلوح لهم بمعناه :

— ماتسكتوا ، جاتكم داهية ..

وكانت النسوة العجائز يجلسن فوق أسطح المنازل المجاورة لبيت المرحوم
يروين في أسي بالغ قصة الساعات الأخيرة لموت الشيخ فراج وكيف أنه
سأل عن فلان .. وفلان وتنبأ بنهايته قبل أن تأتي النهاية بساعات .

وعند باب البيت كان الابن الأكبر للمرحوم يقف والحزن يبدو عليه ، وإن
كانت الفرحة تغمر كيانه في حقيقة الأمر ، فقد كان أبوه يملك طاقما كاملا من
الملابس الجوخ والشاهي ، وكان يستعملها في المناسبات الخاصة وقد جاءت
المناسبة الخاصة ليستعملها الابن .

وكانت فرحته تمتد الى سبب آخر ، هو أن زواجه بمحاسن بنت شيخ
البلد كان مؤجلا لحين شفاء الوالد أو وفاته ، ولقد أصبح الطريق الآن
مفتوحا الى هنائه بعد أن تداركت أباه رحمة الله .

وكان الجو يسوده بعض الفتور فقد كان الجميع في انتظار حضور
نجل الشيخ فراج الذي يعمل موظفا في مصر ، وقد مرت ساعات طويلة قبل
أن يحضر .

وعندما حضر تم تشييع الجنازة في دقائق ، وحمل النعش أريفة ،
شيخ البلد ، ومحمد الخفير النظامي ، وعبد السميع الاخرس ونجله الكبير ،
فقد أصر على أن يحمل أباه حتى القبر .

وعندما جاء الظهر كان الرجال قد عادوا من المقابر ، وتم اعداد

« الصيوان » وجاء المقرئون من البندر ، وجلس الناس يستمعون الى ترتيل آيات الذكر الحكيم ثم خيم الصمت على الجميع عندما حان موعد الغداء ، والتفوا في حلقات يأكلون حتى شبعوا . وكان الغداء ثريدا ولحم ضأن ، فقد كان المرحوم يملك قطيعا صغيرا من الخرفان وكان يرفض بشدة أن يذبح أحدها ، فقد كانت تربية الخراف هواية عند المرحوم .

ولم تنقطع الثرثرة خلال الاكل فقد همس محمد الخفير وسط الشلة التي كان يجلس بينها ضاحكا :

— الله يرحمه كان نفسه فيها .

وعندما انتهى الجميع من الغداء ارتشفوا القهوة على عجل ودرسوا أصابعهم في صناديق الدخان فالتقط كل منهم لفافة ، وغادروا الصيوان مسرعين الى منازلهم . وبقي البعض داخل الصيوان مضطجعين وهم يدخلون في لذة وأصابع أرجلهم تتحسس وبر السجادة الفاقعة الالوان التي فرشت على الارض .

وزحف المساء على القرية وهي تموج في النور ، وصوت المقرئ يلعلع في أنحاء القرية ، وأبناء الكفور المجاورة يفدون جماعات ليشيئوا اللعب وباعة الحلاوة « الغزل » يحتشدون حول الصيوان والابن الكبير في طاقم الملابس الجوخ يستقبل الناس والابن الصغير الذي يعمل في مصر يطوف عليهم بعلب السجائر كلما دخل الصيوان فوج جديد .

وجلس الشيوخ يرتشفون أقذاح القهوة ، ويدسون شيئا لزجا اسود اللون في أفواههم ويسألون الحاج وهدان في الحاج أن يمزج لهم القهوة بالعنبر الذي يحملة .

وجلس الشبان عند باب الصيوان يختلسون النظرات نحو فتيات القرية عند مرورهن نحو بيت المرحوم أو عودتهن من هناك .

ومرت ساعات الليل على « القرية » سريعة شأنها شأن ليالى العيد والمقرئون يتبارون في التجويد ، والفلاحون يمصصون مع أبناء القرية المحظوظين شفاههم عجبا واستحسانا ، وفجأة سرت هممة بين الجميع أشاعت اللفظ في أنحاء المكان عندما حمل محمد الخفير اليهم نبأ هز أعصابهم هذا ، خلاصته أن العشاء لن يقدم لوفود المعزين اكتفاء بما قدم في الغداء .

وأصيب الجميع بخيبة أمل شديدة ، وجلس الشيوخ ساهمين بعد أن
أتوا على ما معهم من الشيء اللزج الاسود اللون ، وتسلك الشبان جماعات
ليسيروا على الجسر فى الهواء الندى ، وهد التعب كيان المقرئين فخفتت
أصواتهم ، وافتقدت الرنين الحلو الذى كان لها فى أول الليل . ولم يلبث
الشيوخ أن تسلكوا هم الآخرون وقد هاجمهم النعاس ، ولم يعد هناك غير
المقرئين ، وبعض الذين فضلوا النوم على السجادة ذات الألوان فناموا
حيث هم حتى الصباح ، وظل الاطفال يمرحون على ضوء المصابيح حتى
ذبلت هى الآخري وأظلم المكان فعادوا الى دورهم من جديد .

ولف الظلام الكئيب القرية وعاد نباح الكلاب يسمع آتيا من بعيد
عبر المزارع والحقول ولم يلبث الفجر أن أشرق عليها وعادت الابواب تفتح
محدثه صريرا أشبه بصوت عربة يجرها ثور على طريق حجري وخرج الشبان
بهرأوتهم نحو الحقول ، والشيوخ على الحمير فى طريقهم الى البندر ،
والاطفال يسحبون البهائم نحو القرعة .

وعادت التعاسة من جديد تحتل قلب كل منهم .

شيء واحد أعاد الامل الى قلوب أهل القرية ، فقد رأوا عند الكوبرى
القديم المتآكل - الذى يفصل القرية عن بقية الكون - حميدان بن الشيخ
عبد الرحيم يسرع الخطى فى طريقه نحو البندر لاحضار الطبيب ، فقد دهمت
النوية آياه ، وتذكر الناس فى القرية أن الشيخ عبد الرحيم مريض منذ أمد
بعيد وأنه لن يعمر طويلا ، وستمضى على القربة أيام قليلة حتى يهبط عليها
يوم آخر فيه حركة . وترفيه .

البولوبيف



بعد القتل الكبير بعدة كيلو مترات ، ترقد قرية المحسمة
ذليلة بين التلال ، فتبدو منازلها المتداعية الى جوار
سلسلة التلال الرهيبة وكأنها عابد صينى يركع فى فناء
معبد بوذى قديم .

واهل المحسمة لا يعرفون ان لقريتهم شأننا عظيما . ولم يسمعوا ان
البلاغات البريطانية التى صدرت من جانب القيادة فى فايد خلال معركة القتال
قد ذكرت اسم قريتهم أكثر من مرة ، ولم يسمعوا كذلك بان محمد حسين
وسعدى كامل اللذين قتلوا خلال المعركة قد صدرت بأسمائهم وقصص
استشهادهم ملاحق خاصة من صحف مصر .

لم يسمع اهل المحسمة شئ من هذا . فهم لا يقرأون صحفا ، والراديو
الوحيد فى قريتهم فى دكان الشيخ عبد القادر ، وهو رجل لا يحب الليل ويعتقد
ان دوره فى الحياة يتوقف عندما تغيب الشمس . . ولكنهم رغم هذا الجهل
المطبق بأهمية قريتهم وذيوع صيتها ، كانوا يعلمون حقيقة واحدة همس القرية
من بعيد . . خلاصتها ان الانجليز يستخدمون الجبل القريب من القرية لاحتراق
بقايا الاطعمة . كانوا جميعا يعلمون السر . . وكانوا جميعا يتوجهون نحت
جنح الظلام الى سفح الجبل ، ينبشون الارض بأظفارهم . بحشا عن شئ من
الطعام لم تصل اليه النار . وكانوا دائما يجدون ، وكانوا دائما يتعجبون لبلاهة
هؤلاء الناس . . الانجليز . ولو أنهم وزعوا هذه الاطعمة على سكان قرية
المحسمة . . مثلا . لنال الانجليز ثواب الدنيا والآخرة ! ولكن ، هكذا شأن
الاقوياء . . والانجليز على الاقل أقوى من اهل المحسمة .

المهم ان اهل القرية كانوا يعلمون انه في ساعة معينة من ساعات النهار تقبل عربية او أكثر ، من عربات الجيش البريطاني فتعبر الكوبرى الخشبي على ترعة الاسماعيلية ثم تنحرف يمينا نحو القرية ، ومن هناك الى سفح الجبل ، حيث تتم عملية احراق الاطعمة على مشهد من اهل المحسمة ، وأحيانا كانت العربات تتأخر قليلا عن موعدها ، وأحيانا ايضا كانت تأتى مبكرة ، ورأى اهل القرية زيادة في الاحتياط اختار واحد منهم كل يوم ليقف على رأس الكوبرى المتهاك ، يرقب عربات الانجليز وهى فى طريقها اليهم ، والى الناس فى المحسمة ان يستمعوا الى هراخ « الديدبان » يعلنهم فيه نبأ ظهور العربات على الطريق .

وفى ذلك الصباح السعيد هتف الديدبان :

— العربية جايه . .

فهرع الناس صوب الكوبرى يشهدون المنظر بأنفسهم ، وعندما راوها سعدوا بمرآها ، فقد حدث ان انقطع ورود العربات سبعة أيام كاملة . ولم تكن عربية واحدة ، كانوا ثلاثا . . وعندما أصبحوا فوق الكوبرى تماما سمع اهل المحسمة صوتا كالرعد ، فقد تهشم الكوبرى وسقطت عربتان فى الترعة واستدارت الثالثة عائدة بأقصى سرعة ناحية المعسكرات . ولم ينتظر اهل المحسمة شيئا ، فقد خلعوا ملابسهم جميعا والقوا بأنفسهم فى الترعة . وانتشلوا السائقين . . وزاح كل منهم يجمع علب الصفيح التى تطفو على سطح الماء ، ويغوص فى الاعماق لينتزع من طين الترعة العلب الضخمة التى استعصت على التيار . وعاد اهل القرية الى منازلهم يحمل كل منهم مجموعة من علب الصفيح . . تحوى لحما محفوظا لم تمسه النار من قريب أو بعيد .

مجانين هؤلاء الانجليز . . هكذا قال اهل المحسمة وهم يلتهمون فى شراهة غذاءهم من محتويات العلب الصفيح ولو كان هذا هو الطعام الفاسد . . أين اذن هو الطعام الصالح ؟

لايد انها حيلة انجليزية — هكذا قال أحدهم — ولايد أن الكبار الانجليز يتعمدون احراق هذه المأكولات ، حتى لا يصاب الجنود بالتخمة . وأكد هذا الذى قال — قوله بحكايات طويلة عن خدع الانجليز . . فقد سبق له أن عمل عندهم فترة خلال الحرب .

المهم أن قرية المحسمة سمعت ذلك اليوم وابتهج أهلها . فقد حشروا بطونهم بما زنته خمسة أطنان من اللحم اللذيذ السهل المضغ وهي كمية كبيرة لم تكن تحلم القرية أن تستهلكها ولو بعد جيل .

رجل واحد شهد القصة من البداية ولكنه لم ينل شيئا . فقد كان عبد المقصود يجلس تحت الشجرة عند الكوبرى عندما سقطت العربية ، وكان هناك عندما اندفع سكان القرية كالسيل المنهر صوب القرعة . وكان هناك عندما خرجوا جميعا من الماء منطلقين بأقصى قوتهم متدافعين كأنهم في يوم الحشر إلى منازلهم . كان هناك ، وراى كل شيء . ولكنه لم يأخذ شيئا . فعبد المقصود بلا ساقين ، وصرخاته لم تستطع الوصول إلى أحد وقت الصراع الرهيب حول اقتناص أكبر عدد ممكن من الصناديق العائمة . ورغم ذلك فقد توسل عبد المقصود لطوب الأرض في المحسمة أن يعطيه أحد ، ولو عليه ليرى ما بداخلها . ولكن لم يرض أحد منهم .

ان المسألة مسألة رزق وهو نفسه كان هناك . ولابد أنه كان مكتوبا عليه ألا يأخذ شيئا . ان لكل منا نصيبه في الحياة ، وسيأخذ كل منا نصيبه . هكذا قال الذين راحوا يفلسفون الأمر لعبد المقصود .

كانت الشمس قد بدأت تختفى خلف قمم التلال المحيطة بالقرية ، عندما وصل عبد المقصود إلى مكانه بجوار القرعة . وكان الجنود الانجليز قد اوشكوا على الانتهاء من ترميم الكوبرى . حين راح عبد المقصود يفكر في الأمر مليا ، وعيناه تبحثان في قلق فوق سطح الماء عن شيء من حمولة الصباح . . ولكن صرخة الية قطعت عليه تفكيره . ولم تنقطع الصرخة ، بل تبعتها صرخات ، وشاهد عبد المقصود اشباحا تهول وسط القرية ، واشباحا تسقط على الأرض . والصراخ يعلو وينتشر . وكأنما شب حريق هائل في أنحاء القرية .

وزحف عبد المقصود من مكانه نحو قلب القرية مستفسرا عن حقيقة الأمر وكان هناك حريق . . ولكن في بطون أهل القرية ، فقد أحس كل منهم فجأة بخناجر حادة تمزق أحشائه . وارتمى كل منهم يفرغ ما في جوفه من طعام . وخرج بعضهم يجرى كالمجنون في أنحاء القرية بحثا عن شيء لا يدركسه . ولم تمض ساعات حتى كانت قافلة من العربات تجرى على الطريق بسرعة نحو القرية ، ولكنها كانت عربات من نوع جديد . وكانت أجراسها تدق دقات منتظمة رهيبة . وعندما وصلت راح الرجال الذين كانوا بداخلها يحملون أهل

القرية على نقالات الى جوفها . وعبد المقصود يشهد كل ذلك عن كذب ، فهو الوحيد الذى لم يشعر بألم . وان كانت امعاؤه تلتوى من الجوع ورنّت كلمة « تسمم » فى اذنه فى الوقت الذى شاهد فيه رجال الاسعاف يحملون معهم ما تبقى من علب اللحوم المفتوحة والمقفلة . علب كثيرة تكفى لاطعام قبيلة . ولكن من اين جاء التسمم لاهل القرية . هل جاءهم من العلب ؟ لا يمكن ، ان عبد المقصود يذكر جيدا ان اهل القرية يأكلون هذا الطعام منذ ان عسكر الانجليز الى جوارهم فلم يصبهم التسمم يوما ، لابد انه المصص اصابهم من جراء مياه الترعة الباردة فى هذا الوقت من الشتاء .

وزحف عبد المقصود نحو الحائط ليفسح الطريق لعربات الاسعاف التى انطلقت بسرعة وسقطت علبة كبيرة من العربية الاخيرة . . علبة كاملة لم تفتح بعد ، تدهرجت على الطريق ، واستقرت الى جوار عبد المقصود ، ومد يده فالتقطها . وراح يقلبها بين يديه يتفحص جوانبها . ثم زحف من جديد على ارض الشارع فى طريقه الى مكانه المعهود عند جسر الترعة . وعندما وصل الى هناك كان الظلام قد بدأ ينشر اريدته على القرية وعلى التلال المحيطة بها . والجنود الانجليز قد اوشكوا على ترميم الكوبرى . واسند ظهره الى جذع الشجرة العجوز . . وابصر قافلة عربات الاسعاف تنطلق امام عينيه من بعيد نحو التل الكبير . . واضواؤها تبدو خافتة . ورنّت فى اذنه « قرقرة » بطنه الخاوية كأنها صرخات اهل القرية . ومد يده فالتقط حجرا دق به العلبة فأحدث بها ثغرة واسعة . وغاص بأصابعه الخمسة فى جوفها . وراح عبد المقصود يمسح اللحم الطرى فى لذة فائقة . وأحس بالراحة تسرى فى كيانه ، وبالسعادة تغمر نفسه . والقى عبدالمقصود بالعلبة الفارغة ، وتنهّد بارتياح عميق . وتدحرج رأسه الكبير على صدره البارز العظام . وراح عبد المقصود فى نوم عميق .

مارام هناك نساء



نفخ الشاويش عبد الرحيم من شدة الضجر ورفع
يده الى فمه فمسح شفثيه ، ثم آمال طربوشه الى
الخلف قليلا ، ووضع البندقية بين ساقيه وأخرج منديله
المحلاوى فجفف به عرقه الذى يتساقط من جبهته
العريضة على غصون وجهه الكالح البارز العظام ..
ثم اعتدل الشاويش فى وقفته فأصبح مثل شجرة
عجوز يابسة ثابتة فى الارض .. وتلفت فى انحاء
العربة الاخيرة من قطار بور سعيد .

كانت العربة مزدحمة ، حارة مزعجة ، ورغم أن النوافذ كانت مغلقة
الا انها كانت تبدو وكأنها تحمل مع الركاب شحنة من التراب !

ونظر الشاويش عبد الرحيم الى نفسه من تحت الى فوق ، ومن فوق الى
تحت ، كانت البدلة « الميرى » كالحة مثل وجهه ، والحزام نازل قليلا عن
المستوى اللائق ، والبنطلون أيضا نازل أكثر من اللازم على الحذاء ،
والحذاء مغبر مجروح فى أكثر من موضع ، وحتى الرباط مفكوك ، وزوج
الكلبشات مازال فى يده ، كان منذ برهة فى يدى مجرم رهيب سـلـمـه فى
القسم فى القاهرة قبل أن يعود الى مقر عمله فى محافظة بور سعيد .

وتذكر الشاويش عبد الرحيم منظر المجرم والكلبشات فى يديه ، وقفاه
العريض الغليظ فى أصابعه هو النحيلة المدببة كانها رجلا دجاجة هزيلة .
وتذكر منظره وهو ساهم أبدا ، مطرق الى الارض فى ذهول على

الدوام . ولكن سرعان ما طرد الشاويش صورة المجرم والكليشات والنظرة
الساهمة الحزينة عن خاطره وعاد من جديد ينظر حوله فى أنحاء العربة
والقطار يجرى به مسرعا كالقدر فى طريقه الى بنها .

وحدث الشاويش نفسه فى أسى . . هؤلاء الجالسون فى بلاهة . .
انهم لا يتعبون مثله ومع ذلك ينظرون اليه نظرات يحمل بعضها معنى الشماتة
لانه واقف « زنهارة » مع أنهم يعرفون أنه شاويش وأنه فى مهمة رسمية لان
البندقية فى يده والكليشات مع استمارة السفر فى يده الاخرى .

وعاد عبد الرحيم يجفف عرقه المتساقط حافرا لنفسه فى تجاعيد
وجهه النحيل قنوات .

واهتز فى وقفته وكأنه سيسقط والقطار يتأرجح وكأنه يجرى على غير
قضبان ، ولم يفكر الشاويش ، فتقدم على الفور الى ثلاثة كانوا محشورين
على مقعد مخصص لراكبين ، وبلهجة آمرة تحمل كل الضجر الذى يحسه . .
وجه الحديث اليهم جميعا :

— فسح يا جدع انت وهوه . . .

وافسح الثلاثة سريعا للشاويش وسقط الثالث الذى كان يجلس عند
الحرف فوق الارض .

وهكذا وجد عبد الرحيم نفسه جالسا على الكرسي والطربوش على
ركبته ويده على المنديل تمسح شعر رأسه الاشيب المبلل بالعرق ، وأطرق
عبد الرحيم فترة يستعيد فيها قواه ، ثم رفع رأسه فى تثاقل وتمتم فى سرعة
يشويهها الضجر :

— لامؤاخذة يا رجاله . . .

ولم يجبه أحد من الجالسين . . ويبدو أنه لم يكن ينتظر جوابا . .
فضرب يده فى جيبه الخلفى وأخرج علبة سجائر من الصفيح الانجليزى ،
وأخرج منها سيجارة رخيصة وضعها بين شفتيه وأشعلها من رجل يجلس
أمامه على الارض بين المقعدين وراح يجذب أنفاسا عميقة .

وسادت فترة صمت قبل أن يتكلم الشاويش عبد الرحيم :

— فاضل اد ايه على بنها ؟

وجاء الجواب من خلفه :

– مايقاش فاضل ٠٠٠

ثم خيم الصمت من جديد ٠٠ ولكن هذا الصمت لم يتعوده الشاويش عبد الرحيم ، والرحلة طويلة ، وهو فى حاجة الى أن يتكلم – أى كلام – ومع أى أحد .

ولكن كيف السبيل ؟ والذين من حوله يبدو أنهم من هواة الصمت البليغ ، وفكر الشاويش عبد الرحيم برهة ثم نظر الى الذين حوله ٠٠ رجل فى ملابس بلدية عجوز طحنته السنون وأكلت معها نور عينيه ، وفلاح يبدو أنه لا يعرف شيئا ، والرجل الثالث الذى كان على المقعد قبل أن يجلس الشاويش فقد آثر الصمت فجلس على الأرض بجوار الكرسى .

وعلى المقعد الامامى كان هناك أفندى يبدو أنه متكبر وخواجه من الاروام ، ورجل فى ملابس متسخة وتحت قدميه صقيحة تحدث ضجيجا كلما اهتز القطار .

ونظر الشاويش الى الرجل المتسخ وراق له أن يتحدث اليه ، فهو وحده الذى يبدو فى حاجة الى الحديث ٠٠ وهو أيضا الذى يستطيع أن يتحدث اليه دون أن يخشى منه صدا .

وبلهجة باردة قال الشاويش للرجل المتسخ متسائلا :
– بتشغل ايه ؟

وانتفض الرجل مذعورا ، وأدار رأسه الصغير الحليق كقطعة بطاطا مسلوقة فى كل اتجاه ، ثم أجاب أخيرا بعد أن تأكد أنه هو المقصود بالسؤال وان السؤال قد يكون للتحرى :
– فى الخردة ٠٠٠

وفتح الشاويش عبد الرحيم فمه فى دهشة بلهاء وهز رأسه قبل أن يقول :

– فى مصر ٠٠ والا فى الاسماعيلية ؟

– فى مصر باذن الله ٠٠٠ انما باشتري الخردة من الاسماعيلية .

وعاد الشاويش عبد الرحيم يقول :

– من الكنوبة ؟ (جمع كامب) .

وابتسم تاجر الخردة فى اطمئنان ودهشة لمعلومات الشاويش
الواسعة ٠٠٠ وأجاب :

— أيوه ٠٠٠

ولكن الحديث انتهى عند هذا الحد ٠٠ وفكر الشاويش فى موضوع
آخر للحديث ، غير أن تاجر الخردة فاجأه بقوله :

— أنا واخواتى ٠٠٠

وانفجرت أسارير الشاويش عبد الرحيم عن ابتسامة هادئة كسانت
عابرة بوجهه الكادح المنهوك وقال فى هدوء شديد :

— واخواتك معاك ؟

— أيوه ٠٠٠ ستة ٠٠٠ وعاشين مع بعض ٠

— ربنا يخلي ٠٠٠

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غير عنف وكأن فكرة رائعة قد
لمعت فى ذهنه ٠٠٠ ثم قال :

— تعرف ! العيلة اللى زى دى ، مايفرقهاش الا الحريم ٠

وعلى الفور نطق الرجل العجوز الجالس الى جوار الشاويش
عبد الرحيم :

— قطعت الحريم وأيامها ، هم اللى جايين الكافية للعالم ٠

وهتف الشاويش عبد الرحيم مؤمنا على حديثه :

— اسم الله عليك ٠٠٠ هم سبب الفساد والبلاوى ٠٠٠ انما الراجل

« الجدع » صحيح هو اللى يعرف يدق مراته على رأسها ٠٠٠ تعرف ٠٠٠

أنا كان عندى حريم فى البيت ٠٠٠ على الطلاق من دراعى ماكانوا يبصوا

من شبك ولا من باب ٠٠ ماغدناش مسخره أبدا ٠

وهتف تاجر الخردة :

— ونعم الرجال ٠٠٠ مفيش كلام ٠

وخيم الصمت من جديد ، وتناول الشاويش عبد الرحيم عود كبريت
من الخشب وراح يحفر به أسنانه السوداء التى نخرها السوس ، ولكنه
سرعان ما قذف بعود الكبريت الى الارض وقد ظهر الغضب على وجهه بعد
أن سال الدم من فمه ولطخ شفتيه ، ونظر الرجل ذو الملابس القذرة الى
الشاويش فى ألم مفتعل ، وفى وجهه يبدو الرياء الشديد والرغبة فى النفاق ،

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غضب وعصبية ومصمص شففيه أسفا
قبل أن يقول :

- تعرف ٠٠٠ كبريت اليومين دول سم !
وظهرت الدهشة على وجه تاجر الخردة وتساءل مستنكرا قول
الشاويش :
- سم ٠٠٠ !

- أيوه سم ٠٠٠ تعرف كبريت زمان كان فيه البركة ٠٠٠ يا سلام !
وهز تاجر الخردة رأسه مؤمنا على رأى الشاويش وهتف مسرورا :
- كلام حلو ٠٠٠ الكبريت بتاع اليومين دول شغل بره ، كل شغل
بره سم !

وكان القطار قد دخل محطة بنها وأخذ الناس يستعدون للنزول ، ورغم
أن عدد النازلين كان كثيرا الا أن الزحام ظل على أشده والضجة الهائلة
تمزق ما تبقى من أعصاب الناس ، وظهر على الأفندى الجالس أمام
الشاويش الضيق الشديد بسبب الزحام ، وكان الشاويش منهمكا فى تجفيف
عرقه بمنديله المحلوى العريض عندما لح على أسارير الأفندى هذا الضيق
الشديد فمال بجسمه الى الامام وقال للأفندى بهمس مسموع وكأنه يدلى
اليسه بسر خطير :

- تعرف الزحمة دى من ايه ؟
ولم يجب الأفندى ، فواصل الشاويش حديثه قائلا :
- من الانجليز !
- انجليز !

هتف بها الأفندى فى دهشة ، اذ لم يكن فى العربية انجليزى واحد ،
وابتسم الشاويش فى خبث من يعرف الاسرار جميعا ، وقال بنفس الصوت
الخافت المسموع :

- أنا مسكت داورية سبع سنين عند الكتوبة ٠٠ تعرف الانجليز دى ، ربنا
غضبان عليها .

وهتف يائع الخردة مسرورا :
- الله اكبر ٠٠٠ يا سلام ٠٠ كلام زى الشهد .
وقال الشاويش عبد الرحيم فى كبرياء :

— أمال ٠٠٠ وتعرف غضبان عليهم ليه ؟! هناك الست زى الراجل ؛
والراجل ده ولا حاجة !!

وعاد الرجل العجوز الذى طحنقه السنون ينصت فى اهتمام بالغ ثم
أخرج علبة نشوق أخذ منها حفنة بين أصابعه وراح يعطس بشدة ٠٠ وأخرج
الافندى منديله ووضعها على فمه وقد أدار وجهه إلى الناحية الأخرى ، ولم
يترك الشاويش هذه الفرصة تمر دون أن يتحدث فقال للافندى :

— والله مافيه حاجة بتحوش المرض أبدا ، ده كله أمر رينا ، تعرف أيام
الكوليرا ، كنت أكل بلع من غير غسيل ، ولا اتحقنت ولا حاجة ، دى الحقن
بتجيب العيا !!

وضحك الشاويش عبد الرحيم ضحكة هزيلة قبل أن يستطرد فى
الحديث :

— تعرف أيام الكوليرا دى بقيت أقول اياك تمسح صنف النسا من على
وجه الارض ، كان العالم صحيح يرتاح .

— مضبوط والله ٠٠٠ كلام زى الشهد .

هكذا صاح بائع الخردة وهو يناول الشاويش سيجارة رخيصة من
سجائره ، وبعد أن أشعلها له صاح من جديد :

— ده الستات دول لعنة ٠٠٠

وعقب الشاويش قائلا :

— تعرف ٠٠٠ مش كله !

— أيوه ٠٠٠ مش كله ٠٠٠ مضبوط !

— أسألنى أنا ٠٠٠ حاكم أنا لفيت الاربعقشر مديرية ، مديرية مديرية ،

فيه ستات تمام ، تصلى وتصوم وتعرف ربنا مضبوط ، انما دى واحدة فى
الالف ، ويمكن فى المليون !

— مضبوط ٠٠٠ فى المليون ، ده أنا كنت أعرف واحده سنت بتضرب

جوزها بالشيشب !

— تعرف ايه ٠٠٠ هو انت شفت حاجة ، بقولك أسألنى أنا ، ده ياما

ناس من النوع ده ، أمال هو غضب ربنا ده من شويه ٠٠٠ ده سيدنا الخضر
قال عليكم بالنسا هم أصل الفساد .

وظهرت النشوة على وجه بائع الخردة وهتف فى ارتياح :
- ياسلام ... ونعم يا عم .
وعاد الشاويش يقول :
- أمال ، دى حاجات مثبتة كلها بس فين اللى يقرأ واللى يسمع .
وقال بائع الخردة فى زهو :
- مضبوط ... أهو ياما ناس بيقرأوا ويكتبوا ، انما فين الناس اللى
تعرف الكلام المفيد ده !

وقال الشاويش عبد الرحيم :
- الكلام ده وغيره ، ياما فيه كلام زى الشهد ، انما طول صنف الحريم
ده ما هو-فى العالم شاويش فايدة...
وكان القطار قد غادر « منيا القمح » فى طريقه الى « أبو حماد » ..
وأخرج الشاويش ساعته الضخمة من جيب سترته ومسحها بمنديل ثم هز
رأسه فى اعجاب :

- يا سلام ... سواق « جدع » صحيح .
وهتف بائع الخردة :
- من بختنسا ...
ونظر الشاويش عبد الرحيم اليه نظرة كبرياء وقال فى زهو شديد :
- تعرف ... أهو اللى زى ده تلقاه بعيد عن صنف النساء ، أنا أيام
ماكنت متجوز بصراحة يعنى كنت مش ملتفت لعملى ، دلوقت ما بونش .
ومال تاجر الخردة ألى الامام وهمس للشاويش وكأنه يلقي اليه بسر
رهيب :

- أمال الست فين دلوقت !؟
وتنهد الشاويش عبد الرحيم فى أسى عميق :

- ياه ... تعيش أنت ... كانت صاحبة عيا ، وربنا افتكرها من
عشرين سنة ، ومن يومها والله ... صمت عن صنف الحريم ده ... من
خمستاشر سنة جيت أجوز تانى ، بنت جماعة من بلونا ، قعدوا يتمحكوا
المهر ايه ... والعفش ايه ... والسكن ايه ، خلقت يا شيخ ميت طلاق من
دراعى ماتجوز ، قلت يبنى حاجيب ايه ، أهى تهمة ... ومن يومها .
- عين العقل ، ونعم الرجال ، أنا راخر وحياتك دلوقت بتساع أربعين

سنة سن انما مافكرتش فى جواز من اى حرمة ، حاكم انا ساكن مع امى ،
واحدة ست عجوزه تصلى الوقت بوقته وست اخوات ، ولامؤاخذه عايشين
كلنا فى مطرحين ، هاتجوز اودياها فين ؟ كفاية الواحد يدرب يعرف بجيب
لقمة العيش وبس *

— ريحت نفسك والله من الخوته وعدم الراحة ، تقطع الحريم وايامها *
وكان القطار قد بدأ يزحف ببطء نحو رصيف محطة أبو خنار ، وعندما
توقف تماما كان الازدحام الشديد قد خف بعض الشيء *
وصعد بعض الناس الى العربة ، عامل وافندى وبائع كازوزة وافندى
وامرأة ... امرأة جميلة مشرقة مثل الصباح الجميل ، وهذا الركن الذى
كان يجلس فيه الشاويش عبد الرحيم والافندى والخواجة ، هذا تماما ، وقد
تسمرت عيون الشاويش وبائع الخردة على الحسن الصارخ الملقوف فى
الغلالة الرقيقة السمراء ، التقت عينا الشاويش عبد الرحيم بعيني بائع الخردة
... كان الاخير يلحق شفثيه ولعابه يسيل من جانب فمه المفتوح *

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهض الشاويش واقفا ليصلح
من هندامه ، وعيناه لا تتبعدان عن المرأة التى وقفت فى ركن قريب ...
واصلح الشاويش عبد الرحيم من الحزام ، ورفع البنطلون الى الحد الثالث ،
وثبت ياقته المنشأة وأحكم تثبيت زراير الجاكتة ، وأخرج متدليه المصلاوى
الذى كان يمسح به عينيه منذ برهة قبله يلعابه وانحنى حتى الارض فمسح
الحذاء فى همة قبل أن يعتدل واقفا من جديد ... ومر بائع غازوزة ،
فاصطدم بالسيدة فاحتجت ، ونار الشاويش ثورة عنيفة :

— انت يعنى عميت ... مش شايف الست ، صحيح ناس مافيش عندكم
دم ، عالم ايه الزلط دى ؟

— كلام مضبوط ... ناس مايختشوش ، وتقدم الشاويش خطوتين الى
الامام وفى يده البندقية والكليشات على الكرسي وايتسم للسيدة فى حياء :
— اتفضللى يا ست *

وفى حياء مصطفى ودلال ظاهرا قالت السيدة :

— اتفضل انت ... كتر خيرك *

وايتسم الشاويش فى خبث قبل أن يقول :

— ده واجب يا ست .. اتفضللى انت من الزحمة .
و « تفضلت » السيدة وجلست ودار حوار طويل قبل أن يعرف
الشاويش انها فى طريقها الى اختها فى شارع الثلاثينى بالاسماعيلية ..
وانها ستمر من نفس الطريق الذى سيمر به وانه أيضا سيقوم بمهمة توصيلها
الى المكان الذى تريد .
وعندما وقف القطار فى محطة الاسماعيلية خرج الشاويش ومعه
السيدة ، فعبرا الكوبرى معا وخرجا من الباب العمومى الى الميدان الفسيح
ثم توقف الشاويش فجأة ولم تقتبه السيدة الا والشاويش يجسار بأعلى
صوته : جاي .. جاي .. جاي .. ثم جرى بأقصى سرعة الى داخل المحطة ،
كانت خاوية هادئة الا من بعض الباعة والحمالين ، والقطار الذى كان هناك
منذ لحظة تركها فى الطريق الى بور سعيد ، وزوج الكلبشات قد تسيبسه
الشاويش داخل العربيه ومعهما « أورنيك » تسليم المجرم فى محافظة مصر ،
وتاجر الخردة اختفى هو الآخر عن الانتظار .



مولد الشيخ حمزة



عندما غير محمود الدسوقي كوبرى شبرا البلد
كانت الشمس قد أخذت تعلو فى الأفق باعثة حرارتها
القوية الشديدة فى يوم من أيام شهر أغسطس القائظة ،
وكان التعب قد استبد به تماما رغم أنه لم يكن قد قطع
من الرحلة الطويلة التى فرضتها عليه الظروف الا
شوطا قصيرا . فهو منذ الصباح الباكر يلهث متعجلا
على الطريق قاطعا المسافة من صحراء العباسية حيث
مقام الشيخ حمزة فى طريقه الى قريته بهنساى
بالمنوفية .

ورغم انقضاء كل هذه الساعات الطوال الا أنه لم يقطع شيئا يذكر ولم تنزل
امامه ساعات اخرى طويلة معة فى مثل هذا القىظ الرهيب . وبسمل محمود
الدسوقي وهو يرفع ذيل جلبابه الاسود الكشميرى ليغطى به رأسه وخطا نحو
اليمين محتما بظل الاشجار الطويلة البائسة التى تعرت من اوراقها قبيل
الوان .

وعاد محمود يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ما حدث له بالامس . .
الامس ؟!! ياله من يوم رهيب مر عليه وكأنه عام رغم وجوده على بعسد
امتار قليلة من ضريح سيدى حمزة صاحب المعجزات والكرامات التى تدوى
كالطبل فى انحاء المنوفية ، وابتسم محمود الدسوقي رغم الاعياء الشديدي
فانفرجت ابتسامته عن قم واسع مهجور . ولثة خربها الداء وسنة واحدة متأكلة

تقف وحدها فى الفم الواسع العريض كأنها شاهد قبر فى صحراء مجهولة الحدود ..

ورفع محمود يده يجفف عرقه بذيل جلبابه دون ان يبعده عن رأسه ثم دس يده فى طيات ملابسه الداخلية حتى لامست ظهره المحدودب وأخذ يهرش فى حركة منتظمة وبصوت رتيب مسموع ، وأزاح ذيل جلبابه قليلا الى الخلف من رأسه ورفع عينه الى السماء وحملق فى قرص الشمس التى بدت كطائفة جهنم ..

واستعاذ محمود من جهنم ومن قرص الشمس ، ثم جال ببصره فى الفضاء الواسع العريض ، كان للهواء لزجا جافا راسبا فى كثافة على مقربة من سطح الارض ، وثمة طيور تطير شاردة نحو الشمال فى بطء ممل ، ثم غص بصره نحو الارض ونفخ فى شدة ، وزام فى اسف عميق ، وراح يتذكر وهو يتدحرج على الطريق الجاف المغبر الطويل ما حدث له .. منذ الصباح الباكر لاول امس .. وهو نائم كالكلب بجوار الفرن « ومباركة » زوجته تعد له « طريحة » العيش الفصح ، والخروف بجوار الفرن ليحمل كل هذا فى الصباح للشيخ حمزة ..

كان النهار قد انبثق والشمس لم تظهر بعد ومحمود يهرول على الطريق الزراعى ساحبا الخروف فى عنت والفوم لم يبرح جفوته بعد ، ومباركة تتقدمه تحمل « مشنة » العيش على رأسها حتى وصل الركب الى النقطة الثابتة ، واكثر من عربة اوتوبيس مرت من امامه وهو لا يستطيع الركوب ومعه الهدية المبروكة لان الكمسارية لم يكونوا سمعوا بعد بسر الشيخ حمزة الباتع ..

ووصل محمود اخيرا الى القاهرة قبل الظهر بقليل ، وقطع المسافة من شبرا الى العباسية على قدميه و « المشنة » فوق رأسه والخروف يسحبه بحبل طويل علقه فى رقبته وقدميه ..

وعندما وصل الى المولد لم يكن هناك خلق كثيرون ، كان الحر شديدا مرهقا ، والشيخ حمزة الصغير ممددا على السجادة العجمى الفاخرة ومسح حول بعض المريدين الذين ظلوا على ولائهم للشيخ الصغير بعد ان انتقسسيل الشيخ حمزة الكبير الى مولاة ، وضريح الشيخ الكبير يتضوع عبيرا ونورا ، والمكان كله يعبق برائحة البخور ، ودار رأس محمود الف مرة قبل ان ينادى على الشيخ حمزة ، وهكذا نهض الشيخ من مجلسه متاثقلا ومن خلفه مريدوه

حتى وصل الى محمود فلم يتمالك الاخير نفسه فانكب على يده مقبلا اياها قبلات سريعة متلاحقة . .

وهكذا افلت الخروف من يد محمود وشرذ في الصحراء الواسعة ، وساعة كاملة . ومحمود يجرى خلف الخروف الشارد متوسلا بطوب الأرض ، حلسق يا جدع . . امسك يا خويا ، والشيخ حمزة ومريدوه يشرفون على عملية المطاردة حتى استطاع محمود ان يمسك بالخروف بعد ان فقد ما تبقى فيه من جهد قليل - وسحب الخروف من اذنيه حتى سلمه للشيخ وعلى شفطيه ابتسامة عريضة استطاع ان ينتزعها فبدت صفراء باهتة لا معنى لها . .

وهمس الشيخ في اذن واحد من الملتفين حوله وسرعان ما ظهرت بالقرب من الجمع المحتشد عربة فارغة نزل منها سائق حمل الخروف داخلها ثم انطلق بها مثيرا خلفه غبارا شديدا آذى عيني محمود رغم انه كان وقتئذ مطرقا الى الأرض في حياء شديد .

ولم يدر محمود اين ذهب الخروف ولكنه عرف مصير « المشنة » فقبس دخل بها رجل عجوز مخترقا الساحة الكبيرة الى ركن قصي حيث يقوم بعض الرجال بالطبخ على قدم وساق لتجهيز العشاء للوافدين من الريف والمدينة لاحياء الليلة الكبيرة لمولد سيدى حمزة ، وعندما رفع محمود عينيه الى اعلى لم يجد الشيخ ولا احدا من مريديه . . فحمد الله في سره لانه كان يود الجلوس ليستريح . .

وجلس محمود قليلا على الرمال الناعمة الباردة حول الضريح . . ولكن قلبه كان يأكله لزيارة اخيه في القلعة ، لم يكن له سواه . . . وقد هجر القرية صديا وجاء الى المدينة واشتغل صبي بقال وموزع عيش « فينو » ابيض ثم خفير ثم نشبت الحرب فكون نفسه واستطاع ان يمتلك لنفسه بيتا وان يتزوج واحدة من مصر طويلة وبيضاء مثل الجير ولم يعد بينهما اتصال الا في مثل هذه المناسبات القليلة . .

وخلع محمود نعليه ودخل الى الساحة الكبيرة ومن ثم انفلت الى ضريح الشيخ حمزة فقرأ الفاتحة مرات مترحما على والديه وعلى اموات المسلمين جميعا ، ثم دار حول الضريح مرات متمتما ببضع امنيات ساذجة ثم دار حول الضريح من جديد قبل ان يغادر المكان كله وهو يمسح وجهه بيديه في طريقه الى القلعة .

ووصل محمود الى منزل اخيه بعد العصر بقليل فتوضأ وصلى العصر ثم
اتى عليه اخوه عدة استلّة قصيرة عن البلدة وحال الذين فيها اجاب عليها محمود
فى اختصار شديد ، ثم قص على اخيه وهو جالس القرفصاء يتناول طعامه
من بقايا طعام الامس قصته مع الخروف فى البلدة عند الفجر وفى صحراء
العباسية عند الظهر ، وبان الغضب الشديد على وجه اخيه وهو يستمع اليه
ثم صرخ فى وجهه مؤنبا :

— انك اولى بهذا الخروف ، هل اكلت حتى حمدت الله وشربت حتى
ريبت . ثم لم يبق الا موالد الاولياء واضرحة المشايخ ، ستعيش وتموت
تلاحا » لا تفهم حال الدنيا وكيف تسير الان ..

ورفع مبروك — وهذا اسمه — ساقيه وضم يديه حولهما على هيئة دائرة
وعا — يصرخ فى محمود ..

— انظر الى ، هل ارسلت شيئا ، هل ذبحت دجاجة .. لماذا لا تفعل
مثما افعل ، او انك تفعل هذا لكى يقول الناس « والله محمود راجل عاال
وعمة » ، لماذا لا تعيش فى حدودك ايها الابله ثم .. وهرش مبروك فى
أنفه قبل ان يقول :

— ثم اخوك .. أليس اولى من الشيخ حمزة ، هل يأكل الشيخ حمزة ..
هل يشرب .. ان اولاده فى بدبوحة من العيش ، فابنه حمزة الصغير مدير
فى الوزارة والاخر طبيب والثالث ضابط بوليس والرابع فى الجامعة ، وانت ؟
لا شيء ، لم يكن عندك سوى الخروف وقد سحبتة بنفسك للشيخ حمزة .

ورد محمود فى خوف شديد من كلام اخيه الذى يبدو معقولا الى حد ما رغم
ما فيه من كفر شديد ..
— أصله نذر علينا ..

— نذر .. هكذا صاح مبروك فى تهكم لاذع .. ومن قال لك انذر شيئا ..
لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، اراهن انك لم تأكل اللحم طول العام وجلبابك
تملؤ . الثقوب وكأنه غربال ، لقد هرمت ويبست واصبحت جلدا على عظم
وستموت قبل الا وان . ولكن لك ان تفعل ما تريد فلن أنصحك حتى تموت .
وتوخت محمود عن ازدياد الطعام الذى امامه رغم أنه كان يحس جوعا

يمزق احشائه ، وجذبت زوجة اخيه غطاء رأسها الى الامام حتى لامس حاجبها وقالت فى لهجة مضغوطة وكأنها تتحدث من انفها .

— أكمل اكلك ، والا الكلام اللى فى صالحك يزعل ، احنا مالناش دعوة ، كل واحد عقله فى رأسه يعرف خلاصه . ثم قامت فغادرت الحجرة عسى الفور ، وظل الرجلان صامتين كأنهما تمثالان من النحاس حتى بعد ان نهض محمود وغسل يديه ثم عاد ولبس الحذاء وتأهب للخروج ، ولم يحاول اخوه ان يستبقيه بل مد يده فى فتور بورقتين من فئة العشرة القروش دسهما فى يد محمود الذى طوى اصابعه الخمسة عليهما على الفور ، ودون ان يستدير لمواجهة اخيه فتح الباب فى هدوء وانصرف عائدا الى العباسية .

وصل محمود الى ساحة المولد فى المساء . كانت الانوار تتلألأ من بعيد وصوت مرثل التواشيح يدوى فى الميكروفون ، وخلق كثيرون يحومون فى الساحة الكبرى فى ملابس بيضاء ، والليلة الختامية تبدو عامرة جميلة لاثقة بمقام الشيخ حمزة الكبير . وصدم محمود فى أحلامه عن « العشوة الطيبة » التى كان يمنى نفسه بها ، فقد قدم العشاء منذ الساعة الخامسة وظل الجميع يأكلون حتى الثامنة مساء والذين حضروا بعد الثامنة لم يقدم لهم شيء فجلسوا فى الساحة الكبرى حول الضريح يزفرون وقد فترت حماستهم للمولد وراحوا يتحدثون فى أمور شتى متصلة اتصالا وثيقا بالمعاش والارزاق ، وافترش محمود الارض وسط مجموعة من قرى مختلفة بالمنوفية جمعتهم الليلة المباركة ، وكان الحديث يدور كله حول كرامات الشيخ حمزة وكيف ان خلقا كثيرين حضروا الليلة من بلاد بعيدة واكثرهم ممن لم يكونوا على اتصال به فى حياته التى امتدت عشرات السنين .

وراح كل منهم يتحدث عن كرامات الشيخ التى سمع بها والتى رآها بنفسه . وكان يتزعم الجميع الشيخ حسنين فتو اعلمهم جميعا بكرامات الشيخ ، فهو ينيف على السبعين وكان من الواصلين على الشيخ ومن صحابته المفضلين . . وذكر الشيخ حسنين واقعة حدثت فى مسجده وكانت فى مولد الشيخ معروف والد الشيخ حمزة الكبير وكيف ان الالف المؤلفة التى هرعت لاحياء الليلة اكلت حتى شبت من خروف واحد و « مشنة » عيش واحدة لان يد الشيخ حمزة كانت مبروكة بفضل الله . . وتلمل محمود فى جلسته وهو يستمع لفضائل الشيخ حمزة الكبير ، وتحسر لانه ليس حيا الان ، اذن لاستطاع محمود ان يتناول عشاءه فلا يمتلئ

عصفه الجوع كما بعانها الان ، وفكر محمود في ان يشتري شيئا يأكله ، ولكن كل ما معه ثلاثون قرشا . سيركب بعشره ، والريال سيقطع به جلبابا للولد سيد ، وهو يستطيع ان يصبر حتى الصباح وسيصل القرية في الضحى ويستطيع ان يأكل هناك ما يريد .

وكان الحديث بين المجموعة قد انتقل من واحد الى آخر وصمت المجلس كله بعد ذلك ، وطالت فترة الصمت ، وكان الجوع قد نال من الجميع فاضلجعوا على الرمال يحدقون في النجوم . . وفجأة هتف محمود بصوت غير مسموع . . وكأنه لم يكن يقصد ان يقول . . « انا جيت خروف النهاردة » . . وانتفض جاره عبد المقصود وشب على ركبتيه وقد مال بجسمه الى الامام مستندا بيده اليسرى الى الرمال وهتف صارخا في وجه محمود :

— بتقول ايه ؟

وهرش محمود قفاه قبل ان يقول وكأنه يعتذر عما قال :

— ده نذر علينا ، خروف لامواخذه سمين .

وخبط عبد المقصود كفا بكف وهو يلعن كل شيء ، ومع كل شيء هذه اجداد الذين نسلوا محمود منذ عهد آدم الى آخر الزمان .

— بقي خروف يا بغل وتامد بطنك تصوصو من . .

ولم يواصل عبد المقصود حديثه ، فقد أقبل الشيخ حمزة عليهم فوقفوا جميعا ، ونظر الى كل واحد منهم بعينه الناعستين الجميلتين ، ووجهه الاحمر السمين المستدير وبشرته الناعمة اللامعة الحمراء ، ومد يده البضة المشربة بالحمرد فاخططها محمود بسرعة وطبع عليها قبلة طويلة وسأل الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة :

— عسى ان تكونوا في خير حال ، وان يكون العشاء قد قدم لكم جميعا ، فان الدنيا « هايضة » كما ترون ، وهذه ليلة مباركة نسأل الله ان يعيدها عليكم بالخير والبركات .

وزام عبد المقصود ولم يتكلم ، وهرش الشيخ حسن قفاه وتحسول

الآخرون يبحثون في الرمال عن أحذيتهم أو عن شيء آخر عليهم يكونون قد نسوه هناك ، وتولى الإجابة محمود فهتف صارخا :

— الحمد لله ، خير الله كثير ، وبركة الشيخ كثيرة .

وانصرف الشيخ بعد أن أعلن الجميع من اقتراب موعد « حضرة » الذكر ليستعدوا لها ..

واقبل الجميع على ساحة الذكر ، وانتقلت محمود بعيدا فأخرج القروش الثلاثين وعددها أكثر من مرة ، ثم اختار لها مكانا في السروال عند الجنب الأيمن ، ومن ثم اتجه إلى حلقة الذكر فأخذ مكانه وراح يتطوح في حركات منسجمة مع الصف الطويل من الرجال ، وكان الجوع والارهاق قد هذا كيانه وسلبا حيويته وقدرته على حركات الذكر ، ولكن ما أن مر الوقت ومست الجميع الرحمة الربانية ، وطفأ الزيد على أمسواه البعض وتدفق العرق غزيرا من جباه الرجال حتى اندمج محمود هو الآخر وذاب في الذكر حتى نسي متابعه تماما .. حتى أنه بعد ساعة من الزمان سقط مغشيا عليه فلم يبق إلا في الصباح .

وتذكر محمود ما حدث له في الصباح وهو يسير على الطريق الزراعي الطويل عند قرية سنتريس عندما فتح عينيه وكانت حرارة الشمس حامية والصحراء قد تحولت إلى جهنم وهو نائم في مكان يبعد عن حلقة الذكر مسافة طويلة والسكون يشعل كل شيء ، سكون عميق كثيف وكأنه ضباب ، حتى أن محمود قد ضرب رأسه بيده ليتأكد أنه مازال على قيد الحياة ورويدا رويدا بدأ يفيق وبصره يميز الأشياء التي من حوله .. الخيمة مازالت مكانها وأثار ليلة الأمس تبدو واضحة .. قصاصات ورق كثيرة تتحسرك وكان فيها حياة حين يهب عليها نسيم الصحراء الساخن الجاف ، وفردة حذاء مقلوبة ، وطاقية صوف مدفونة في الرمال وأثار أقدام حامية على الطريق بين الخيمة والضريح ، والشيخ حمزة واقف وسط مجموعة من العمال يناقشهم في صوت مسموع حول أجر الميكرومونات والكراسي القטיפية التي خصصت للمقرئين والضيوف العظام .. ودس محمود يده في طيات ملابسه يتحسس جسمه الذي لم ير الماء منذ شهور ، ومست يده نفس المكان الذي أودعته بالأمس القروش الثلاثين ، ثم هب واقفا وكأنها لدغة ثعبان .. ومن

اجل البحث عن الثروة الضائعة خلع محمود الجلباب والفانلة ثم خلع السروال ، ووقف وسط الصحراء « بلبوصا » يفتش في كل خرق عن القروش التي ضاعت مع ليلة الامس ومضى أكثر من ساعة ومحمود يجار بأعلى صوته وهو يلطم خديه دون مجيب ، حتى خيل اليه ان من كرامات الشيخ حمزة الصغير ان اذنه لا تلتقط مثل هذه الاصوات التي نهى عنها الله كما قال الشيخ نفسه عندما ذهب اليه محمود يشكو ما حدث له :

— اسمع يا محمود .. ان ما يفقده الانسان ما هو الا تكفير عن سيئات ارتكبها المرء دون ان يشعر وربما هو تعويض لمال حرام اكتسبه الانسان دون ان يدري بمصدره ، والدنيا على حالها منذ الازل في أخذ وعطاء ، وما ضاع اليوم قد يأتي به الغد وتناول محمود يد الشيخ فقبلها وعبرة يتيمة تنحدر من عينيه الى جانب فمه المفتوح في ذهول .

واختطف الشيخ يده بسرعة ودسها في جيبه وهو يعيد باقي النقود التي نكدها للعمال اجرا عن الكراسي والميكروفون وهتف بصوت مسموع .

— عاوز فلوس ولا حاجة يا محمود .

وهتف محمود في صوت عاجز .

— متشكر يا سيدى الشيخ انا رايح لاخويا .

واتجه الشيخ في خطوات واثقة مطمئنة الى عربة كانت تقف الى جانب الطريق واختفى داخلها وسرعان ما اختفت هي الاخرى عن الانظار ، بعد ان اثارت خلفها زوبعة من الرمال آذت عيني محمود . واكتشف محمود وهو يبتلع جسرتة انها نفس العربة التي حملت الخروف بالامس .

واستدار محمود وذيل جلبابه على رأسه في طريقه الى القلعة .. الى اخيه .. وطافت برأسه وهو يسير مسرعا في شارع الجيش ذكري المقابلة الفاترة وبقايا الطعام البائت ، الكلام الموجه والنظرة المتحفزة ، والتهكم اللاذع ، وارتعش بدن محمود وهو يذكر كل هذا .. وكانت القلعة تقف شامخة أعلى الجبل وتبدو لعينه وهو واقف في صرة العتبة الخضراء برنو اليها من بعيد والإفكار المزعجة السوداء تتزاحم حوله وتسدد عليته

الطريق إلى هناك ، واستدار محمود إلى الخلف إلى شارع كلوت بك إلى
شبرا البلد على قدميه .

كانت الشمس قد مالت للمغرب ، ورائحة الأرض الطيبة السوداء
خيائسime ، ونقيق الضفادع أخذ يعلو في الجو ، وعواء ثئاب جائعة هائلة
وسط الحقول يأتي من بعيد ، ونباح كلاب متحفزة يحمله الريح من الضفة
الأخرى للنهر . . ومجرى الرياح المتوفى يتدفق عميقا باردا مخضرا مسرعا
نحو الشمال حاملا على صفحته كميات هائلة من العشب والتخيل .

واذاح محمود جليابه عن رأسه ، وانحدر إلى الضفة النهر ثم
انحنى يشرب بفيه من المياه الجارية وهو يفخر كالحصان . . ثم ارتقى
إلى « بهناى » على بعد خطوات من مكانه وهو يتلو الفاتحة في همس هائل
المتحدر من جديد وهو يمسح بيده رأسه ورقبته ، ورفع رأسه ينظر
روح الشيخ حمزة ، وساقاه النحيلتان تسرعان الخطى حتى اختفى داخل
مسارب القرية الضيقة . .



عنواجات شاع الهرم



تذكر الناس في قرية « نكلة » قصة حسن أبو سويلم
و « الخوجاية » في تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء ،
مع أنهم كانوا قد نسوها منذ أعوام .. وكانت المناسبة
التي تكرتهم بالقصة هي موت حسن بعد أن اعتكف طويلا
في المصلية التي على حرف النهر .

وعندما تهادى نعشه في المساء وسط المصاييح والمشاغل ، وقف الناس
الذين كانوا في المقهى رافعين أصابعهم متممين بالشهادتين على روح الذي
في النعش .. فقد كان صديقا لهم في أيام بعيدة ، يوم أن كان يجلس على
المقهى ويحكى قصة الخوجاية البيضاء التي سلبت عقله في شارع الهرم ..
وكان حسن قبل أن يموت يعمل في الجمعية التعاونية وقبل ذلك كان في مصر ،
ولم يدر أحد من أهل القرية ماذا كان يفعل هناك ، ولكنه قبل ذلك كان يسرح
خلف الجمل طول النهار من القرية الى المدينة وبالعكس ..

وأصل القصة أن حسن كان يسير خلف الجمل ذات صباح في طريق
الهرم في طريقه الى « نكلة » عندما وقف فجأة راشقا العصا المشمش الرفيعة
بين جلد ظهره وجلبابه الأزرق الرقيق ، وراح يهرش بقسوة مخترقا ظهره
طولا وعرضا ، حافرا بطرفها المذنب قنوات وسط العرق والطين وظل عشر
دقائق وهو يهرش هرشا متصلا محركا اكتافه خلال عملية الهرش ملتقطا
أنفاسه بسرعة وهو يلهث كالكلب ، مغلقا عينيه فاتحا فمه من اللذة التي تجتاح
جسده كله ..

ولم يكن في نيته أن يكف عن الهرش أبدا ، لولا أن الجمل ترك الطريق منحرفا نحو المزارع فجري خلفه ، وعندما استدار به نحو الطريق العمام استوقفه ثلاثة اشخاص : « خوجاية » وزجلان معها ، ظلوا ينظرون الى الجمل فترة طويلة ، وهم يحومون حوله وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، والست « الخوجاية » تربت عليه في حنان ، وحسن واقف خلف الجمل وكأنه ليس موجودا في نظر هؤلاء الناس . . . والتفتت الخوجاية الى حسن اخيرا ، وطلبت اليه بالاشارة أن يسمح لها بركوب الجمل برهة ، وشمر حسن عن ساعديه ، ورفع الخوجاية من وسطها الى أعلا ، وأزاح الهواء فستانها الرقيق فكشف عن جسدها ، أفخاذ معتلئة جميلة شديدة البياض والاحمرار . . . ورائحة نفاذة لم تدخل خياشيم حسن من قبل . تفوح من الجلد الناعم الرقيق مثل الفستان الذي يغطيه .

ودارت الأرض بحسن فلم يستطع أن يرفع الخوجاية الى أكثر من هذا ، وعندما هوى بها الى الأرض ، ارتمت على صدره فاحتضنها ، وأحس بصدرها الناهد وشعرها الأشقر الناعم ووجهها الذي يطفح زما وجمالا . . . ولم يستطع الوقوف على قدميه بعد ذلك . . . وأحس رغبة في الجلوس ، فجلس متعبا على الرصيف يلهث كقطعة تلد !

وصعدت الخوجاية على ظهر الجمل بمساعدة الرجلين ، ثم لم يلبثوا طويلا حتى ذهبوا تاركين في يد حسن ورقة من فئة الخمسين قرشا وسعادة تغمر كيانه وترعشه .

وعلق حسن شفثيه وهو يسير خلف الجمل والدنيا لا تكاد تتسع له في طريقه الى قريته « نكله » ويداه معلقتان على طرفي العصا من خلف عنقه وتمنى لو أن معه خوجاية من هذا النوع فيغلق عليها وعلى نفسه باب المندرة ، فلا يأكل ولا يشرب ولا يعمل ، وهو واثق تماما أنه معها لن يموت ، وقفزت الى ذهنه صورة زوجته « لظيمة » فانقبضت نفسه وعاد يهوى بالعصا من جديد على ظهر الجمل حتى وصل الى القرية ، وعشرة أيام مرت عليه في قريته لم يغادرها وهو جالس على الدكة أمام المقهى عند حرف الترعة يحكى للناس قصة الخوجاية البيضاء التي في لون العسل والحليب والناس تسمع وتضحك وهو يروي التفاصيل ، كيف رفعها بذراعيه ؟ وكيف طار الفستان الحريري ، وكيف ظهر الجسد الباتع اللين الاملس كالحرير ، وكيف أصابه

الدوار ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ثم يسكت حين فجأة كلما قصها مرة ٠٠ وهو يعرض على شفتيه ، وفي آخر الليل كان يجمع طرف جلبابه بين أصابعه الخمسة وهو يزوم كالبذئب المسلوخ ويشيح بيده في وجوه الحاضرين وملء أشداده عبارة واحدة :

- روحوا ٠٠ داحنا متجوزين غفر !

ولم يمض أسبوعان حتى طلق حسن زوجته ، وتفرغ للجلوس على المقهى ، رافضا العروض الكثيرة التي عرضت عليه لنقل المحاصيل بالجمل الى المدينة مكتفيا بالهرش في ظهره بطرف العصا ، ورواية قصة الخوجاية البيضاء لكل من يقابله في الطريق .

ومضى شهر وتزوج حسن فتاة بيضاء في لون البفطة ، نحيلة مثل العصا المشمش التي لا تفارقه ولكن الذين رأوه ليلة الزفاف ايقنوا من سعاداته لعرض الابتسامة التي اختلت فمه ، وانقطع عن المقهى ، وذهب بالجمل الى المدينة والى القرى المجاورة ، والزوجة الجديدة تخرج الى الحقل ، فان حسن يملك قيراطين ووقته لا يسمح له بالتفرغ لزراعتهما ، ومرت شهور ، وأصبحت الزوجة سوداء كغيرها من النساء في القرية ، وكون الطين والتراب والعمل الشاق الطويل طبقة جديدة نحاسية اللون فوق وجهها ، وعاد حسن الى المقهى يحكى من جديد قصة الخوجاية في شارع الهرم ، مضيفا للقصة فصولا جديدة : كيف مالت هي عليه ؟ وكيف ربتت على خده ؟ ومسحت بشفتيها على جبينه العريض ؟ ولم تمض أيام كثيرة حتى طلق حسن زوجته ، وفي آخر كل ليل يلعن أجداد الحاضرين وأنواقهم الفاسدة .

- دانتم متجوزين حدايات .

ومرت شهور طويلة وأصدقاؤه يهيمسون في أذنه بأسماء العذارى في القرية ، وحسن لا يعجبه أحد ، ولا ترضيه واحدة منهن على الإطلاق كلهن غربان وكلهن « غفر » ! ولكن ثلاثة أرادب قمع كان ينقلها بالجمل من قريته الى المنصورية ، غيرت رأيه وزحزحته عن مكانه فقد وجد ضالته في المنصورية ، عذراء صغيرة في الخامسة عشرة بيضاء جميلة ، شعرها ناعم طويل ، وعيناها واسعتان ، تعرف القراءة أيضا ولا تعرف كيف تعمل في الغيط ، وفي نفس المساء تزوجها حسن ، ثم عاد بهما

الى القرية بعد أيام ، وافتقد رواد المقاهى حسن ونسوا قصته ، فقد بساح
الجمال وهجر القرية كلها ، وذهب الى القاهرة مع زوجته الجميلة ، وبعثا
حاول حسن أن يجد عملا ملائما ولكنه لم يستطع ، وثمان الجمل يتبخر من
بين أصابعه حتى لم يعد معه شيء وتقطع رقبة حسن ولا يعود الى القرية ، انه
يستطيع ان يزحزح جبلا من مكانه ، انه قوى كالثور ، فلينزل الى الميسدان
بقوته ٠٠ وفي ميدان المحطة وقف حسن يرفع الحقائق على كتفيه ، ويخطف
رجله ليحضر عربة ويدخل جيب حسن كل يوم من مطلع الشمس حتى آخر
النهار خمسة عشر قرشا ، المهم انه يأكل وزوجته تنام شعبانه والحياة تمضي
به وبها ، وهو في غير حاجة الآن الى مواجهة الفشل ونظرات الناس في قرية
« نكلة » ، واحتمل حسن كل شيء في سبيل البقاء في القاهرة والاحتفاظ
بزوجته ! وأيام كثيرة اسود من الخروب مرت عليه ، ولا يأكل ولا يشرب ،
يشاغب الشياطين ، وعساكر البوليس ، وأحيانا المسافرين ، وعرف حسن
الطريق الى القسم ، ونام على أسفلت الحجز ، والزوجة الصغيرة يشحب
لونها وتبذل ، والصفرة تضرب في وجنتيها وتحت عينيها وعظام صدرها
تبرز الى الامام ، وعنقها أصبح كحبة السمسم وهي تبتق دما كل صباح ،
وحسن يرى ولا يعرف ، ثم لم تلبث ان ماتت ذات مساء ، وعاد هو الى
« نكلة » ، فقد وجد مبررا لعودته الى هناك ، وعاد رواد المقهى التي على
حرف التربة يلتفون كل مساء حول حسن وهو يروي لهم قصة الخوجاية
المبيضة التي في لون العسل والقشدة واللبن الحليب ، وأصبح في جعبة حسن
قصص كثيرة عن « الخوجايات » في مصر ، وكلهن جميلات ، وكلهن مثل
العسل والحليب ، وهن يسرن في الطريق ، أنصاف عرايا وأذرعتهن
كالقطير ، وأرجلهن كالسمن وأصواتهن ٠٠ يا مغيث !! واشتغل حسن
في الجمعية التعاونية ، يحمل الكيمارى على ظهره من الجمعية الى
البيوت ، وفي الليل كان أمامه متسع للقصاص عن خوجاية شمسار
الهرم ، وخوجايات مصر كلهن ، حتى التقى ذات مساء في المقهى
بجندي بوليس يعمل في نقطة « نكلة » منقول حديثا من مصر ، شاب في حوالى
السادسة والثلاثين متوسط القامة شاحب اللون ، فمه مفتوح دائما عن
أسنان ذهبية ، وجد حسن فيه شيئا ينقصه ويشير فقد كان يتحدث دائما عن
مغامرات نسائية قام بها في البندر وفي الريف ، وفي كل مكان ذهب اليه ، وفي
جيبه عدد من صور النساء وكلهن بيضاوات وجماليات وسمينات أيضا ،

وريق حسن يجف كل مساء وهو ينظر الى الصصور الكثيرة وكأنها أوراق
كوتشينة ، مدققا النظر في الملاءة اللف ، والاخرى الاسبور ، والثالثة الفلاحة
والرابعة والخامسة ، وحسن مشغوف به وبصوره حتى أصبح يقلده في
حركاته ، ويختار نفس لون الجلباب الذي يلبسه عسكري البوليس في اوقات
الراحة ، وأصبح جيب حسن هو الآخر عامرا بصور كثيرة لشادية وماجدة
وفاتن حمامة ، اشتراها جميعا من مصر في مشوار له مع العسكري الصديق
وتساعل العسكري مرة عن سر عزوف حسن عن الزواج ، وكان الجواب
انه لم يعثر على بنت الجلال بعد ، ورشق العسكري اصبعه في انفه ثم في
فمه ، ثم خبط براحة يده على فخذ حسن ثم هتف قائلا :

— واللى يجييك بنت الجلال ؟

وأجاب حسن بسرعة متسائلا في الوقت نفسه :

— بيضنة ؟

— وشعرها طويل ، وحاجة عال العمال .

وخطف حسن رجله الى مصر مع العسكري ورآها وجلس معها ، بيضاء
كالنهار ، وجميلة ، وسمينة كالعجل البناتى ، وتعمل خادمة في بيت أحد
الاثرياء ، وليست عبيطة مثل الفلاحات ، وقال حسن عال ، ورد العسكري
مبروك . . وأخذها حسن في ذراعه وعاد الى نكلة . ولم يعد أحد يراه في
المقهى ، أصبح من بيته الى عمله ، وجلبابه دائما نظيف ، والمداس لا يمارح
قدميه ، والترعة تستقبله كل صباح وأصبحت سهرته في نطاق ضيق ، مع
العسكري في الليل عند حرف الترعة يشربون أقداح الشاي ويدخنون كراسي
المعسل بالحشيش ، وأغلق باب المندرة في وجوه الجميع ، لم يكن أحد
لينستطيع الدخول في المندرة الا العسكري ذو الاسنان الذهبية ، فهو تقريبا
ولى امر العروس وهو وكيلها أيضا في صيغة العقد ، وحسن نشوان بالزوجة
الجديدة ولا يسمح لها بالعمل في الغيط ولا في البيت ، ولولا العيب لطبخ
حسن وكنس المندرة ، وأعد الفراش وغسل الغسيل كله ، وجلباب واحد
عند حسن وعشرة عند زوجته ورطل اللحم يأكل منه قطعة وزوجته تأكله
كله ، وهى تأمره وهو يطيع ، وأحيانا تحدث المناوشات بينها وبينه ، الجيران
يتسمعون من خلف الجدران ، وصوته خفيض ذليل ، صوتها يلعلع بالشتائم
وأحيانا ترن الصناعات على قفاه وهو صامت وربما سعيد ، وحسن يكسب

كثيرا من توصيل الكيماوى للمنازل فأصبح يعمل اليوم بطوله والمكسب
للفتحية ، وأيام الاسواق يقتضى حسن حمارا من القرية ويعود ومعه ربطة
في حجم شوال الكيماوى مناديل مزينة بالترتر وقطع طوب حمراء اللون
لفسيل الكعبين ، وكحل ولبان وبخور ، والعسكرى معه يشتري له أرخص
قليلًا وينسج له الطريق وينتقى له الألوان والأنواع ، وحسن يصفق برجليه
ويديه فرحا للحظ الذى هبط عليه من السماء ، الزوجة الحسنة والخل الوفى
وذاات مساء وكان حسن فى قرية مجاورة ، وعاد بعد العشاء بقليل وعندما
انحرف الى داخل الدرب الذى يقطنه وأصبح الى جوار الشباك ، سمع
صوتا وهمسا فى الداخل رغم أن الظلام كان يسود المكان وتوقف حسن قليلا
يخلص الى الذى يدور فى الظلام ، ويسمع حسن ضحكا ومزاحا وتبين صوت
العسكرى وصوت زوجته ، وفكر حسن ماذا يفعل . . ثم لم يلبث أن انتحى
جائبا فى الدرب وجلس على حجر كبير لا يدري ماذا يفعل . . وأكثر من مرة
وحسن يهم بالدخول الى المندرة ، ولكن شجاعته تخونه وقدماه تعودان بسبه
الى حيث كان ! وأربع ساعات طوال وحسن مسمر مكانه يرسم على الأرض
أشكالا مختلفة بعصاه المشمش الطويلة ، ثم فجأة برز شبح فى الظلام خارجا
من المندرة ولم يكن سوى العسكرى فى جلبابه الأزرق المخطط بأقلام عريضة
بيضاء ، ووقف العسكرى يتلفت حوله ، ثم مضى فى طريقه الى التربة ودخل
حسن بعد دقائق ! كانت زوجته نائمة ، وعلى وجهها تبدو نشوة وسعادة
لا حد لها ، وقد زينت بمنديل جديد ، وفى عينيها كحل غامق ، وكعباها نظيفان
من أثر الدعك الشديد ، وأيقظها حسن فى قسوة ، ولكنها عندما استيقظت
لم يستطع أن ينظر اليها ، وجلس حسن أمامها وهى نصف نائمة ممددة فى
ارتخاء لذىذ . . . وسألها حسن فجأة دون أن ينظر اليها :

— مين اللى كان هنا النهاردة ؟

وردت هى بعند فترة :

— مفيش حد .

وعاد هو يسأل وهو لا يقوى على النظر اليها :

— مفيش حد يعنى ايه ، أمال توفيق العسكرى كان بيعمل ايه ؟

وردت هي مستنكرة :

— توفيق العسكري ده ايه ، مش صاحبك ، وانت اللي داخل معاه خارج معاه ، كمان ده راخر ، والنبي تتمسي كده وتنام ، انت باين عليك سسكران .

وبسرعة عجيبة لهنها حسن بكفه على صدغها ، ثم انهال عليها بالصفعات واللكمات وهي ترد له الصفعات وتعضه في ذراعه .

واستيقظ الجيران على الاصوات المنبعثة من بندرة حسن وضاع الطرق الذي استهدف له باب حسن ولم يفتح ليلتها لاحد ، وخرج حسن في الصباح الى الجمعية التعاونية ، ووجهه يبدو عليه الاجهاد الشديد ، وعيناه حمراوتان بلون الدم ، وجلبابه ممزق ، حتى المداس نسيه في البندرة ، ولم يحمل على ظهره جوارات الكيماوى ولم يشرب الشاي كما اعتاد ، بل جلس يرسم على الارض اشكالا بطرف عصاه المشمش التي كان يضرب بها الجمل ويهرش بها ظهره في الزمن الذي مضى ، وتحسر على الزمن الذي طواه لاهثا منذ اعوام ، وعلى المعروف الذي قدمه للدايخة التي كانت تعمل خادمة في مصر وفكر في طريقة للانتقام من توفيق العسكري ، وفكر في ان يقتله ، او يذهب الى المديرية وينقله الى مكان بعيد ، او يطلق زوجته ، او يذهب اليه في منزله ويضربه ويفضحه ، ولكنه اسف بينه وبين نفسه لعجزه عن الانتقام ، فتوفيق قوى ، وهو عسكري ايضا يستطيع ان يؤذيه . يهرش بقسوة كما كان يفعل من قبل ، واحس بالنشوة تسرى في كيانه ، ثم خطر له ان يهجر القرية قبل ان يستيقظ الناس ليتوارى عن عيونهم ، ولكنه لا يملك شيئا ، وليس امامه ما يفعله اذا هرب ، والتجربة البشعة التي مرت به في مصر مازالت ماثلة لعينه ، ولعن حسن مصر والخوجاية والشيطان الذي القى بالعسكري في طريقه ، وتمنى لو يستطيع استرضاء زوجته فترضى ، وتمر الايام فينسى وتنسى ، ثم يأخذ حذره بعد ذلك ، فيقاطع العسكري ، ويحرص على زوجته ، كانت الشمس قد ارتفعت في الافق والى فكرة تطوف في رأس حسن والعصا المشمش في يده يرسم بها على تراب الطريق الزراعى رسوما مختلفة وخطوطا متشابكة ، وفجأة برز توفيق العسكري من عند القنطرة مهرولا بجلبابه وعلى وجهه يبدو الشر العنيف ، وابتسم حسن ابتسامة بلهاء

عندما اقترب منه توفيق والشرر يتطاير من عينيه ، ومن أنفه ينبعث دخان كثيف وفكر حسن في أن يطلق ساقيه للريح هاربا من القرية ، ولكنه لم يستطع حتى تحريك أصابعه الضخمة ، ولم يتحدث توفيق ولم يفتح مجالا للمناقشة . بل انهال على رأس حسن ووجهه باللكمات ، وركله في بطنه بالحذاء وهو يزمجر أثناء ذلك كله :

— تفضحني وسط الناس يا ابن ...

وحسن يصرخ ويستنجد بطوب الأرض .

— حقتك على ياعم توفيق ، أنا غلطان ياعم توفيق .. ورفع توفيق من جلبابه فأوقفه على قدميه وكانت الناس قد التفت حولهما وجاءت فتحية أيضا تسبه وتضربه ، وتوفيق يقسم بأغلظ الايمان انه لن يتركه الا في النقطة . وتدخل الناس و « معلش ياسى توفيق » ده غلبان ياشاويش توفيق .

ورضى توفيق أخيرا أن يتركه على شرط .. أن يدفع ما عليه !

ونظر الناس الى حسن وهو يغض بصره نحو الأرض ، علم الناس في ذلك الصباح أن توفيق يدينه في عشرة جنيهات دفعها ليلة الزفاف ليدفعها حسن مقدم الصداق لزوجته ، ونام حسن في تلك الليلة وفي الليالي التالية في الجمعية ثم باع القراطين ليدفع مؤخر الصداق والدين الذى عليه . وظلت فتحية في المنذرة وانتقل اليها توفيق العسكري ، ومضت شهور طويلة وحسن بلا بيت ولا عمل ، وتعلم حسن الصلاة ، فقد كان ينام في المصلية التي على حرف النهر خارج القرية ، وقال الناس انه « مخاوى » .. احدى جنيات البحر بيضاء وشعرها طويل واسنانها لامعة . واطافرها حادة قاتلة ، وانها تخرج اليه في الليالي القمرية عند المصلية . وعندما مرض العسكري بعد ذلك ومات قال الناس انه قد استعان بالجنية للانتقام منه ، وانه سينتقم غدا من زوجته ، ولكنها لم تلبث أن غادرت القرية ذات صباح الى حيث لا يعلم احد ، وفي بعض الليالي كان الناس يذهبون الى حسن في المصلية وكان يحكى لهم دوما حلمه الذى رآه في الليل وهو نائم عندما جاءه سيدى الخضر وأنباه بقرب نهاية العالم وان الأرض لن تلبث أن تزول بما فيها ومن فيها .. ثم لا يلبث أن يسأله أحد الحاضرين :

— واياه حكاية الخوجاية ؟

ويحكيا حسن . . . ولكن بأسلوب آخر ، وذقنه التي طالت تضرب في صدره الذي ضباق ، وعبارة واحدة يختتم بها الحديث دائما :

— إخص على الخواجات وعلى سنينهم ، دول ناس مسخرة .

●●

كان الرجال الذين كانوا على المقهى وقت أن مر النعش في طريقه الى المقابر مازالوا في أماكنهم عندما هبطت النسوة من فوق الأكمة الى القرية حاملات المشاعل وقد اطفئت جميعها الا مشعلا واحدا لينير لهن الطريق ، وعندما أصبحن في محاذاة الرجال صاح أحدهم متهكما :

— الله يرحمك يا حسن . . . دول صحيح كلهم غريان ! وعض الآخرون على شفاهم وهم يهرشون في أعقيتهم . . . وتذكروا كيف كانوا يسخرون بحسن وبقصته ، وان كان كل منهم قد يتمنى في أعماقه أن يكون له امرأة بيضاء مثل اللبن الحليب تشبهه بتلك التي رآها حسن واحتضنها بين ذراعيه ذات صباح في طريق الهرم .



جاء الشتاء



تجاوبت جدران السجن الصماء بأصدااء صرخات الحراس
الرهيبية ووقع أقدام المجرمين المثقلة بالحديد ، وهم
يجرونها في ردهات السجن الطويلة نحو مصيرهم الذي
الفوه ، وانتهت الضجة في لحظات ، فقد اصطف
المسجونون في طابور بانس طويل ينتفضون من موجة
البرد الشديدة التي وفدت فجأة على المدينة وكان الطقس
بالأمس دافئاً جميلاً ، ولكنهم سرعان ما نسوا البرد ،
فقد دبّت الحرارة في أوصالهم المرتعشة وهم يسحبون
في حماس شديد نحو الجبل ، وكانهم فرقة من الجنود
عائدة من ميدان القتال إلى المدينة . .

ولم يكن ثمة ما يثير انتباه أحد بين هذا الطابور التعس من الرجال الأشقياء
إذ كل شيء يسير في نظامه المعهود ، على الطريق الحجري الطويل بين سور
مضروب من الأسلاك الشائكة وينادق الجند المصوبة في خمول إلى صدور
المجرمين .

ثمة رجل واحد كان يسير في نهاية الطابور ، وكل شيء يبدو جديداً أمامه
وغير مألوف لديه .

فقد كانت قدماء تصافح أحجار الطريق للمرة الأولى . ولم تكن تشيع
في وجهه علامات الرضا كغيره من أفراد الطابور ، بل كان يبدو قلقاً وأسنان
الصغيرة الحادة كأسنان فارة تقضم أظافر أصابعه الخمسة في عصبية
مخومة .

لقد كان كل شيء يبدو أمام عقله الصغير غريبا هذه المرة .. لقد دخل
السجن من قبل مرات عديدة .. وكان هو الذي يسعى اليه .. ولكنه في هذه
المرّة في الليمان .. وهؤلاء الذين يمشى معهم وحوش وليسوا آدميين ، وكل
منهم نجا من حبل المشنقة بأعجوبة .. انهم موتى غير أن قلوبهم حية تنبض
بالحقد المرير ..

وتعجب حسن لهذا القدر الذي جمع في هذا الطابور عسكرا وفيرا
من القتلة - وهو أيضا .. قاتل مثلهم .. ولكن ..
وصرخ حسن من الألم ، فقد هوت على كتفيه كموب بنادق الجند ، فقد
أجل حسن بالنظام وهو « سارج » في وجوده الضائع .
وعاد حسن يجرى وهو يلث ليلحق بالقطيع البائس ، وعندما لحق
بمكانه في الطابور لم ينظر اليه أحد ولم يهتم به انسان .
ان كل فرد في الطابور لايهتم بغيره ، ان نفسه فقط هي المحور الذي
تدور حوله حياته .

وعاد حسن من جديد يقضم أظفاره وعقله يقضم من أحشاء الماضي قصة
وجوده الذي ضاع .
انه منذ عشرة أعوام وهو يمارس الحياة في حي السبئية ، وكان يمارسها
قبل ذلك بسبعة عشر عاما .. غير أن فصولها الأولى ضاعت ولم تبق منها
الآن الا صور باهتة . غير أنه منذ عشرة أعوام وهو يذكر جيدا انه بدأ يمارس
الحياة بوعي لكل ما يجري حوله ..

كان فتى قويا شديد البأس كأنه ضبع ، وعندما واجه الحياة كانت نفسه
تفيض آمالا عذبة : مسكن فسيح ، وعمل مستقر ، وزوجة تملأ بيته ..
ولكن كيف السبيل الى تحقيقها ؟ بالمال .. ثم أين المال ؟ بالعمل ، صحيح
أن حسن عمل خبازا مدة طويلة ، يعجن كالنساء مع خمسة من أقرانه ، وقوته
تنوب مع الليل الكئيب ، وخمسة عشر قرشا هي كل ما يناله حسن في
الصباح .

خمسة عشر قرشا .. وعمل تافه كالنساء ..
.. وهكذا أصبح حسن « قهوجي » في حي السبئية .. عمل أنظف
وأكثر راحة ولائق بالرجال ، والثمان واحد .. خمسة عشر قرشا ..
وفي المقهى يجلس عبيد وأصابعه العشرة تزينها خواتم من ذهب ..

والصديري الشاهي يبرز من فتحة جلبابه الجوخ . واللاسطة الحريرية تلتف حول رقبته ، والحذاء اللامع يبرق في قدميه ، وهو لا يعمل ولا يجرى ، وإنما يوزع الحشيش على الراغبين ويكسب ويتزوج ويطلق ، وله في السبئية أكثر من عشيقة وأكثر من تابع ذليل .

وترك حسن العمل في المقهى وجلس فيها وأصبح جيبه غامرا بلفافات الحشيش ، وعرف المارة طريقهم اليه . ولم يعد حسن يجرى ولا يلهث ، وهو يكسب جنيتها وأحيانا أكثر ، ولسوف يهبط الثراء عليه يوما ما ، فهو ليس أقل من عبيد ، بل هو أقوى وأكثر شبابا . . . ولكنه أفقر ، والزمن الذي يجري به كفيل بحل المشكلة ولكن الزمن كان يجري به في الطريق المضاد ، فقد وقعت « كاسمة » على المقهى وضبط حسن ، وفر عبيد قبل أن يحضر البوليس لمقد كان يعرف .

وهكذا دخل حسن السجن أول مرة ، ولم يمكث طويلا ، فقد قضى الشتاء بطوله ثم عاد إلى السبئية مع الصيف .

ولم يقلح حسن هذه المرة في أن يصبح تاجر حشيش ، فهو مفلس ليس معه شيء ، والتجار الكبار رفضوا التعامل معه ، فهو مشجوه معرض للوقوع في أيدي البوليس ، ومعنى هذا ضياع أموالهم كما ضاعت من قبل ، والحشيش تجارة ، والكبار في ميدان التجارة يسحقون الصغار بلا هوادة وحسن صغير في الميدان وعبيد من الكبار ونجح في أن يسبقه .

عاش حسن شهور الضيف . . . وهو نفسه لا يدري كيف ؟ . . . المهم أنه كان يأكل ويشرب وينام دون عمل فهو منذ أن هجر المخبز وقد قررا ألا يعود إليه ، ومنذ تذوق ربح الحشيش لا يستطيع أن يقبل خمسة عشر قرشاً ليعلم الاوغاد والعاطلين المترددين في مقهى السبئية .

ولكن شيئا ما أزعجه ، فقد حل الشتاء ، ولم يعد يستطيع النوم على رصيف الشارع ، ولم يعد يحتمل الجوع ، فالبرد قارس ، وهو في حاجة إلى غذاء ، وليس هناك من سبيل .

وتذكر حسن والريح تعصف بوجهه الشتاء الذي مضى ، وهو في زنزانة السجن الدافئة ومن تحت البرش والوجبات الثلاث كل يوم والحياة الرتيبة . . . ولا تفكير في الغد . . . وشهدت مقهى الكمال في الصباح معركة عنيفة دارت بين حسن والذين

كانوا فى المقهى ذلك الوقت الباكر من الصباح .. ولا احد يعلم السبب فى
الشجار .. المهم ان حسن حطم الكراسى والاوائى والاكواب .. واكثر من
رأس ..

واختفى حسن من حى السبئية شهورا عديدة ، ثم عاد مع الصيف يعيش
مثلا كان فى الصيف الذى مضى ، يأكل ويشرب وينام .. وهو نفسه لا يدري
.. كيف ؟

وعندما جاء الشتاء شهد المقهى المواجه لمقهى الكمال معركة رهيبه كان
بطلها حسن .

وكما لم يعرف الناس سبب المعركة الماضية لم يستطيعوا معرفة السبب
فى معركة اليوم ، المهم أن حسن حطم المقهى تماما ، واختفى بين أيدي
البوليس وراء جدران السجن .

وشاعت قصة حسن فى الحى ..

وعندما عاد هذه المرة كان قد أصبح أحمق ، فالنساء يتغامزن حوله
وهو سائر بين أزقة الحى من خلف النوافذ .. والرجال يقفون ويفسحون له
الطريق .. وأصحاب المقاهى يحلفون بالطلاق أن يشرفهم حسن بالجلوس
معهم قليلا .

وعرفت النقود طريقها اليه من جديد « شغلة » جديدة وسهلة ليس فيها
عرق الفرن ولا مذلة الخدمة ولا مغامرة التجارة فى الحشيش ، انه يطلب
فقط ، والناس من حوله تلبى ما يطلبه ..

وعندما حل الشتاء هذه المرة لم يجد حسن نفسه مضطرا الى تحطيم
شئ ، فهو يأكل ويشرب ، والنقود من بين يديه ، وله أكثر من عشيقه ، والناس
تخشاه .. حتى عبيد نفسه أصبح يهاب حسن ويخشاه ..

وعاد حسن يصرخ من الألم .. وكعوب البنادق تنهال على كتفه ، فقد
أخل بالنظام من جديد وهو « سارخ » فى ماضيه ، وعندما وصل الى مكانه
فى الطابور ، كان كل شئ يبدو هادئا حوله ..

وعاد حسن من جديد ليفكر فى ماضيه بعد أن أصبح له فى الحى مكان
رفيع ..

وتذكر فردوس التى استعصت على كل الرجال ما عداه .. وتذكرها
وهى تخطر من أمام المقهى فى « الملاءة اللف » ووجهها الصبوح كأنه ابتسامة
عريضة وشعرها المتهدل يخفى عيناها اليمين ..

انه يذكرها عندما غمرت له ، وعندما لحق بها فى الزقاق الضيق الذى ينتهى الى المدحديرة ، ثم غزواته معها ، والهمس الذى كان يدور على السنة الجميع ..

.. ثم يذكر وهو يحث الخطى على الطريق . مناديل « الترتير » التى اشتراها لها .. وزجاجات الكحل التى أوصته عليها .. وأرطال اللحم الضأن التى كان يحضرها كل يوم لها .. وأنواع الفواكه التى كان يحملها معه كل مساء ، وسكوت أهلها ورضائهم رغم أتوقهم .

لقد كان ممكنا أن تسير به الحياة هكذا الى الابد ، فياكل ويشرب وينعم بفردوس وغيرها .. ولكنه فوجئ بفتور من جانب الناس لم يلحظه بادئ الامر وقد ظنه أمرا عارضا لا يلبث أن يزال . ولكنه على مر الايام لاحظ أن الفتور قد زاد الى حد أن أصبح واضحا . والذين كانوا يدفعون الاتاوات كل يوم . أصبحوا يدفعون يوما بعد يوم ، وأحيانا يوما كل أسبوع ، ثم يوما كل شهر .

ولم تعد تكفيه القروش القليلة ، انه فى حاجة الى مال وفير ، لياكل كما اعتاد وليدخن وليلبى طلبات فردوس التى تزداد يوما بعد يوم .

وفكر طويلا فى الامر .. ماذا يفعل ؟ .. هل يضرب الناس ؟ لقد بات يخشى السجن الذى كان يهواه وهو يرفض العمل .. ويريد أن يحتفظ بمكانه الذى وثب اليه فى الحياة ، ويود لو يحتفظ بكل ما ينعم به الآن ، دون مشاكل ولا أرهاق ، ولكن يبدو أن الناس قد اكتشفوا المضعف الذى تسلل الى قلبه .. اكتشفوا انه لم يعد ذلك الوحش الذى كان بالامس .. لقد أصبح مهذبا يحل المشاكل بالتفاهم بدلا من قبضة اليد ، لابد ان الناس اكتشفوا تلك الحقيقة لانهم لم يعودوا يرفضون الدفع بل انهم يتحرشون به وكأنهم يمتحنون قوته وهو أحيانا يكتم كل ما فى نفسه من ثورة ليمر الامر وكأنه لم يلحظه ، وأحيانا تسول له نفسه أن يبطش بمن يقف فى طريقه .. ولكن فردوس والحياة اللذيذة التى يحياها ، صحيح انه فقد الطمأنينة ، ولكن فليحتفظ بالحياة .. ومرت أيام طويلة وحسن يضطر الى تدخين السجائر « الفسوط » .. والتهام الوجبات غير المناسبة .. والبعد عن فردوس أياما لا يراها ، ولا تراه .. وأحيانا كان حسن يتميز غيظا وهو قابض وحده فى مكان بعيد وينطح رأسه الحائط وهو يحدث نفسه : هل هو حقا جبان ؟ ان الخوف لم يعرف

طريقه اليه من قبل ٠٠ وهو مستعد الآن لان يحارب قبيلة وبلا سلاح ٠٠ اذن ماذا ؟ انه الحرص ، ولكن ، على أى أمل ، ان تعود المياه وحدها الى مجاريها .

ولكن حسن كان واهما ٠٠ فكل يوم يمر به كان يؤكد له ان نجمة قد أفل ، وان أياما سوداء مقبلة عليه ٠٠ وكان من الممكن أن يحتفل حسن كل شيء الا هذا الذى حدث ٠٠ فقد أصبح الفتور وباء معديا ينتقل بسرعة مذهلة فيصيب الناس حتى أصاب آخر الامر ٠٠ فردوس .

ولكن ما السبب ؟ انه لم ييخل عليها بشيء على الاطلاق .
كان دائما رهن اشارتها ، كانت تطلب وهو يجيب ٠٠ وفكر حسن قليلا، لابد أن هذا هو السبب فهو منذ مدة طويلة لم يعد فى استطاعته ان يجيب ٠٠ وهى دائما تطلب ، وألف رجل على استعداد أن يجيب ، وكان الذى أصاب هذه المرة ٠٠ عبيد .

لقد سحقه مرة فى دنيا التجارة وها هو يسحقه مرة أخرى فى عالم النساء ٠٠ وهاهو أحيانا يعتريه ضعف فيتراجع ولكنه دائما ينتصر ٠٠ وأحسن حسن بالمرارة تفيض بها نفسه ، وتمنى فى سريرته لو استطاع أن يشارك عبيد فى فردوس حتى تعود الاحوال الى ما كانت عليه .
وفكر حسن فى أن يقتل عبيد ، ولكنه قوى ، وعنده مال ورجال ، ويستطيع بسهولة أن يسحقه كما كان يفعل من قبل ، اذن من يقتل والرغبة تلح عليه فى أن يقتل أى انسان .

ثم جاءت فرصة عندما ذهب الى فردوس يطلب منها حلقة ذهبية كان قد أهداها لها فى أيام بعيدة ، ولم يجدها هناك ، ووجد زوجها ٠٠ هذا البائس المحطم كأنه عود قصب تحالفت عليه أنواء الشتاء ٠٠ ولم يدر حسن ماذا يفعل ، لقد رفع قطعة حديد بيده وهوى بها على الزوج ٠٠ ولم يكن فى الحقيقة يريد قتله ، كان فقط يريد أن ينتصر عليه .

وعاد حسن من جديد يذكر ماذا حدث بعد ذلك ، التحقيق والمحاكمة ، والحكم بالاشغال المؤبدة ٠٠ وتذكر وجوه الصف الطويل من الشهود الذين شهدوا ضده ووقفوا ضده ، وهؤلاء خلف قضبان الحديد من أصحاب المقاهى والباعة والمشردين ، والذين كانوا يقبلون يديه .
ولكنه لم يهتم لهذه الوجوه الكثيرة قدر اهتمامه بوجهين : وجه فردوس ،

ووجه عبید ، وجهها وهى تحكى ، كيف راودها عن نفسها ٠٠ وكيف صدته
برفق فى البداية حتى لا تتثير فضيحة ، ثم اضطرت الى ابلاغ زوجها بالامر ٠٠
ووجه عبید وهو يروى فى هدوء وورع ، كيف أن هذا الواقف خلف قضبان
الحديد خطر على الفضيلة والامانة والامن العام ٠٠

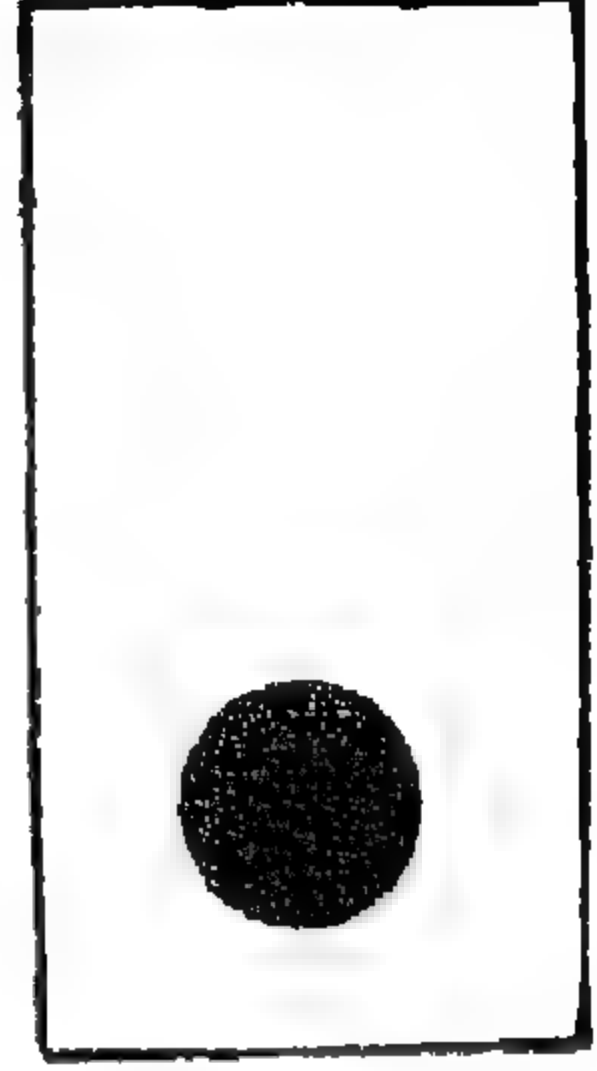
وضغط حسن على أسنانه وهو يذكر عبید ٠٠ لقد انتصر فى النهاية على
كل أعدائه ، حسن فى السجن ، والزوج فى التراب ولا بد هو الان يحكم الحى
من فوق كرسيه بمقهى الكمال بالسبتية ٠

كان المطايور البائس من الرجال الاشقياء قد وصل الى نهاية سفح
الجبل عندما انهمر المطر فجأة وبشدة ، وكأن عددا وفيرا من المآسى الرهيبة
قد هز أشجان السماء فراحت تذرف الدمع الهتون عله يجرف أمامه كل ما هو
شر ، على أرض البشر ٠٠ وانتشر الرجال الاشقياء فى أنحاء الجبل ليفروا
بجلودهم من المطر ٠٠

رجل وأجد كان يقف مرفوع الرأس نحو السماء الممطرة ، وعلى فمسه
ابتسامة الرضا وقد غاب القلق عن قسماات وجهه العريض ٠ لقد جاء الشتاء ،
وهو ليس فى حاجة لتحطيم المقاعد والرؤوس ليدخل السجن ٠



فـ ليلة العيد



كان المـقهـى عامـرا هـذه الـلـيلة ٠٠ لـيلة العيد ، والزبائن
يـدون غـيرهم بالـامس ٠٠ فـهم رـغم الكـآبة المـظـلة مـن
عـيونهم المـتـنـفـخة الـا ان احـاديثهم فـكهة ومـلابسهم جـديدة،
وفـى جـيوبهم بـعض النـقود ٠٠ والمـعلم أـمين صـاحب المـقهـى
يـسـدو فرحـا هـو الـآخـر ، مـتـنـفـخـا كـالـديـك فـى جـلسـته المـهـادئة عـلى الرـصـيف
المـقـابـل ، والشـيشة فـى فـمه ، واصـنـابـه المـنـحـيلة المـدبـية كـمـخـالب الطـير تـلمـس
بـالخـوا تـم الـذهـب ، والصـديـرى الشـاهـى يـبرـز مـن بـين فـتـحة الجـلبـاب الصـوف ،
والـلـيلة لـيلة صـيف ، والنـسـيم يـهب حـينـارطـبا بـديـا ، وحـينـا آخـر مـشـبـعا بـالـتراب
و « المـعلم » أـمين يـفـلسـف كـعـادته دائـما لـافـراد الشـلة الـذين تـناشـروا حـوله عـلى
المـقـاعد فـوق الرـصـيف : كـاذـب مـن يـقـول ان الـتراب يـضـر بـصـحة النـاس انـنا جـمـيعـا
مـن الـتراب ، لا يـضـر بـالنـاس الـا الـاعـمال السيئة ٠٠ ويـجـيب الـقـطـيع البـائـس
الـجالـس حـول المـعلم أـمين بـهـز الرـؤـوس ومـصـمـصـة الشـفـاه عـلامـة الـاعـجـاب
المـزـوج بـالـدهـشة مـن قـول المـعلم أـمين ، ان احـدا مـن الـجالـسين لا يـسـتـطـيع ان
يـناقـش اقـوال المـعلم ، انهم لا يـفـهـمـون مـعـنى النـقاش ، وهم ايـضـا لـيسـوا فـى
حـاجة اليـه ٠٠ لـقد تـعـودوا سـمـاع مـثل هـذه الحـكم البـالـغة مـن المـعلم فـى بـعض
الـليـالى الـتى يـنـجـلى فـيها ، وهم يـفرحـون لمـثل تـلك الـليـالى لان كـلا مـنهم يـسـتـطـيع
ان يـشـرب عـلى « الحـسـاب » او يـقـامـر عـلى الحـسـاب بـل وفـى بـعض الـليـالى الـتى
يـكون فـيها المـعلم مـبـتـهـجا لـلـغـاية يـسـتـطـيع بـعضهم ان يـقـترـض شـيئا مـن النـقود
ويـعـود المـعلم أـمين الـى حـديثه مـحرـكا الهـواء بـراحة يـده مـتـعـمدا خـلال ذـلك
ان يـرى الـجـمـع المـحتـشد حـوله ، الخـوا تـم الـذهـبية الـلامـعة ، والمـفـصـوص الـياقوت

التي تبدو وكأنها عيون ملتهبة لشياطين أقزام ، والفائلة الحمراء ذات الكم الطويل المشغول بالابرة في نهايته ثم يرفع حذاءه الاجلسيه الى أعلى قليلا محركا أصابعه داخل الحذاء قبل أن يقول :

— صحيح ليس التراب هو الذى يضر بالناس ، وليس هو الطين أو الدود ، أنا أعرف مخلوقات فى حجم الجان وفى قوة سباع الغاب ، يقضون حياتهم أبدا ، وطعامهم دود المش ، وشرابهم طين النهر . . . وعملهم نبش الارض بأظافر اليدين والمقدمين . . . انه اذن ليس التراب والطين والدود الذى يضر بصحة الناس وانما الذى يضرهم هو الطمع هو الشره ، هو الملهث الذى لاينتهى أبدا فى سبيل جمع المال .

وعادت الدهشة الممزوجة بالرضا ترتسم على وجوه الناس المنصتين فى غير حماس الى قول المعلم أمين وكأنما لحظ المعلم هذا التراخى من جانب الجالسين ، فصفق بشدة للجرسون الذى أقبل على عجل يقطع الشارع وثبا بكلتا قدميه كحيوان الكنجر . وطلب المعلم مشروبات للجالسين ، ثم تمطى فى خمول وتثائب فاغرا فاه فبدا فى وجهه حفرة واسعة كباب القبر ، وبدأت أسنانه الصندئة الصفراء المتأكلة كأنها بقايا عظام ميت . . . ومضت فترة صمت طويلة قبل أن يعود المعلم أمين الى حديثه الذى يتناول كل شيء تقريبا ، من شئون الدنيا والدين الى الحب وروايات السينما الى موضوعه المفضل دائما . . . أيام زمان .

— نعم ، اننا نقتل بعضنا بعضا ، بالظلم والعقد والحسد . . . كلنا فى هذه الحياة قتلة ومقتولون . . . ولا أدري لماذا أصبحت الحياة شقية بائسة الى هذا الحد . . . وكانت منذ أربعين عاما هينة لينة جميلة على الدوام . . . هل أجذبت الارض ؟ هل جف ماء النهر ؟ هل نقصت خيرات الله ؟ لا بد أن شيئا من هذا قد حدث . . . والا . . . فلماذا كل هذا البؤس ، وكل هذا الظلم ، وكل هذا القتال العنيف فى سبيل الحياة . . .

وكان المعلم أمين يكرر هذا الحديث كلما اجتمع حوله بعض الرجسالى وكان يبين من حديثه أنه دوما تواق الى . . . أيام زمان تلك الايام التى عاشها فى شبابه قاطعا مسافات شاسعة من الارض لهثا وراء قطيع من الاغنام فى طريقه الى المذبح جامعا قرشا فوق قرش حتى كون ثروة ضئيلة استطاع أن يشتري بها المقهى وأن يلبس القفاطين الشاهى والساعة ذات الكتيبة الذهب

والحذاء الاجلسيه ٠٠ واستطاع ايضا ان يشتري كل هؤلاء الرجال
المنصتين .

وكان من المفروض ان يستمر المعلم امين في حديثه وان يستمر الذين
حوله في اماكنهم طالما ان المعلم لا ينسأهم خلال حديثه فيصفق بشسدة بين
الحين والحين طالبا المشاريب متجانا لهؤلاء الصحاب . ولكن المعلم قطع
حديثه فجأة وقد لمعت عيناه وهو يصوب بصره داخل زقاق الاباصيرى الذى
يمتد بجدار المقهى وينتهى بجدار أسود اللون من أثر دخان « مستوقد » الفول
الذى يجاوره . ولحظ الرجال الذين كانوا على الرصيف شبحا يخطر على
مهل في طريقه من داخل الزقاق الى الشارع العمومى . وقبل ان يصل
الشبح الى ناصية الشارع كان المعلم قد أسرع متجها ناحيته وانتحى به
جانبا فترة من الوقت ، مضى بعدها الشبح فى طريقه الى الشارع ، وعندئذ
تبين للرجال ان الشبح لامرأة تبدو داخل الملاعة السوداء صغيرة جميلة لدنة
كالعصا الخيزران . ومن جديد عاد المعلم امين الى جلسته مع الصحاب ،
ولكنه لم يتكلم بل ظل صامتا بعد ان دس شيئا صغيرا كان بين أصابعه فى فمه
٠٠ ونادى على الجرسون ودس فى يده جنيها وطلب ثلاثة أرطال من اللحم
الضأن وأربعة أرغفة وحزمة من الفجل وليمونة خضراء .

ثم جلس هادئا مزهوا كأنه قائد يخرج لتوه منتصرا فى معركة . . . ومبر
ماسح الاحذية ونقر بقرشاته على الصندوق ولكن المعلم امين لم يجبه مكتفيا
بالنظر الى الحذاء اللامع وعاود الصبى الصغير النقر على الصندوق فركله
المعلم امين بقدمه فى بطنه ، فتقهقر عائدا للخلف فى خطوات سريعة غير
منتظمة ثم اعتدل . . . ومضى .

وعاد المعلم امين الى جلسته الهادئة المنتفخة كأنه ديك . . . وأقبل بعد قليل
رجل سمين قصير القامة منتفخ الوداج أضلع الرأس لامع البشرة يبدو وكأنه
عجل صخين معد للذبح . . . فى نظرتة تبدو الطيبة ممتزجة بالبلاهة والغباء ،
ملطخ الملابس ببقع الدم وبقايا قطع اللحم الرخيص . . . وحيا الرجل المعلم امين
وصحبه . . . ثم ادخل بيده خلال فتحة الجلباب وضرب ركبتة بيده قبل ان يقول :
- مفيش لعب يا معلم ؟

ودون ان يتحرك المعلم من مكانه قال فى هدوء :

- ايه الحكاية يا معلم نسر . . . لازم غنى النهارده !!

— نجرب يا معلم ..

— طيب استنى اما أجيبك الواد سيد ..

وغاب الجرسون قليلا ثم عاد ومعه سيد .. نحيفا ضئيلا غائر العينين بارز عظام الوجه له نظرة لص غشاش ، وان كانت تفصح في نفس الوقت عن شخصية ذكية طموحة وأعصاب قلقة ثائرة ، وصفق سيد فرحا وقفز في الهواء عدة قفزات متتالية :

— مساء الفل يا معلم نسر .. العشرة بجنيه مشفى ..

ورد النسر في بلاهة :

— نتفرج ..

ونهض المعلم أمين على الفور ليعد لهما المائدة والدسطة الجديدة والمقاعد وقطع الطباشير ، ولم يكن في المقهى سوى أربع مواثد مشغولة باللاعبين ، فانقض المعلم على احداها وحملها بين يديه وقذف بها على الرصيف ، وعندما احتج اللاعبون صفع كلا منهم على وجهه وقذف بهم الى عرض الطريق .. وهكذا اعدت الجلسة بسرعة للمباراة التي ستنشب بين الرجلين ، وانهض الصحاب الذين كانوا حول المعلم أمين فالتفوا باللاعبين ..

وبدأت المباراة ، قذف كل منهما ورقة من ذات الجنيه وبدأ التفنيط والتفريق واللعب وطار الجنيه الاول والثاني والثالث والرابع ، وعقارب الساعة تأكل ظلام الليل ، واللعب وئيد رتيب والخسارة تتزايد وأعصاب اللاعبين والمتفرجين على السواء قلقة محترقة بتأثير السهر والملمس والنيكوتين .. وجاء الجرسون فهمس في أذن المعلم أمين بكلمات قصيرة ، فاستأذن بعد أن سلم « التامين » لاحد الحاضرين وغاب داخل الزقاق ومضت ساعات طويلة قبل أن يبرز ضوء الفجر ، ومع الفجر عاد المعلم أمين ، وكان الرجل الضئيل النحيل سيد قد خسر كل ما معه .. خمسة عشر جنيها بالتمام ، وآخر « عشرة » قد انتهت ، والمعلم نسر يفنط الكوتشينة ، وسيد يبحث في كل خرق من جلبابه عن نقود ، والمتفرجون يشرحون في لذة فائقة سير العشرة الاخيرة وكيف أن المعلم نسر ترك « الاس البسطونى » من يده ، ولو تمهل قليلا لحسم العشرة قبل الاوان ..

واشترك الجميع في هذا النقاش الذى يدور عادة بعد كل عشرة فنية وكان الحاضرون قد بلغوا العشرين رجلا ، فقد خرج كل زبائن المقهى

ليشهدوا سير المعركة الرهيبة بين المعلم نسر وسيد ٠٠ أو أبو سيد كما يطلق عليه المعلم أمين من باب المزاح ٠٠ ٠٠ وقطع هذه الثرثرة الفسارغة على المشاهدين صوت أبو سيد وهو يصرخ فجأة :

— خمس دقائق أروح أجيب فلوس واجى ٠٠

وفى هدوء بالغ رد المعلم نسر :

— وأنا ايه اللي يخلينى أستفك ؟

— لازم تكفينى لعب ، كده الاصول

— الاصول هى اللي بقولك عليها ٠٠

ووافق المعلم أمين على كلام نسر وأيده كذلك كل الحاضرين ، فان نسر كان لا يهدأ طوال اللعب فى طلب المشاريب « للجدةان » الذين التقوا حول المائدة وسادت فترة صمت قصيرة قبل أن يعد أبو سيد يده فى حركة عصبية محمومة الى المعلم أمين ويقول :

— هات جنيه لحد الصبح يا معلم ٠٠

— ماحنا الصبح دلوقت ٠٠ كل سنة وانت طيب ٠٠

— قصدى لحد ما روح البيت ٠٠

— على الطلاق من بيتى ما فيه فى جيبى مليم خردة

وكانت المفاجأة قاسية لأبو سيد لم يستطع تحملها فازدرد ريقه عدة مرات ثم قال للمعلم بنفس الصوت المخنوق بعبيرات غير منظورة :

— أنا شايف معاك فلوس زى البنك دلوقت والا خسارة فيه الجنيه ؟

كأنما أثار هذا التحدى والاصرار من جانب أبو سيد المعلم أمين فصرخ

مهتاجا :

— الله ، انت شريكى ؟ ٠٠ حالف من بيتى طلاق تلاته ما سلف أخويا

ابن أمى وأبويا ٠٠ حد شريكى !!

وفى لمح البصر هب أبو سيد كالمجنون خالعا عنه جلبابه وقذف بها فى

حجر المعلم ثم جلس وقبض نسر على الجلباب قبل أن يقول مستنكرا :

— دى ماتساويش نكله •

— هيه ايه دى — على الحرام انت ما تعرف تلبسها ٠٠

وحسم المعلم أمين النقاش بأن وافق على استئناف اللعب على أن تكون

آخر « عشرة » اذا خسر أبو سيد اللعب ٠٠ وهكذا بدأ التفنيط والتفريق ولكن

بهدهوء أعمق وعدم مبالاة من جانب المعلم نسر ، وبعضبية أشد من جانب
أبو سيد . وجاء عسكري الداورية فسلم على الجميع ، وكل سنة وانت طيب
يا معلم . وانت طيب يا حضرة الصول .
شاي الاصطباحة يا واد للباش شاويش
حاضر يا معلم

كل هذا واللعب يدور بين الغريمين شبه معركة حربية يتوقف عليها مصير
الحرب ولم يمض وقت طويل حتى ظهر واضحا ان الحظ قد فر تلك الليلة من
جانب أبو سيد وأنه سيخسر حتى جلبابه . . هكذا أدرك أبو سيد أيضا وهو
يلعب آخر « طبلية » واللعب يسير خفيفا وبحذر وتباشير الصباح تلوح
فيما وراء الأفق وصياح الديكة يملأ الجو وقرقعة عربات « الكارو » تسمع
من بعيد والنسمات الباردة الندية التي تهب في مثل هذا الوقت من كل
صباح تنعش الجميع الا اللاعبين فقد كانا يتصببان عرقا وكأنهما خارجان
لتوهما من حمام ساخن .

وهكذا انتهت العشرة وخسر سيد جلبابه فبدت عيناه المنتفختان حمراوين
كحبات التين البرشومي المعطوبة . . وأخذ الرجال الذين كانوا يشهدون
اللعب في الانسحاب في هدوء وفي اصرار مد ابو سيد يده الى المعلم نسر
وقال بصوت مخنوق وكأنه طفل قضى في البكاء وقتا طويلا .
- هات اثنين جنيه يا نسر

- ولا ملين

قالها نسر في هدوء غير متكلف وعاد أبو سيد يطلب بنفس الاعصاب
الثائرة والصوت المخنوق .
- لا حاخذ اثنين جنيه
- والنبي لما تتشقق ، أنا خسران معاك الجلد والسقط .

وأدرك أبو سيد أنه لا فائدة ترجى من وراء النقاش وأنه حتما ذاهب
الى منزله بلا جلباب ولا نقود . . وأطرق قليلا نحو الأرض يفكر وهو يصر على
أسنانه كالكلب ويدعك عينيه بأصبعه ، وبسرعة خاطفه سدد أبو سيد لكمسة
قوية الى فك غريمه انتجت صوتا أشبه بذلك الذي يحدث من احتراق خشب
داخل فرن متقد . . وعندما أفاق المعلم نسر من المفاجأة قذف بغريمه في عرض
الطريق وظل يلاحقه بالركل والضرب بقسوة وشدة بالغة وكأنه ينتوى قتله . .

وعندما وقف أبو سيد على قدميه أدرك أن عسكري البوليس قد قرر أن يؤدي واجبه فانسحب مخترقا الزقاق الى منزله .

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها نحو الارض والزقاق يبدو رغم الصباح مظلمًا والبيوت التي الى جانبيه متداعية الاركان متهاكة تشققت جوانبها بفعل السنين الطويلة التي مرت عليها والنوافذ تفسخت وتحطم زجاجها منذ عهد غابر وبقيت بقاياها على النوافذ مكتسبا لونها الذي كان ناصعا يوما ما . لونا آخر شبيه بلون المياه الراكدة ومصباح الحكومة الذي يتوسط الزقاق يلفظ آخر أنفاسه ولم يبق فيه سوى ذبالة ضئيلة مرتعشة خافتة وأحس أبو سيد بالدوار وهو يفتح الباب الخشبي المضخم الذي تزينه نقوش كالحة كنقوش التجاعيد التي يضيفها الزمن الجبار الى الوجوه الشائخة .

وعندما أغلق الباب من خلفه حدث في وسط المساحة الرطبة شيء غريب لم يكن يتوقعه وكان ولده أبو حباجة في طريقه الى الخارج فمد يده اليه :

— هات قرش

وانتفض سيد كالمجنون وبكل ما تبقى فيه من قوة صفعه على وجهه وحمله بين يديه وفتح الباب وقذفه الى الزقاق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وضج الزقاق بصراخ الطفل ونباح كلب عجوز كان نائما أزعجه الصراخ فقام محتجا بصوته البغيض، على تلك الضجة المقلقة وجرى بعض الرجال الذين كانوا ما يزالون في أماكنهم عند ناصية الشارع ليلحقوا بالطفل المطروح على أرض الزقاق . . . وعندما رفعوا الطفل من فوق الأرض . . . كان هناك في الطابق الاعلى من المنزل رأس امرأة صغيرة حسناء رغم الشحوب الذي يبدو في وجهها وكانت هي أم الطفل وزوجة سيد النقاش . . . وعرف الرجال في ذلك الصباح أنها هي التي انتحى بها المعلم أمين في ظلام الليلة الماضية فترة في الزقاق . . .



ديان بيان قو



محمد عبيد أمي لا يقرأ ولا يكتب • ولكنه قادر على
التفاهم بخمس لغات • وهو نكس من طول ما عمل
في ميناء بور سعيد ، يعرف جنسية الخواجا من
سجلته ، ويكسب القرش بالفهلوة • • وهو
مشهور بين عمال الميناء باسم الفهلوى • وعندما نشبت الحرب أغلقت
الحكومة البوغاز ، ولم يعد الميناء يشهد سوى مراكب حربية كثيرة يركبها
جنود فقراء • • تدخل سرا وتخرج سرا • • والاقتراب منها ممنوع • ومع
ان الفهلوى في استطاعته ان يصعد على ظهر اية باخرة يشاء وفي اى وقت
يريد • • وبلا تصريح ، الا انه لم يرغب في الصعود على ظهر واحدة من
هذه البواخر الكثيرة التي تنقل بدل البضائع والركاب • • قنابل ومدافع
وجنود • المهم ان الحرب راحت وجاء السلام ، ومع السلام جاءت المراكب
عبر البحار تحمل ركابا كايام زمان • ولكن ليتها ما جاءت • فركابها
أفقر من العساكر ، واغلبهم مهاجرون الى استراليا • تحسر الفهلوى على
خواجات زمان • • المعجائز الاثرياء • يبدو ان الحرب قد قضت على هذا
النوع من الناس ، واشاعت الفقر والخراب في بلاد بره • والا ، فلماذا كل
هذا الهم والفقر الذى يعيش فيه هؤلاء الوافدون من خلف البحار ؟
وبالرغم من هذا كله فالفهلوى حريص على الذهاب كل صباح الى الميناء ،
يصعد على البواخر • • يبيع إحيانا صورا تذكارية ، وأحيانا أخرى يضطر
الى ان يشتغل حاويا ويخرج الكتكوت من البيضة ، واغلب الاحيان كان يصعد

الى البواخر وليس معه شيء وينزل منها ومعه اشياء كثيرة . وهو يربح ما يكفيه ويستطيع ان يربح اكثر لو اراد ، ولكن آه لو وقع فى يد البوليس .

شيء واحد فقط كان يقلق بال الفهلوى ويعذبه . وهو عدم الاستقرار على مهنة تضمن له مستقبليه ، حتى جاءت الى الميناء مراكب من نوع جديد تحمل عساكر من فرنسا فى طريقها الى بلاد بعيدة . ورغم ان المراكب حربية الا ان الصعود على ظهرها مباح . والعساكر الذين تحملهم البواخر معهم نقود فرنسية ، وهم يستبدلونها بنقود من عملة الهند الصينية .

عمل سهل ومريح . وقلة تعمل وحدها فى الميدان . والفهلوى فى حاجة الى مهنة . . وهامى الفرصة امامه والمراكب المتى من هذا النوع كثيرة . ان يبدو ان حربا هائلة نشبت فى تلك البقاع ويبدو ايضا انها لن تنتهى ابدا .

وراح الفهلوى يصعد على البواخر يستبدل النقود . . ويربح كثيرا . والاوراق التى فى يده تتضخم وتزيد . واصبح الفهلوى تاجر نقود فى الميناء يكسب جنيهين واحيانا ثلاثة كل يوم . ثم زادت المراكب فزاد الربح ، وتضاعف الربح بعد ان اصبحت المراكب تأتى وتعود . وهو يستبدل النقود فى الذهاب والعودة ، وغمر السرور قلب الفهلوى ، فهو يكسب كثيرا وينفق أكثر ، ويتزوج ويطلق واصبح له فى بور سعيد عشيقات .

وأربع سنين كاملة والفهلوى يرتع فى النعمة . . وخزائنه اصبحت تضيق بالنقود من هذه العملية الغريبة . . عملة الهند الصينية .

صحيح ان الدنيا حظوظ ، والحرب التى تدور فى تلك البلاد البعيدة تدر عليه ربحا وفيرا ، ولكن اين تقع تلك البلاد البعيدة التى درت عليه كل هذا الربح ، واصبح الفهلوى اكثر اهتماما بالمشكلة عن ذى قبل . وراح يتتبع انباء المعارك التى تدور هناك باهتمام ، فهناك ثورة . . وفرنسا تحاربها ، وهو يدعو لفرنسا بالنصر ، وهى حتما ستنتصر . . فهى اقوى ولديها كثير من الرجال والعتاد . وحفظ عن ظهر قلب اسماء القادة الذين يحاربون هناك ، الجنرال كاسترو الفرنسى . . انه فى صورته يبدو عظيما وشديدا وسيأتى النصر قطعاً على يديه . فهو يحمل على صدره حفنة من النياشين ، وهو لابد خاض من قبل كثيرا من المعارك .

والجنرال جياب قائد الثوار يبدو هزيلا ضعيفا . . وستورته قديمة وليس على صدره أية أوسمة وهو يبدو فى الصورة غليان كعساكر البوليس .

انه الآن وبعد ان شاهد صورته متفائل بالنتيجة • وهل هناك شك في
انتصار الفرنسيين • وآه لو انتصروا ، اذن لاستطاع الفهلوى في نهاية
الحرب ان يستبدل كل النقود التي معه بعملة مصرية •• وهي تساوى عندئذ
نصف مليون جنيه • وسيهجر العمل طبعاً •• وسيجرب لأول مرة في حياته
عيشة الاثرياء العجائز الذين كانت تحملهم البواخر الى الميناء قبل الحرب •

ولكن لو خسر الفرنسيون الحرب ! ^{مَشَّ} معقول !!!
ولكنه خاطر كئيب احيانا يطوف بنفس الفهلوى فيزعجه ويحيل حياته
الى جحيم •

فانهم لو خسروا الحرب •• لخرج الفهلوى من الصفقة عارياً كما
كان • ولعاد من جديد الى الميناء يصعد على ظهر البواخر يبيع صورا
تذكارية ، ويخرج الكتكوت من البيضة •• وينشل جيوب الخواجات ••
فهو وان كان واثقاً من نتيجة المعركة الا ان هذا الشعور الغريب احيانا
يعتريه عندما يصعد على ظهر باخرة مستشفى قادمة من تلك البلاد التي
تدور فيها الحرب • وفي بطن السفينة كان يشهد المأساة بعينه • مئات من
الجنود الجرحى فقدوا اعز اجزائهم وناموا في ذهول ، بعضهم فقد نور عينيه •
وكان يعجب لان أغلب الجرحى ليسوا من الفرنسيين •• هم في الغالب
سود من الصومال او سمر من شمال افريقيا • وكانوا يصعبون عليه ،
واحيانا كثيرة ساعد بعضهم على الهرب لقاء بضعة جنيهات من عملة الهند
الصينية •

ومرة انتاب الفهلوى الذعر ، حين تقهقر الفرنسيون فجأة ••• وتقهر
معهم سعر الجنيه الهندوشين • ولم يغمض للفهلوى جفن الا عندما صمد
الفرنسيون واستعادوا مراكزهم • كانت محنة ولكنها علمته اشياء كثيرة •
فتقهقر الفرنسيين شيء مزعج حقاً •• ولكنه مفيد في الوقت نفسه ، اذ انه
يساعد على مد اجل الحرب •

ولكن فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان ابدا • فقد جاءت الانباء من
بعيد بانسحاب الفرنسيين انسحاباً طويلاً متواصلاً تاركين خلفهم عشرات
المدن وملايين الافدنة والاف القتلى والجرحى • وظل الفهلوى اياماً طويلة
متفائلاً بالنتيجة ••• صابراً على المحنة •• والصبر طيب • ولكن كل يوم
يمر كان يخيب ظنه في فرنسا •

وجاءت اللحظات الحاسمة فى تاريخ عبيد وتاريخ الحرب فى الهند الصينية . وبرز الى الوجود اسم قلعة ديان بيان فو . واصبح هذا الاسم جزءا من حياة الفهلوى . واكثر من خناقة عنيفة نشبت بينه وبين بعض التلاميذ من مدرسة بور سعيد . الذين يتحمسون للثوار ويتمنون لهم النصر!! مغفلون هؤلاء الاطفال لا يدركون عظم المصيبة التى ستحط على رأس الفهلوى لو حدث ما يتمنونه . واصبح الفهلوى حاد المزاج ، يضرب الناس لاتفه سبب ، ويقلب مائدة الطعام بلا سبب ويصفع زوجته كل صباح عدة أقلام سخفين . . . ويسبب الدين والدنيا ، ويصق على حال الدنيا الذى لا يدوم لاحد . حتى ولا لفرنسا واصبح الفهلوى زبونا للصحف ، يقرأ انباء المعركة بشغف . ولم يعد يختلط بأحد . . او يحثك بانسان . حتى عمله فى المراكب هجره فى انتظار نتيجة المعركة . وزوجته طلقها واستراح من وجهها النحس، واصبح شغله الشاغل كله . . الجنرال كاسترو . . الذى يحس نحوه حيننا عجيبا . والجنرال جياب الذى يود من صميم فؤاده لو تتيح له الايام فرصة صفعه على قفاه .

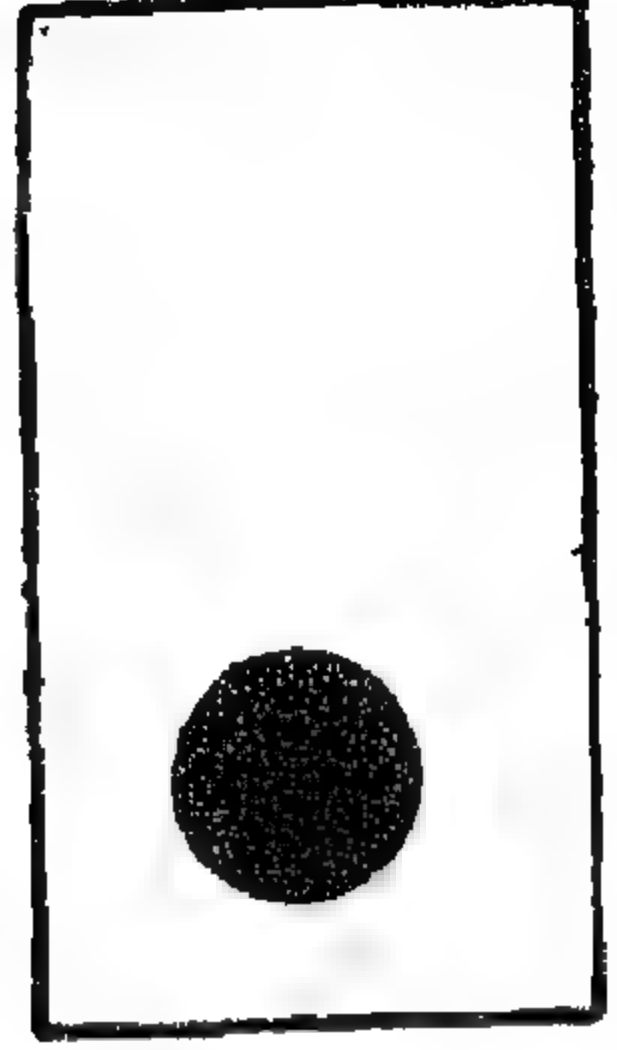
وجاءه النبأ الرهيب بعد أيام ، فقد انتصر الثوار وخسر الفرنسيون المعركة ، وخسر هو كل ما عنده من نقود . . فلم تعد تساوى ثمن الحبر الذى طبعت به . وتهاوى الفهلوى تحت عظم الصدمة فمرض واصفر لونه واستبد به الهزال . . ثم اصيب بالشلل فلم يعد قادرا على الحركة .

وايام طويلة كئيبة بائسة مرت عليه وهو يفكر عميقا فى المأساة . ويكاد يفقد عقله وهو يتساءل فى ذهول : كيف هزمت فرنسا ؟ وكان احيانا يخرج من بحثه الطويل بسبب يرضيه ، لا بد انها ارادة الله ، فقد عصت فرنسا تعاليمه ، وهو يعلم تماما انها بلد المساخر ، وانها بؤرة الرذيلة والشيطان .

شئ واحد فقط لم يستطع تعليله على الاطلاق . كيف هزم الجنرال كاسترو . . وهو يحمل على صدره كل هذه المجموعة الهائلة من النياشين .

وكيف انتصر الجنرال جياب . . . وهو فى بذلته الحقيبة ، وليس على صدره أثر انيشان . . . ويبدو فى الصورة غلبانا كعساكر البوليس . . لا بد انها حكمة الله !!!

جنة رضوان



خيم السكون والليل على « الدحيرة » ابن طولون ،
ولفت الظلمة الحالكة كل شيء في الممر الضيق الملتوى
الملتصق بجدار الجامع العتيق ، وخلا الطريق من كل
شيء الا من وقع أقدام بعض الرجال المتعيين المعائدين الى
منازلهم في أعلى الدحيرة ، أو طفل يجلس القرفصاء
يجوار الجائط يقضى حاجته .

ولكن من أول الدحيرة كان يبدو نور قهوة المعلم سلطان باهرا كضوء
الشمس ، وصوت الراديو يلعلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت أشباح
الجالسين في حلقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم في
استرخاء طبيعي لذيق . والواد برهومة يلف كالدبور حول الزبائن والكراسي
وصوته يملأ الجوع الفاضى وع المليون ، وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا
من بعيد أول الدحيرة هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :
- كراسى يا واد للمعلم رضوان وصحبته .

ومع أنه لم يكن هناك واد سيلبى نداء برهومة ، الا أنها كانت عاداته
دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد . والمعلم رضوان زبون دائم منذ
أكثر من عشرة أعوام ، لم يتخلف يوما عن موعد حضوره الى المقهى كسل
مساء فى التاسعة تماما . فهو يعمل خبازا فى قرن مجاور للمقهى ، وهو
يبدأ عمله فى الثانية عشرة تماما ، فهو يقضى فى المقهى كل يوم ثلاث ساعات ،
وكانت فلسفته دائما التى يشرحها لكل من يسأله عن سر مواظبته على موعد
المقهى :

- وهنعمل ايه ، عشان يبقى البيت جنب الغيط ، مش أحسن ما نروح سيما ولا نسكر ونعمل منكر مايرضيش الله ! والحقيقة أن المعلم رضوان لم يغضب الله أبداً . . فهو فى الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن ماتت زوجته وهو يعيش حياته على وتيرة واحدة . من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم فى البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل فى الفرن على مقهى المعلم سلطان . وهو لا يأتى الى المقهى وحده ، بل دائماً تحوطه شلة من الأصدقاء ، هو دائماً أعلمهم ، ودائماً أغناهم ، فجميع الطلبات التى تنزل الأرضية على حساب المعلم رضوان وفى ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكاناً خارج المقهى وجلس صامتا يكركر فى الشيشة العجمى التى لا تفارق فمه أبداً مادام هو موجود فى مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف فى صوت ممطوط :

- أنا حلمت حلم النهارده ربنا يجعله خير . .

وهتف الكل فى نفس واحد :

- خير انشالله . .

وعاد المعلم رضوان يقول فى نفس الصوت المنغم المعطوط :

- خير !! حلمت أن واحد جه صحانى م الثوم وقاللى قوم يا رضوان ، قتلته على فين ، قاللى اللى خلقك عاوزك ، قلت سبحان الله لا اله الا الله .

وبلا سبب أو مبرر مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور :

- يا سلام يا معلم . . يحيى العظام وهى رميم .

- آمال ، قدرة ، الغرض أنا قمت معاه على طول . . فضلنا ماشيين مع بعض لما صادفنا باب أخضر دخلنا منه .

وقطع الحديث رجل آخر ، هتف وجسمه كله يهتز من النشوة .

- الله أكبر . . ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضر ده خير .

وفى ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :

- آمال ! . . الغرض دخلنا م الباب الأخضر بصيت لقيتك جناين على

كل لون . ورد ، وزرع ، وخضرة ترد الروح وفواكه من كل صنف مالهاش سعر . . جوافه ، وفول أخضر ، وتفاح أمريكانى م اللى كان بيعجى هنا قبل

الحرب ، حاكم النوع الذى شفته ده فى الحلم ، عنيه ماشفتوش بعد الحرب
أبدا ..

ورد شاب صغير كان يجلس مع الجمع المحتشد حول المعلم رضوان :
- يا بخت الذى عاش قبل الحرب ، ده أبويا بيقول ان العشر بيضات كانوا
بقرش واحد .

وعلق بعض الجالسين على كلام الشاب بفتور .. وعاد المعلم رضوان
فاستأنف حديثه على الفور :

- الغرض بصيت لقيت فى الناحية الثانية وحوش من كل نوع ، غزلان
تلاقى ، سبوعة تلاقى ، لبو تلاقى .. انما هادية وواقفة ساكتة بأمر ربها .
سألت الجدع الذى معاها فى الحلم ، قتلته احنا فين ؟ .. قاللى احنا فى الجنة
يا عبيط ، وهو قال الكلمتين دول .. وبصيت مالمقتوش قدامى وصحيت م النوم
قلت اللهم اجعله خير يارب .

وهتف الجميع فى نفس واحد :

- خير انشالله ..

وقال واحد :

- ده ربنا كتبلك طولة العمر ، حاكم الموت فى الحلم يعنى عمر طويل ..
كل شىء يبقى عكسه فى الأحلام .

وضحك المعلم رضوان فى فتور .. وقال :

- والا الموت يا سيدى ، ما كلنا لها ، حد بيخلل فيها .

وقال برهومة الجرسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :

- أبدا وحياتك يا معلم .. شقى وأخرتها قطنة ، وياريت نطولها .

وجذب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محمومة من الشيشة ، ثم قال
فى هدوء :

- يا عم والله بنتمناها ، هيه مقابلة ربنا حد يطولها .. بس ربنا يجعل

آخرتنا حلوة ، ونشوف الجنة ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

- دى الجنة حلوه يا جدعان ، اللهم صلى على أجدع نبى ..

ثم رفع يديه فجأة الى السماء .. وهتف على الفور :

- الفاتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ..

ورفع الجميع أيديهم الى السماء ، وقرأوا الفاتحة في صوت خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع الصمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :

— الجنة حلوه ، بس مين يطولها يا معلم .

وفى الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق الأخرى ، ومال بنصفه الأعلى الى الامام ، ونظر بعينيه الضيقتين الى محدثه ، وقال فى هدوء شديد :

— كل المسلمين هيطلوها ، حاكم ، النبى بتاعنا متشفع لنا ، ووارد فى الكتب حديث عن النبى بيقول « يارب أمة المسلمين أنا متشفع لها » .
وفتح السائل فمه فى دهشة وعجب ، وقال :

— يا سلام ع القدرة يا جدعان ، بقى يعنى الواحد هيشوف الجنة ، سبحان الله . أنا كنت بقول الجماعة الفقرا اللى زى حالتنا عمرهم ماهيشوفوا ميتها . .

وقال المعلم رضوان فى ثقة العالم بالأمور :

— كذب ، مافيش حاجة اسمها غنى وفقير عند ربنا ، كله يوم القيامة واحد . نقف فى طابور واحد قدام بابين ، باب أخضر وباب أحمر . الباب الأخضر ده الجنة والاحمر النار والعياذ بالله . اللى مكتوبله الجنة يخش م الأخضر ، واللى بعيد عنكم مكتوب عليه النار يخش م الباب الأحمر . اللى هيشش م الأخضر يبص يلاقى على طول الجنان فى وشه . جنانين مالهش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنيين ، كل واحد يستلم سراية ، وحاكم سرايات الجنة مش كبيرة ، يدوبك على أد الواحد . وهيه كل الحكاية دورين . أول دور من غير مؤاخذه للأكل بس ، وتانى دور للنوم . وهناك نظام مفيش بعد كده . الواحد يصحى الساعة حذاشر ، اتناشر . . على مهله ، مفيش شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل وشه ، ويلبس جلابية بيضاء نضيفة ، ويقعد ع السفرة زى الناس الذوات . يبص يلاقى ع السفرة دى كل شئ قلبك يحبه من خيرات الله . فول زى الألمان مهروس فى الزبدة البقرى الحلوه ، وعسل وطحينة ، وجبنه حلوم بخيرها ، واللبن اللى لسه محلوب من بز أمه ، والمدقة اللى معموله بصنعة نضيفة ، والعيش الأبيض اللى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات ربنا اللى فى الجنينة . قسبول

ياكل ده بده ، ويقوم يتمشى شوية فى الجنائن ، أو يقعد جنب الشـبابـك
المفتوح ع البحرى يجيب تراوة ترد الروح ، حاكم كل الشبابيك اللى فى الجنة
ع البحرى . . والجو دايما هناك خريف يرد الروح ، ولا ترابة تـلاقى ،
ولا عفارة تلاقى ، حاجة نضافة مفيش بعد كده بقدره ربنا . .

كان الجمع المحتشد قد أصفى بكل ما فيه من حواس لحديث المعلم
رضوان ، وأشرف الجميع على مقاعدهم يستمعون فى نشوة وأعجاب وهم
يلمقون السنتهم تارة ، ويهرشون بين أفخاذهم تارة أخرى ويتشاءون على
الدوام . ولم يحاول أحدهم أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة
فى حماس هادىء جميل :

— المهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى ينام ، ما هو مفيش شغل هناك ،
ولا قوم روح الفرن ولا شوف العجين ولا كافة حاجة من دى ، كل واحد حر
نفسه ، فعلى طول الواحد يطلع ينام تانى لحد الساعة خمسة ، الساعة ستة ،
على كيفه . وعند ما يصحى يلاقى السفرة متحضرة ، فراخ عتاقى محمرة ،
كتاكت مشوية ، أرانب بالملوخية ، كبده على كلاوى . . حاجات م اللى تجرى
الدم فى عروق الواحد وتخلى عنيه تفنجل .

ولحق المعلم رضوان ريقه ، وكذلك فعل بقية الموجودين . . وسأله واحد:
— مفيش شوية طرشى يا معلم ؟ . .

ورد المعلم فى ثقة بالغة :

— دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجبولك ، كافة شىء ترغبه
نفسك يحضر على طول ، أمال هيه جنبه ليه ؟ !
ثم عاد المعلم رضوان يسرد قصته الجميلة . . والآخرون يستمعون فى
لذة فائقة :

— بعد الأكل بقى الواحد يغسل ايديه ، مفيش هناك حاجة اسمها تكسل
تغسل ايديك ، النضافة واجبة هناك . وبعد كده يجيلك الحور العين ، ستات
زى البقلاوة ، حاجة تفتح النفس ، مش زى الستات اللى الواحد بيشفوهم فى
السكك دول ، ما يغركش الأحمر والأبيض ، دى مسائل بوليتيكا كلها ، إنما
هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار اللى على كيفه ، خلاله .
وعلى أد الواحد ما يحرم نفسه من الدنيا دى ، على أد ما يمتع نفسه هناك ،
والعين بالمعين والسن بالسن . .

وهتف واحد من الجالسين :
- الله أكبر يا معلم .. أد كده ..
ورد المعلم على الفور :

- أmaal ، ماهو يعنى ايه حكاية العين بالعين دى ، يعنى زى ما تعمسل
تلاقى .. تهيص فى الدنيا وتلعب تنشوى فى نار جهنم ، تمشى عدل وتشوف
أوامر ربنا ، تتمتع زى ما بقولك دلوقت بالظبط ..

وسكت المعلم رضوان قليلا ، ريثما أزاح عمامته الى الخلف قليلا قبل
أن يقول :

- المهم الساعة اتناشر بالليل يكون العشا جاهز فى الجنة تنزل تتعشى
لقمة خفيفة ، شوية لبن ، حقة مربى ، حقة جبنة ، شويه زتون ، لقمة عيش
فينو . وتطلع تتمشى شوية فى التراويح ، وفى القمر الحلو .. حاكم القمر
ما يختفيش أبدا فى الجنة . يتنه منور على طول . عاوز تشوف حد ، تود حد ،
عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده .. زى مانت عاوز ..

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم رضوان سؤالاً محيراً :
- لكن الجنة واسعة قوى يا معلم .. الواحد هيزور الناس فيها
ازاى ؟

- لا ما هو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان كنت عاوز
تشوف حد فى الجنة بس تتمنى فى نفسك .. وعلى طول تشوفه .

- ازاى دى بقى ؟

وارتبك المعلم رضوان قليلا قبل أن يقول :

- الله !! أهو دا اللى حصل بقى . انت شريكه .

وسكت الرجل ، فقد أفحمه منطق المعلم رضوان .. ودار الهمس بين
الجميع ، وتحركت السننهم بتعليقات شتى :

- صجيح يا ناس ربنا قادر على كل شىء ..

- سبحانه .. هوه المغنى ..

- يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ..

- ده ربك كبير ..

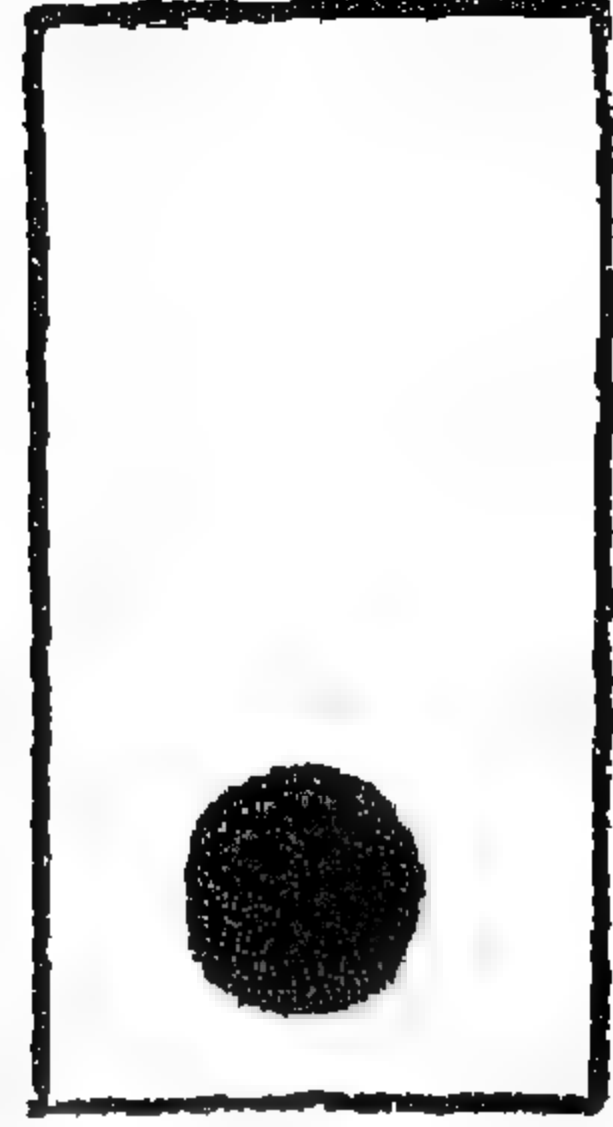
وعندما سكنت الأصوات ، وهم المعلم رضوان باستئناف الحديث من جديد ، زعق الواد برهومة كالغراب :

– يا معلم رضوان ، الساعة بقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصديرى فانتزع ساعته الضخمة القديمة .. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها الى جيبيه من جديد ، وقسام فانتحى ببرهومة جانبا وحاسبه على المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الخطى على بلاط الدحديرة حتى وصل الى الفرن . وعندما أصبح فى فم الباب أحس بوهج النار تكاد تلهب بحرارتها حتى الجدران ، ونسى المعلم رضوان كل شيء ووثب نحو الداخل على عجل ، وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسمار ، ثم قفز الى أسفل وفتح باب الفرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصيب العرق على جبهته بغزارة وهو يتناول أرغفة العيش ليقذف بها داخل النار ، وفى رأسه تطوف كل الصبور التى رسمها بنفسه للجنة التى لا بد وأن يراها فى يوم من الأيام ..



غيط القصب



يا وكستك يا حمدان بعد العمر الطويل تطلع حرامى
وتدخل اللومان ويموت أولادك من الجوع فى كفسر
الغنایم ٠٠ وانت طول عمرک شریف تضع على رأسك
لبدة ، وعلى صدرك نمره ، وعلى كتفك بندقية تحرس
بها غيط القصب للشركة ، ولك مرتب ثابت كالمستوظفين
وانت طول عمرک قانع يا حمدان بالجنيهات الثلاثة كل
شهر ، تدفع اثنين منهم للعيال فى كفسر الغنایم ،
وتصرف انت واحد طول الشهر تأكل وتنام وتلبس
وتشرب الشاي وأحياناً تدخن السجاير الممتاز ٠

والجنيه صحيح لا يكفيك ، والأمراض تنهش جسمك والروماتزم ينشر
عظمك وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تسرح حولك فى الجحر
الذى تأوى اليه والشقوق التى تمزق يديك تقيحت والخيبة تحط عليك من
كل مكان ٠

وقطع على حمدان تفكيره غلام جاء يعدو من بعيد ، ويزعق بصوت
كريبه وكأنه غراب :

— فز يا حمدان لفندى فى الشركة ٠٠

وزام حمدان كاسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداه ، ثم استدار
وراح قافزاً مثلما جاء ، وقضم حمدان أبهامه ، ثم نكش شعر شاربه المنفوش ،
وعاد يفكر فى الوكسة العريضة التى أصابته آخر الزمان ٠٠ فلا بد أنها ساعة

فحس تلك التي رآه فيها الأفندي معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب بقرشين والأفندي المعاون مؤذى لا يرحم أمه ، وسيطرده حتما وربما قدمه للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة .. ونهارك أزرق يا حمدان لو سجنوك .. فمرة قبل الآن ضبطوه وهو يسرق القصب .. ويومها سلموه للمركز .. وضربه العساكر بالكفوف والقوايش .. وبات أربعة أيام على الأسفلت ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل .. لانهم فى الشركة استغنوا عن خدماته .. وليس يعقل أن تقبل الشركة بين خفرائها لصوصا من عينة حمدان .. ولكن حمدان ليس لصا ، وهو لا يصدق أبدا أن الشركة تفصله من أجل حزمة قصب يضيع مثلها عشر مرات فى كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب والشركة لن يلحقها الخراب من أجل حزمة قصب يبيعها حمدان لا بد أنها عين أصابته من العاطلين الملطوعين على جانبي السكك فى كفر الغنايم ، وجفيت أقدام حمدان عند الشيخ ، وعند النائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش .. ونام أياما عند بيت المعاون .. ثم قبلت الشركة أن يعود الى عمله على شرط الا تمتد يده الى عود واحد من القصب .. ورضى حمدان بشرط الشركة .. وهو على يقين بأن يده ستمتد دائما الى غيط القصب ينتزع منه عيدانا يعصها وأخرى يبيعها ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالح ليس له برور ..

وعاد حمدان الى غيط القصب يحرسه ، والتجربة التي خاضها قد غمرت نفسه بأحاسيس جديدة ، وحركت برأسه أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به من قبل لماذا تكره الشركة السرقة عندما تكون من جانب حمدان ، مع أن الشركة تسكت على سرقات على نطاق أوسع من جانب لصوص يعيشون داخل القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحدا واحدا ، وتدفع لكل منهم أجرا كبيرا يوازى أجر المدير . وتحترمهم أيضا وتتركهم ينتزعون محصول فدادين كثيرة والشركة تبدو راضية كل الرضى .. بل انها فى أحيان كثيرة تأمر بتعيين أنفار لا حاجة اليهم لأن هؤلاء اللصوص أشاروا بتعيينهم وهو يعرف هؤلاء اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالى كثيرة عليه ويقضون ساعات الليل معه ، يشربون الشاي ويتحدثون احاديث فاجرة .. ويشتمون المدير والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثا صريحا وكأنهم لا يخشونه ، ومن خلال

تلك الأحاديث فهم حمدان انهم على علاقة وثيقة بالشيخ وبالنائب ، وانهم أحيانا ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الاعيان يأكلون ويسمرون وكأنهم معهم فى نفس المنزلة ..

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خفير آخر من عند باب الشركة بصوت مرتفع ..

— يا حمدان كلم لفندى المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت أعلى :

— طيب ، يعنى هو مستعجل جوى ع الشر ..

واستدار الخفير الآخر ومضى داخل الشركة ، وعندما غاب عن ناظره عاد يفكر وهو يتساءل فى دهشة عن السر الذى يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب انهم ليسوا أقوى منه جسدا ، بل هو أقوى من بعضهم ! طوله مفرط ، وقلبه ميت لا يخشى الأسود ومعه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم فى أبهى حلة ، الجلابيب الصوف والجوخ فى الشتاء ، ومن تحتها القفاطين الشامى والجزم الطويلة فى أقدامهم ومن تحتها الشرابات الصوف ، والكتاين الذهب تتدلى من جيوبهم وفى الصيف يلبسون الحرير الطبيعى والفانلات المشغولة بالآبرة والصنادل التى تكشف عن الأصابع والكعبين . وهو مفلس دائما ، وهم دائما فى سر ، محافظهم منتفخة ، وسجائرهم من نفس النوع الذى يدخنه الضابط واللفندى المعاون ، وهو يشرب السجاير الفرط ، ولا يجدها بسهولة فيمد يده الى غيط القصب ليعيد عصافير رأسه التى تهرب منه وتطير .

سؤال غريب . احتار حمدان فى البحث عن جوابه .. ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون فى النعمة ، ويشرب هو كل ما فى الوجود من ذل وهوان يرعبه الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندى مفعوص مثل المعاون انه أقوى من بعضهم والسلاح الذى معه مثل السلاح الذى معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هى انه يستطيع المشى أمام مركز البوليس فى أى وقت يشاء وهم لا يستطيعون . وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل أبدا عن هؤلاء المطاريد والنائب زاره مرة فى بيته وجلس معه فوق الفسرن وشرب معه الشاي وعامله بعمود ويوم الانتخابات ذهب ومعه تذكرة القى بها فى صندوق . والآخرين لا يستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس لهم

عند الحكومة وجود • وهو يخدم الشركة ، والآخرين يسرقونها ومع ذلك فله منها الاحتقار ، ولهم منها العطاء • أحوال مقلوبة مثل كل شيء فى الوجود ، ويبدو أنها ستظل مقلوبة ، ولا سبيل الى اصلاحها على الاطلاق • ولو ان هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التى طلبها منذ عام ، اذن لما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذى لايدرى كيف يواجهه • فقد فات الاوان واقشعر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه فى الحديد ، وصفا من الجنود يحرسه ، ثم المحاكمة والسجن ومصير أسرته فى كفر الغنائم وكلام الناس عليه • وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر الغنائم كله سوف يشمت فيه • وستهون أسرته وتذل ، وستخدم الذى يسوى والذى لايساوى شيئا فى سوق الرجال • وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود الى كفر الغنائم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا فى الحقول قبل أن يعمل فى الشركة ، انه سيبقى ملطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس اينما تدور •

ولو أنه لم يسرق القصب فى تلك الساعة المهيبة التى كان المعاون يمر فيها على الخفراء لما حدث من هذا شيء ولكن ، الله يخرب بيته محمد أفندى المدرس الالزامى هو الذى أصر على شراء حزمة القصب فى تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بمص القصب فى النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه فى الليل ، ولكن هكذا اراد له القدر ومحمد أفندى وأولاده المغرمون بمص القصب فى النهار أسباب ليس الا وليس أمامك يا حمدان الا التسليم بإرادة الله •

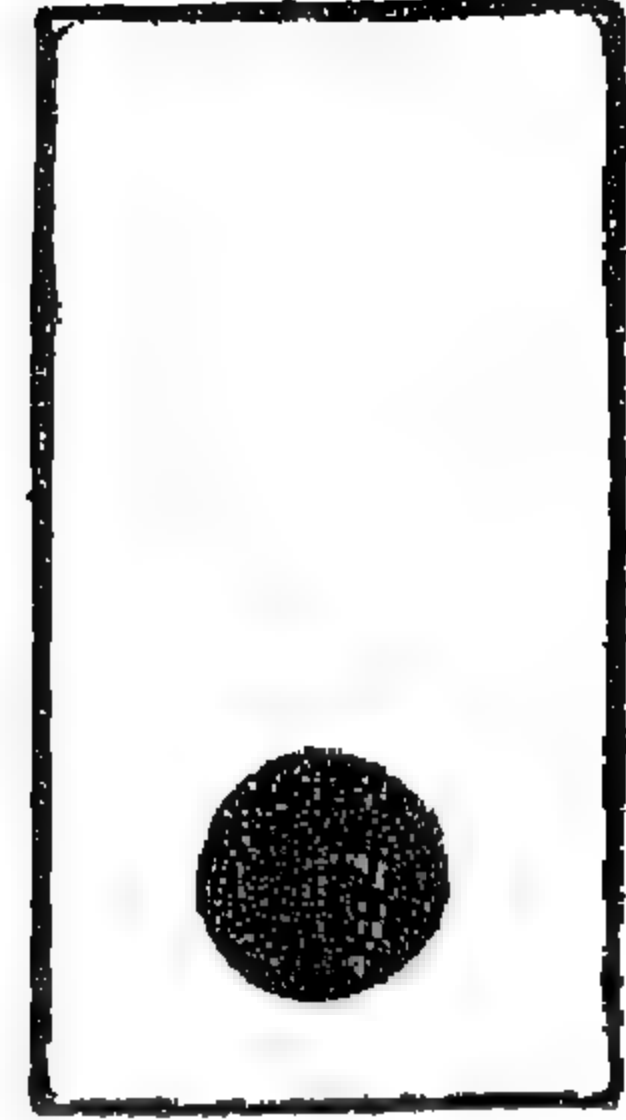
ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابه من جيبيه الداخلى سيجارة يشعلها عليها تهديء أعصابه ، وتضغط بدخانها على الثورة التى تجيش بنفسه ، ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت - أقرع - والعسكرية لا تأخذ القرع وعلى عينيه الشمال سحابة أصابه بها مرض لايدرى عنه شيئا كاد يفقده نور عينيه وهو طفل صغير •

وأشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها أنفاسا عميقة • وراح ينظر بعين نافذة الى غيط القصب الذى يترامى أمامه عريضا مثل البحر المالح ليس له برور • وفى داخله تسكن اسود كاسرة من البنى آدم تحتقر المدير والمعاون ، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للخفراء وتلبس الصوف فى

الشتاء والحريز فى الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرها فاخرة
النوع ، ولها من الشركة مرتب الخواجة المدير ، ومصمص حمدان شفتيسه
وبدت على وجهه ابتسامة أرعشت معاله كلها . وجاءه نداء مرتفع من
الخلف يطلب اليه أن يسرع فى مقابلة المعاون . ولكن حمدان لم يسمع
النداء ولم يهتم به ، فقد تحسس سلاحه ونهض على قدميه ، واخترق هذا
السياج الذى يفصل بينه وبين الاسود الكواسر التى تسكن الغيط وانفرجت
أعواد القصب وتهشمت تحت أقدامه أعواد ما لبثت أن عادت وتآلفت ، وغاب
حمدان من خلفها عن الأنظار . وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الاسود
الكاسرين .



شد اللبان



يخرب بيت الذين نصحوك يارشوان بركوب المركب •
لقد انهذ حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن
تصل الى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تدبيرك وعقلك
لكنت الآن في الطريق الى مصر خفيفا على قدميك ، ولما
كانت الحبال قد أدمت كتفك وعنقك وانت مربوط فيها
طول النهار كأنك قرد ، والمركب من خلفك ، ومن فوق
المركب آلاف البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال
يملكون المركب ولا يتحرك رجل منهم ليشد اللبان قليلا
يا رشوان •

وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيخة على ظهر المركب ينظر
في نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة في رفق ، ولا نسمه هواء
ويبدو انها لن تكون وسيشد اللبان في الصباح كما شده كل يوم منذ شهر ،
ورفع رشوان يده التي أدهاها الحبل يتحسس عظامه التي تحطمت وعروق
رقبته التي برزت وانتفخت وأصبح لونها أزرق من النيلة •• انه الآن في بنى
سويف وبعد خمسة أيام سيصبح في مصر ولكن من يدري ، فقد لا يصل الى
مصر أبدا انه يحس الآن احساسا صادقا نابعا من جروحه التي تقيحت ، انه
سيموت في الطريق وسيدفن في قبور مهجورة مجهولة كالكلب ، والله ينكد
على صالح فهو الذى أشار عليه بهذه المشورة المهيبة وأكد له أنه لن يشد
اللبان أكثر من يوم •• وربما يومين وأحس رشوان بحركة غريبة من خلفه

فاستدار بعنقه ليرى من هناك ، ولم يكن هناك سوى الرئيس سليم الذى يملك أكبر حصّة فى المراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ، ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان يتقلب على ظهر المركب كالسمكة فسأله فى استنكار :

— جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟

— فى حال الدنيا ..

— وما لها الدنيا ما هى عال ..

— عال جوى عشان مانت جاعد زى البلاص طول النهار ، وأنا عما اشد

فى اللبان لما انهض حيلى ..

عجائب ياخوانا على رجالة اليومين دول .. دى رجالة ورج .. وهل الرئيس سليم وكبر واستغرق فى الصلاة ، ومرت على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التى عاشها فى النهر على ظهر المركب ولا عمل له الا شد اللبان ، فهو فى حاجة فعلا الى السفر الى مصر ، بعد أن وصله خطاب يفيد بضرورة الحضور للعمل فى شليش الخضار بروض الفرج ، وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من غير أجر . فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى الشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبارا وأصحاب أطيان ، وهو لا يهتم كيف يبدأ المهم أن يجد ما يبدأ به ، ولكن المشكلة كانت فى الطريقة التى يسافر بها الى مصر وهو لا يملك نقودا ولا يستطيع أن يقترض وفكر رشوان بعمق ثم قرر فى النهاية أن يرحل الى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه سواها ، وهو لن يعدم وسيلة ليجد غذاءه وثمان الدخان على طول الطريق ، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا الى مصر ولن يدفع شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير فى مجرى النهر .. وصالح نفسه جرب هذا من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوئى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح .. وهى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان الى النهر ، وساوم واتفق وجاءت قرعته فى مركب الرئيس سليم .

وكانت الريح عظيمة نشطة ، والمركب تسير كالونش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكأنها ماتت .. وجاء الدور

على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه فى الحبل وغاص فى الطين عند حرف البحر وهىلا هوب والمركب تتهادى من خلفه ومن فوقها البلايص ومن فوق البلايص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومان وأسبوع والريح يبدو أنها لن تبعث من جديد ..

ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح فيه رشوان اذن لصار قادرا على الشد أبد الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون .. انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة ، ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفى الأمسيات التى كان يسهرها رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا يثور على الوضع الذى انتهى اليه الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

— هو ما فيش عدل ..

— كلام ايه ده اللى انت بتجوله ؟

— هو ما فيش رجالة تانى تشد ..

— ما هو انت اللى رضيت ، كان حد ضربك على جفاك ؟

— طيب وسيدى عبد الرحيم لماشى بكره وسايب المركب ..

— مع السلامة يا خي ، انت حتشاركنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ وعيده ، انه لا يستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان أكثر من أسبوعين فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجأة فيستريح ، ثم هى لا بد أن تهب حتى لا يفوت الوقت وتضيع الشغلة .. ولو ضاعت اذن لمات جوعا فى مصر ، وماتت الأولاد فى الصعيد .. ولكن الريح ظلت ميتة حتى وصل المركب الى أسبوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطئ خمسة أيام كاملة ولم يغادرها رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول الى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم فى الشغلة وفى الأولاد ، وفى عبد المعبود وزيدان وصابر الذين أصبحوا بنكيرة وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك وانزلت المركب فى الطريق الى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه ، وأصبح قادرا على الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل الى البر عند القرى التى تقف عليها المركب فيطوف فى داخلها يشاهد معالمها ..

ان الجو بعد أسبوط أرق منه فى داخل الصعيد ، والخير هنا أكثر والناس أنظف وأغنى ، والنساء أجمل ولونهن أفتح من اللاتى فى الصعيد

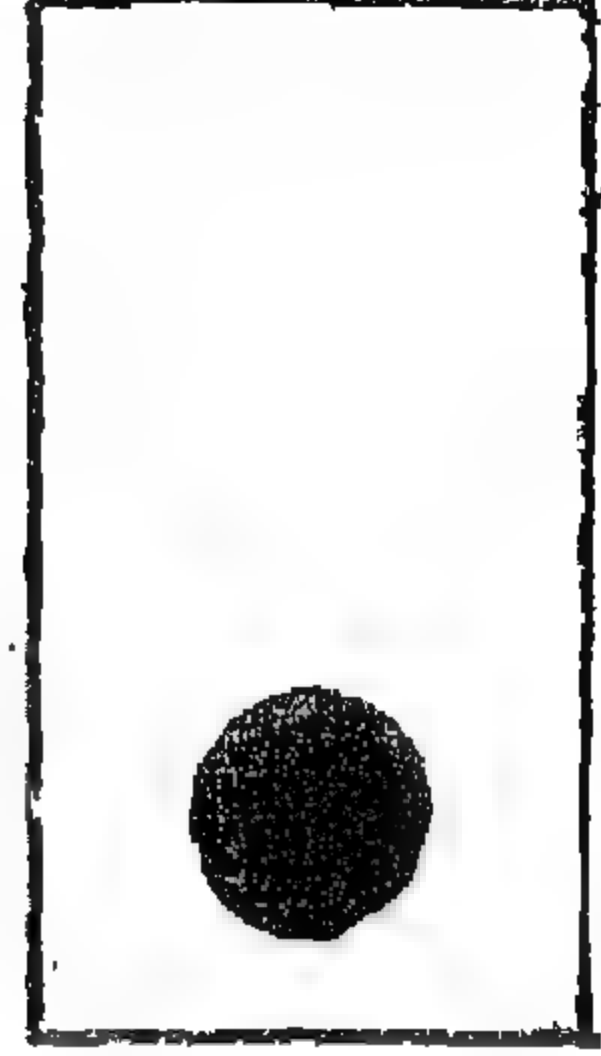
لأبد أن النساء فى مصر يشبهن الخواجات السواح اللائى يفدن إلى الصعيد فى الشتاء ، وياخرايك يا رشوان لو وقعت فى واحدة منهن ، عندها مال قارون ، وعمارات مثل عبد المعبود ، وغيطان مثل زيدان ، ياخرايك يا رشوان لو حدث الذى فى بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترجمان العدمان صمويل مانت فى دبابيه خواجاية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه فى الجبة الجوخ والمقطان الحرير والعصايا الكريز والجوز الأجلسيه ، والخواتم الذهبية فى أصابعه والملاسة الكشمير على كتفيه ، والعيال فى الصعيد سيدفع لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة ٠ أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب إلى مصر قبل أن تطير الشغلانة وهو يعلم أن العاطلين فى مصر أكثر من البلايص فى الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند المنيا ، وهات يا شمس ٠٠ ويثن رشوان ويتوجع ولا مجيب وقد استطاع أن يصل بالمركب إلى بنى سويف ، وأمامه الآن خمسة أيام لو هبت الريح والريح كانت دائما تهب قبل أن يركب هو المركب ٠٠ ولكن لماذا ركب هو فى يؤونة ٠٠ أنه سوء الحظ ٠٠ وكان من الممكن أن يستمر رشوان فى شد اللبان لولا زجاجة كبيرة مشطورة نصفين دخلت فى رجله فقطعتها ونزف دمه كأنه يسيل من حنفية ٠٠

وأحس رشوان بهبوط فى قواه ٠ فنام على ظهر المركب وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترايا ولفه بخرقه وجدها عند الشاطئ وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ، والحمى التى كانت فى ساقه الجريحة شملت جسمه كله ٠ وراح رشوان فى غيبوبة ٠٠ يتذكر أم عياله التى تركها بلا قرش، وعياله الصغار والشغلة التى فى الشليش ، والشورة المهيبة التى أشار بها صالحيه والتى لولاها لكان الآن يسير على قدميه خفيفا كالفراشة نحو مصر ٠ ولم يدر رشوان وهو فى الغيبوبة أن الريح قد هبت قوية رغم يؤونة ، وأن المركب تنزلق بسرعة مع التيار وأنه قد أصبح فى مسديرية الجيزة ، وفى الصباح سيكون فى مصر ٠ لم يدر بشئ من هذا كله ، فقد كانت الحمى تأكله ، وتأكل وعيه ، فكان لا يرى إلا الماء ولا يذكر إلا شد اللبان الذى جاء بخبره ٠ وفى الليل حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهذى بكلام كثير حتى أن الرجنال أصحاب المركب أيقنوا أنه سيموت فالتفوا حوله ، يبللون جبهته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ٠٠

وعندما جاء الصباح كانت المركب قد بدأت في رحلتها مع التيار منذ
الفجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق ورشوان ممدد مكانه على
ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت عنه وطأة الحمى القاسية التي استبدت به :
ونهض في ثقل وقد تأكد ان المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطة .
والتيار يدفع بالمركب سريعا نحو مصر . وعندما رأى على الشاطئ البعيدين
سرايات جميلة وسيرات تسابق الريح تأكد انه أصبح في مصر فاستدار الى
الناحية الأخرى مدقفا النظر في معالم الطريق الذي ينحدر فيه . وعندما رفع
بصره أمامه أشرق وجهه الكالح ، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه . كان
كوبري عباس يقف على بعد قليل يسد مجرى النهر وكأنه حارس عنيد . وجلس
رشوان مكانه وهو يشكر الله على أن نجاه من موت أكيد . وعندما اندفعت
المركب أسفل الكوبرى في طريقها الى روض الفرج طاف بخياله عبد المعبود
وزيدان وصمويل المترجمان الذي أصبح بنكيرا ومن أعيان أسوان . .



باعتز



ازدانت القرية في تلك الصباح وشغلت نفسها
بالحديث عن القادم اليها .. هذا البية الدكتور السدي
يعرف كل شيء وفي رأسه علم الدنيا .. والذي شرب العلم
من بلاده ، عندما كان في بلاد بره ، حتى فاق أهل بره
علما وفنا !! ..

ومن في الدنيا لا يعرف الدكتور شريف « ده متعلم في
أمريكا يا جدعان وشارب العلم من بز أمه » ..

هكذا أكد شندي لأهل القرية وهو يتحدث عن البية الدكتور السدي
سيشرف القرية في المساء ليتحدث الى الفلاحين عن كيفية حلب البقرة ، ووسائل
زيادة الثروة الحيوانية .. موضوع المحاضرة كما كتب على تذاكر الدعوة
التي وزعها عصو مجلس الشيوخ على كبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفلاحين الغلابة لم تصل اليهم دعوات لحضور المحاضرة اكتفى
العمدة بالمرور عليهم في بيوتهم في موكب مهيب من الخفراء وشيخ الخفر ،
وشيخ البلد ، ونبه على كل منهم ألا يتأخر في الحضور الى المركز الاجتماعي
حتى لا تقوته محاضرة الدكتور ، لم ينس العمدة أن يخبرهم وابتسامة عريضة
ترقسم على شفتيه أن البية المأمور سيشرف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البية الدكتور والمحاضر وراح كل
منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم بره .. في أمريكا ، والذي
فاق أهل بره علما وفنا ..

- ولكن .. ما هي الثروة الحيوانية دي يا جدعان ..
 هكذا تساءل أحمد البديوي ريس أنفار الدودة في عزبة العمدة ، وسارع
 محمد أفندي المدرس اللزامي بالرد عليه .
- الثروة الحيوانية يا بهيم ماتعرفهاش ..
 وضحك أحمد البديوي حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو يلهث من شدة
 استغراقه في الضحك ..
- يعنى هوه أبويا كان ودانى الجامعة ..
 وضرب محمد أفندي كفا بكف وهو يلعن أبو البهايم .. ويزوم مثل كلب
 جريح ..
- بقى فيه حد اسمه مايعرفش الثروة الحيوانية يا جدعان وعاشين في
 الدنيا تعملوا ايه بالذمة . الثروة الحيوانية يا حيوان يعنى يعنى بدل مايبقى
 عندك جاموسة تبقى عندك جاموستين ..
 ورد أحمد البديوي على الفور :
- طيب ويبقى عندى جاموستين ازاي وأنا ما ما عنديش فلوس . هوه أنا
 لاقى أهرش ..
- ، وضيق محمد أفندي ما بين حاجبيه وعينيه . وراح يخلع بأظافر يده ،
 أظافر قدمه ، وقال في هدوء بالغ :
- أهو ده اللي متعرفوا النهاردة في المحاضرة ..
 ثم أضاف بعد فترة صمت طويلة :
- حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دي مكتوب عليها
 الفقر ، طول مافيهها بهائم زى أحمد البديوي .
 وأثارت العبارة الأخيره أحمد البديوي فزقق على الفور :
- جرا ايه يا محمد أفندي ، احنا يعنى غلطنا في البخاري ، هو ده اسمه
 كلام برضه ، بقى يعنى حلب البقرة عاوز محاضرة .
 وضحك محمد أفندي طويلا ، وقال وهو يهز رأسه بشدة :
- محاضرة يا بهيم .. مش محاضرة .
 - أنا عارفك بقى .. أهو محاضرة زى محاضرة ..
 ونهض محمد أفندي ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينهض متثاقلا ،
 لقى بها على رأس البديوي ، وهو يقول ضاحكا :

– ياراجل روح شوفلك تربة ، قبل الموت ما يغلى • وقال البديوى دون أن يتحرك :

– أهو الموت جى •• يعنى هوہ احنا راح نخلال ••
وعندما ابتعد محمد أفندى عن الجمع المحتشد عند دكان ونجث ، تساءل ابراهيم عطوه فى خوف شديد :

– هوہ الدكتور اللى جى الليلة راح يكشف ع البهايم ••
وهرش البديوى فى قفاه •• قبل أن يقول :

– حد عارفلم حاجة ••

وقال ابراهيم عطوة بحذر :

– حاكم البهيمه بتاعتنا عيانه قلت أخبيها هنا ولا هنا •
وارتفع صوت من وسط الجلسة يقول :

– خبيها برضه أحسن ، ما حدش عارف ايه اللى راح يجرا

وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، ويموج بالمشآت الذين توافدوا اليه من أنحاء القرية والقري المجاورة • وكان عساكر البوليس يضربون حوله نطاقا ، وثمة صوت مزعج يصرخ فى الميكرفون لتجربته قبل بدء الحفلة • ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد الرسول شحاته وهو يملك عشرة أفدنة لا غير ، ومع ذلك أصر على الجلوس فوق الكراسى القטיפية ، ورفض أن يتلحج من فوق الكرسى ولو اضطره الأمر الى ارتكاب جناية !

وبعد قليل أقبل الأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفندية ، فأفصح الناس لهم طريقا •• وسرعان ما اتخذ الجميع مجلسهم فى الصف الامامى ، وأصر الأمور على ألا يجلس قبل أن يجلس عضو الشيوخ والدكتور أولا •• كان الدكتور شابا فى الثلاثين من عمره يرتدى بذلة حريرية بيضاء ، ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت قد اختفت منذ ساعات • ويبسود نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ••

وهمس الفلاحون بأن العلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكل شبابه. وأنه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل احمد البديوى على الأقل •• وعندما انتهى المقرئ من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام الميكرفون ، وبعد أن تنحنح وشرب شقطة ماء واحدة قال فى صوت جميل ، وعبارات واضحة :

- أيها الفلاحون الزملاء • السلام عليكم ورحمة الله •
 ورد الجالسون جميعا وفي وقت واحد :
 - وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ••
 ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فأسرع مواضلا حديثه
 على الفور :
 - ان موضوع الساعة هي كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة
 الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد غيرة خمسة عشر عاما قضيتها في
 أمريكا ••
 فأولا لكي نحلب البقرة يجب أن يتم حلبها في مكان نظيف مدهون
 بطلاء أبيض لراحة أعصاب البقرة ••
 وثانيا يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير في هذه العملية ويستحسن
 أن يكون مرتديا قفازا من الجلد الناعم ، وجلابيا أبيض معقما في درجة
 حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمامة على الأنف أثناء عملية الحلب حتى
 لا يتلوث الحليب بالميكروبات المختلفة ••
 وإلى هذه اللحظة كان الجميع صامتين •• ولا حركة • ولكن أبو سويلم
 الخفير •• هتف في اذن جاره :
 - همه راح يفرقوا علينا كمادات هيه الحـرب قامت والا ايه
 يا جدهان !!!
 ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال • كان
 يجلس في الصف معاون المستشفى ، وموظف البوستان • ولم يسكتوا الا عندما
 التفت الأمور الى الخلف •• فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ، وعاد
 الدكتور الى حديثه قائلا :
 - ولكي يكون اللبن مفيدا ومحتفظا بكافة المواد الغذائية يجب حفظه
 في أوان من المعدن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها • كما يجب
 معاملة البقرة قبل عملية الحلب معاملة حسنة بحيث لا تتوتر أعصابها فتفسد
 اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال ••
 وصمت الدكتور قليلا ريثما تناول شقطة أخرى من كوب الماء الذي أمامه
 ثم تناول منديلته الحريري ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما
 كانت وضرب بيده على المائدة •• وقال في صوت جميل •

ـ وإذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن ، وسيصبح في مقدور البقرة أن تلد ولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة ..

وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز في السبعين من عمره ، وسأل في لهفة :

ـ ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟ ..
وضربت لخرة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب على سؤال العجوز . ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال آخر :
ـ بقرة ايه ؟ ..

ـ البقرة اللى احنا راح نعاملها كويس ..
وابتسم الدكتور ابتسامة هادئة وأجابه :
ـ البقرة اللى عندك ..
وقال العجوز :
ـ أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات الوقار على وجه الدكتور وقال :
ـ لكن احنا بنتكلم عن اللى عندهم بقرة ..
وظاقت الصالة وارتفع الهمس بين الفلاحين . واحنا ما عندناش بقر ، واللى عنده حقة جاموسة عامل أبو على .. والنبي يخيب خبيتك اللى ما يقول يا عزيز .. يا عزيز ! ..
ولم تفلح التفاتة الأمور هذه المرة في إعادة السكون فاضطر الى أن يرفع صوته « هص .. هص » ..

وسكت الناس من جديد . غير أن الضجيج عاد عندما بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الخفير ، وخرج خلفه أحمد البديوى ، ونصار الأقرع .. وتسلسل العشرات خلفهم الى الخارج ، وعندما انتهى الدكتور من محاضرتة لم يكن موجودا هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبد الرسول شحاته ، فقد كان قرب المسافة بينه وبين الأمور يغريه بالبقاء .

وعندما انتهى الدكتور من محاضرتة . صافح الأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين . وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه

فأشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشيد
بفضل الجيه المأمور في استتباب الأمن والمنظام في دائرة المركز ..
وقال وهو يصلح من شأن جاكته الكالحة :
- ماترعلش من أهل بلدنا يادكتور . حاكم دول ناس بهائم !!
وقال الدكتور في هدوء ، وشبح ابتسامة طيبة ترتسم على شفتيه :
- لا أبدا ، دول ناس طيبين ..
وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربية ثم مالبتت العربية أن تحركت ،
وغابت بهما عن الأنظار ..
وعندما مرت العربية على الجسر ، ونورها يكشف لها الطريق الى
مسافة بعيدة ، وزوبعة من الغبار تلاحقها على الطريق . هتف الفلاحون
الذين يجلسون على حرف التربة في كسل لذيذ :
- دا الدكتور أهه ياجدعان ..
وقال أبو سويلم على القور :
- يخيب خيبتك اللي مايقول ياعزيز ..
ورد الجميع في صوت واحد :
- يا عزيز !! ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
المقدمة (كوميديا السعدنى.. ومأساة البشر)	
بقلم صلاح حافظ	٩
خوخة السعدان	١٣
الأفريكى	٢٣
أجدع الناس	٣٥
الانجليزى الحر	٤٣
خاتم سليمان	٥١
شيخ الخفراء	٦١
المأموز	٧١
العبقرى	٨١
السماء السوداء	٩٥
واعظ الإيمان	١٠١
الى طمما	١٠٧
المرحوم	١١٧
البولوبيف	١٢١
مادام هناك نساء	١٢٥

١٣٥	مولد الشيخ حمزة
١٤٥	خواجهات شارع الهرم
١٥٥	جاء الشتاء
١٦٣	في ليلة العيد
١٧٣	ديان بيان فو
١٧٥	جنة رضوان
١٨٣	غيط القصب
١٨٩	شد اللبان
١٩٥	ياعزيز

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/٩١٣٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6704 - 5



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» ..
ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيماناً منا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى
إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى
الكتاب مصدراً هاماً وخالداً للثقافة فى زمن الإبهارات
التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام
السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠)
عنواناً فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة
المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتراثاً لا يبلى من أجل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



١٥٠
قرش

Bibliotheca Alexandrina



0534816

مكتبة الأسرة ١٠٠
مهرجان القراءة للجميع